د٠ ابراهيم عوض

سورة الرعد

دراسة أسلوبية وأدبية

تم التصميم والاخراج والطبع بمركز الشرق العربى قسم الكمبيوتر
شهار - الشارع العام * تليفون / ٧٤٩٥٤٩١

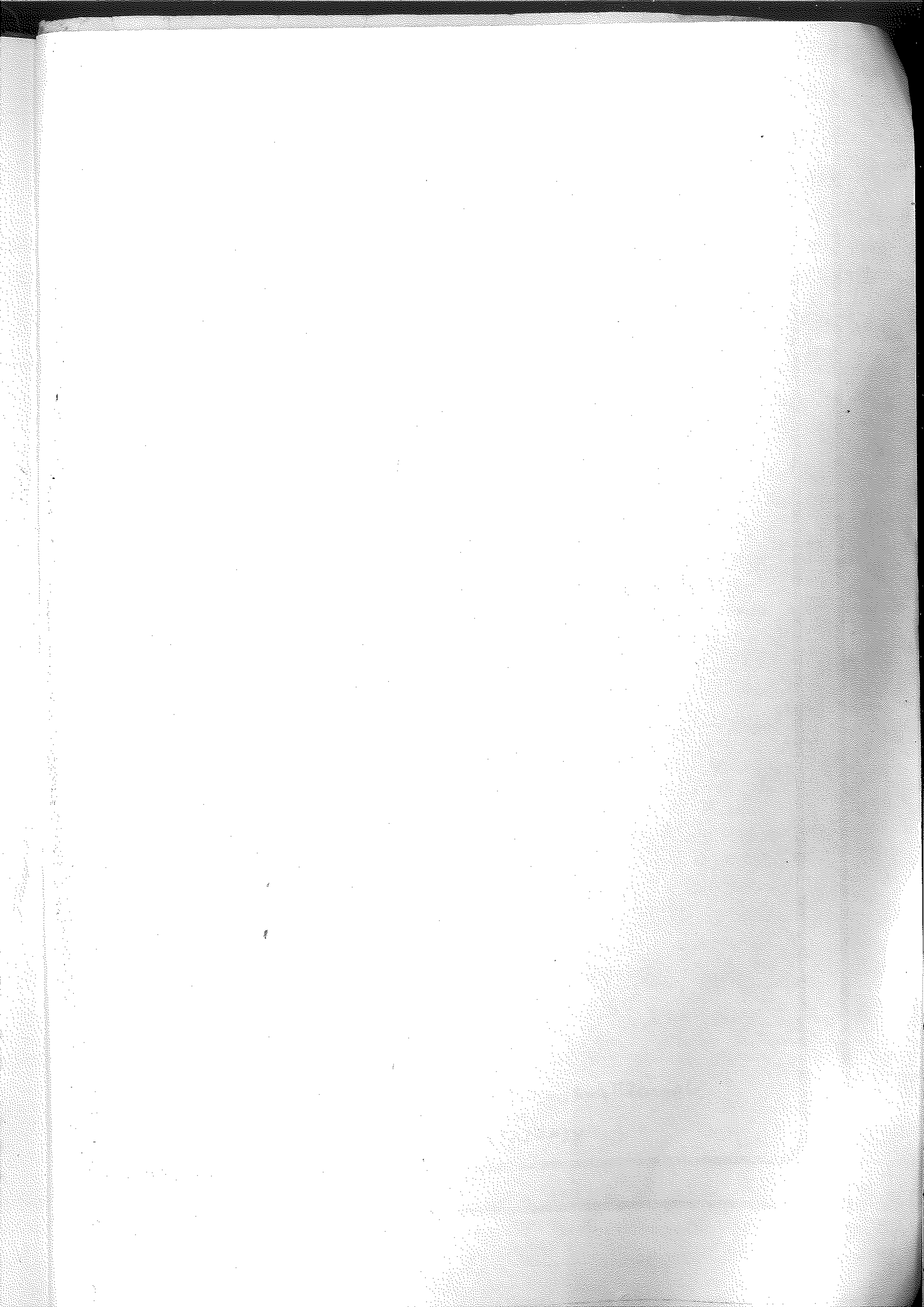
د٠ ابراهيم عوض

سورة الرعد

دراسة أسلوبية وأدبية

تم التصميم والاخراج والطبع بمركز الشرق العربى قسم الكمبيوتر

شهار - الشارع العام * تليفون / ٧٤٩٥٤٩١



مقدمة

هذا تفسير لسورة " الرعد " أقمته فى المقام الأول على أساس من التحليل الأسلوبى والتذوق الأدبى ٠ وقد غلب التحليل الأسلوبى على الفصل الأول الذى خصصته لمناقشة الخلاف حول مكية السورة أو مدنيتها والذى انتهيت فيه بناء على التحليل الشديد التفصيل لألفاظ السورة ، وصيغ هذه الألفاظ ، وعبارات السورة ، وتراكيبها ، وموسيقى فواصلها وأفكارها ، الى أنها لايمكن ان تكون الا سورة مكية ٠ وأرجو أن يكون عملى فى هذا الفصل شيئا جديدا

أما فى الفصل الثانى الذى قمت فيه بتفسير السورة آية آية وعبارة عبارة فقد توازن التحليل الأسلوبى مع التذوق الأدبى والبلاغى ٠ لقد كنت عند تفسير كل عبارة أسوق التفسيرات المختلفة لها عند المفسرين الكبار ، ثم أقفى على ذلك بمناقشة كل تفسير من هذه التفسيرات ، جاعلا مقياسى فى قبول التفسير أو رفضه " بل وفى التقدم بتفسيرى الخاص فى حالات غير قليلة : اما على سبيل الاضافة لغيره من التفسيرات ، واما على سبيل ترجيح صحته عليها ، واما على أنه هو التفسير الوحيد الذى لا أجد فى غيره مقنعا " ، جاعلا مقياسى فى ذلك مدى موافقة التفسير أو مخالفته لاستخدامات القرآن لهذه اللفظة أو العبارة أو الصورة أو لذلك التركيب فى المواطن المختلفة ٠

وقد اهتبلت الفرصة فدرست ماورد فى السورة من أساليب مختلفة كأسلوب " قل " ، الذى تتبعته فى القرآن وخرجت من دراسته بعدة ملاحظات أحسب أنها جديدة ، وأسلوب " أئذا ٠٠٠ أئنا ٠٠٠ ؟ " ٠٠٠ الخ

كذلك فقد ناقشت بعض القضايا ذات الأهمية الشديدة ، كقضية كروية الأرض ومدى امكان معرفة الأطباء لما فى الأرحام ، وكذلك قضية مدة الحمل ، التى وجدت بعض المفسرين القدماء يقولون فيها انها تصل الى أربع سنوات وان بعض الأطفال قد نزلوا من بطون أمهاتهم مكتملى الأسنان ٠ وفى كل ذلك كنت حريصا على استنطاق النص القرآنى ، جريا على قواعد اللغة والبيان العربيين ، بما لم يتنبه اليه أولئك المفسرون فى غمرة انشغالهم بسطح النص عن إمكاناته الدلالية التى لاتتصادم مع مافرغ من تقريره العلم الطبيعى اليقينى والتجارب المشاهدة التى لاتقبل المماراة ، أو بسبب قصور المعطيات العلمية فى عصرهم

كما استقصيت فى مناقشتى للقضايا التى عولجت فى أكثر من موضع بالقرآن ، كقضية المشيئة الالهية والمشيئة البشرية ، كل النصوص القرآنية التى عالجتها والتى باحت لى بعدد من الملاحظات الهامة ، وهو مايعرف بـ " تفسير القرآن بالقرآن " ٠ وهذه أسلم طريقة فى التفسير

وكثيرا ما أوردت اعراب هذه الكلمة أو تلك الجملة ، ولكن لا لمجرد الاعراب ، بل للاستعانة به فى فهم النص أو ترجيح تفسير أو رفضه أو انشاء تفسير أحسبه جديدا ٠ وفى بعض الأحيان كنت آتى باعراب لم أجده فى الكتب التى كانت بين يدى ، كما رجحت أو رفضت فى أحيان أخرى بعض الاعرابات التى قابلتنى ٠ وكانت عمدتى فى كل ذلك هى مدى اتساق الاعراب المختار " قطعا أو ترجيحا " مع ما أنا مقتنع به من نصوع البيان القرآنى وجزالة عباراته وشدة أسر تراكيبه ومتانتها

وفى الفصل الثالث درست بناء السورة والعوامل التى تشد آياتها بعضها الى بعض ، ثم ماتتميز به من الفواصل ، التى لم أقف فى دراستها عند هذا الحد ، بل حاولت أن أبين سر اختلافها من موطن فى السورة الى موطن آخر

سورة الرعد
دراسة أسلوبية وأدبية
١-مكية السورة ومدنيتها

اختلف فى العهد الذى نزلت فيه هذه السورة : أهو العهد امكى أم العهد المدنى ؟ ليس ذلك فقط ، بل انهم اختلفوا أيضا لو كانت مكية : أكلها مكية ؟ أم فيها آيات مدنية ؟ وماهى ؟ واذا كانت مدنية فهل كلها كذلك ؟ أم فيها مكى ؟ وماذلك المكى ؟ أكثر من ذلك انه قد نسب للشخص الواحد أحيانا أنها مكية وأنها مدنية • فمثلا جاء فى تفسير القرطبى أنها مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وفى قول الكلبى ومقاتل أنها مدنية ، وعند ابن عباس وقتادة أنها مدنية الا آيتين منها نزلتا بمكة ، وهما قوله تعالى : " ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ••• " الى آخرهما • أما أبوالسعود فقد ذكر فى تفسيره أنها مدنية وأنه قيل انها مكية الا قوله : " ويقول الذين كفروا ••• " الآية • وفى الطبرسى عن ابن عباس وعطاء أنها كلها مكية ، وعن الكلبى ومقاتل أنها مكية الا آخر آية فيها ، نزلت فى عبدالله بن سلام • ويرد سعيد بن جبير على هذا الاستثناء فى تساؤل مستنكر : كيف تكون هذه الآية نزلت فى عبدالله بن سلام والسورة مكية ؟ أما الحسن وعكرمة وقتادة فهم على أنها مدنية الا آيتين من أول قوله تعالى : " ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ••• " الى آخرهما • أما السيوطى فيورد روايتين تنسب احداهما لابن عباس القول بأنها مكية ، وتنسب الأخرى اليه هو نفسه أنها مدنية (١) • واذا كان قد أسند فى تفسير الطبرسى لقتادة أنها مدنية الا آيتين فقد أسند اليه فى السيوطى ايضا أنها مدنية ، ولكن باستثناء آية واحدة لا اثنتين ، هى : " ولايزال الذين كفروا تصيبهم بماصنعوا قارعة ••• " • ويزيد الألوسى رايا آخر مؤداه أن السورة من أولها الى آخر قوله : " ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ••• " مدنية ، وسائرها بعد ذلك مكى • كما ينقل عن الاتقان أن مايؤيد قول القائل بأنها مدنية هو ماتنسبه احدى الروايات لأنس أن قوله تعالى : " الله يعلم ماتحمل كل أنثى ••• " الى قوله سبحانه : " ••• وهو شديد المحال " قد نزل فى أربد بن قيس وعامر بن الطفيل حين قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ••• وهكذا •

وكما ترى فان معتمد المفسرين فى القول بأن هذه السورة مكية أو القول بمدنيتها انما هو على الروايات لاغير • وياليتهم اذ فعلوا ذلك حاولوا أن يمحصوا هذه الروايات ، لكنهم للأسف لم يفعلوا ، بل رأينا السيوطى مثلا يورد من الروايات مايقول بالرأى ثم يورد عقبيه مايقول بعكسه ، دون أن يرى مايوجب التدخل لفض هذا الاشتباك بين الروايات المتناقضة ، وان كان قد رأى انه يمكن الجمع بينها بالقول بأنها مكية الا آيات فيها • (٢)

أما سيد قطب فى " ظلاله " فانه ينحو منحى آخر ، اذ لايهتم بالروايات والأسانيد ، بل يتجه رأسا الى النص يستنبط منه العهد ، بل أيضا المرحلة التى نزلت فيها هذه السورة • يقول : " ان افتتاح السورة ، وطبيعة الموضوعات التى تعالجها ، وكثيرا من التوجيهات فيها ••• كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية وليست مدنية كما جاء فى بعض الروايات والمصاحف " ولكنه لايكتفى بنسبتها الى العهد المكى بل يمضى فيحاول أن يحدد ، ولو على وجه العموم ، فى أى مرحلة من مراحل ذلك العهد نزلت • ولذلك نراه يضيف قائلا انها " نزلت فى فترة اشتد فيها الاعراض والتكذيب والتحدى من المشركين ، كما كثر فيها طلب الخوارق من الرسول صلى الله عليه وسلم واستعجال العذاب الذى ينذرهم به ، مما اقتضى حملة ضخمة تستهدف تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه على الحق الذى أنزل اليه من ربه فى وجه المعارضة والاعراض ، والتكذيب والتحدى ، والاستعلاء بهذا الحق ، والالتجاء الى الله وحده ، واعلان وحدانيته الها وربا ، والثبات على هذه الحقيقة ، والاعتقاد بأنها هى وحدها الحق مهما كذب بها المشركون • كما تستهدف مواجهة المشركين بدلائل هذا الحق فى الكون كله ، وفى أنفسهم ، وفى التاريخ البشرى وأحداثه كذلك ، مع حشد جميع هذه المؤثرات ومخاطبة الكينونة البشرية بها خطابا مؤثرا موحيا عميق الايقاع قوى

الدلالة " ٠

والحق أن المنهج الذى اتبعه سيد قطب فى تحديد مكية السورة أو مدنيتها هو المنهج السليم حين يجد الباحث نفسه ، كما هو الحال الآن ، وقد أحاط بعنقه هذا الركام المتضارب من الروايات احاطة تكاد تخنقه ٠ فالمعروف أن لكل من المكى والمدنى سماته الخاصة به ، وتلك التى تغلب عليه (الى جانب ماهو مشترك بينهما طبعا) ٠ كذلك فانى معه فى أن السورة مكية ٠ ولكن يلاحظ عليه أنه لم يفصل القول فى حيثيات التى حكم على أساسها أن السورة مكية ، بل ساقها كما ترى موجزة أشد الايجاز اذ كان كل ماقاله هو : " ان افتتاح السورة ، وطبيعة الموضوعات التى تعالجها ، وكثيرا من التوجيهات فيها ٠٠٠ كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية وليست مدنية " ٠ انه لم يبين لنا مثلا كيف يدل افتتاح السورة أو كيف تدل طبيعة موضوعاتها على أنها مكية ٠ ثم انه قد فاته أن يحلل أسلوب السورة للاستهداء به فى هذه المشكلة (٣) ٠

ومن الذين قالوا من مفسرى العصر الحديث أيضا أن السورة مكية بناء على النص نفسه محمد الطاهر بن عاشور ، وذلك فى تفسيره المسمى " تفسير التحرير والتنوير " ٠ وهذا نص كلامه : " هذه السورة مكية كلها أو معظمها ٠٠٠ ومعانيها جارية على أسلوب معانى القرآن المكى من الاستدلال على الوحدانية ٠ (٤) والأسباب التى أثارت القول بأنها مدنية أخبار واهية " ٠ وهو أيضا مثل سيد قطب قد فاته أن يحلل أسلوب السورة لحسم مكيتها ٠

وسوف نقوم نحن بتحليلها من الناحية النصية اسلوبا (فواصل ومفردات وصيغا وعبارات وتراكيب) ومضمونا (أفكار وموضوعات) ، لنرى أهى مكية أم مدنية ٠ ونبدأ بالنظر فى فواصلها ٠ فمنها فاصلة اللام المسبوقة بالف ، وقد ترددت فى السورة سبع مرات هى على الترتيب : " المتعال " و " وال " و " الثقال " و " المحال " و " ضلال " و " الآصال " و "الأمثال " (٥) ٠ وهذه الفاصلة لم ترد فى آية سورة مدنية ، اللهم الا مرة واحدة فى سورة النور ، وذلك فى الآية السادسة والثلاثين ، التى تنتهى بقوله تعالى : " وظلالهم بالغدو والآصال " ، على حين أنها وردت فى المكى ست مرات : أربعا فى " ابراهيم " هى : " خلال / زوال / الأمثال / الجبال " (٦) ، ومرتين فى " غافر " هما : " ضلال " و " ظلال " (٧) ٠

ومن فواصل السورة أيضا تلك الفاصلة المنتهية بقاف قبلها ألف ، وقد وردت مرتين هما : " واق " و " واق " (٨) ٠ وهذه الفاصلة لاوجود لها البتة فى القرآن المدنى ، على عكس المكى ، الذى عثرت عليها فيه ثلاث عشرة مرة : ست فى " ص " هى : " شقاق " و " اختلاف " و " فواق " و "الاشراق " و " الأعناق " و " غساق " (٩) ، ومرتين فى غافر هما : " التلاق " و " واق " (١٠) ، وخمسا فى " القيامة " هى : " التراقى " و" راق " و " الفراق " و " الساق " و " المساق " (١١) ٠ بل انه لاتوجد فى الوحى المدنى فاصلة تنتهى بالقاف على أى وضع ، بخلاف ماوجدته مثلا فى سورة " الطارق " المكية وهو : " خلق " و " دافق " (١٢) ٠

ومثل ذلك أنه وردت فى سورتنا فاصلة تنتهى بعين هى " متاع " (١٣) ٠ وعبثا تبحث فى الوحى المدنى عن فاصلة عينية ٠ أما فى المكى فمنه مثلا " جزوعا " و " منوعا " (١٤) ، و " الرجع " و " الصدع " (١٥) ، و " ضريع " و " جوع " (١٦) ، وهكذا ٠

ومما وقع فى فواصل السورة كلمتا " أناب " و " ماب " (١٧) ٠ وهاتان اللفظتان لاتعرفهما فواصل السور المدنية ، أما بالنسبة للسور المكية فنجد أن كلمة " أناب " قد وردت فاصلة فى صورة " ص " مرتين (١٨) ، ومثلها كلمة " مآب " ، التى وردت فى صورة " ص " أيضا ثلاث مرات (١٩) ٠

فهذا عن الفواصل ٠ أما عن افتتاح السورة فلعل سيد قطب رحمه الله يقصد بالماحته الخاطفة اليه ماقاله علماء القرآن من أن " كل سورة تفتتح بحروف التهجى كـ " الم " و " الر " ونحو ذلك فهى مكية سوى الزهراوين ، وهما البقرة وآل عمران (٢٠) ٠ بيد أن نفس هؤلاء العلماء يضيفون أيضا أن فى سورة " الرعد " خلافا (٢١) ٠

وبالنسبة للمفردات ، ففي السورة بعض الألفاظ التي لم تستعمل الا في الوحي المكي، ومن هذه كلمة " القارعة " ، التي وردت في غير " الرعد " في أربعة مواضع كلها من مكي القرآن ، وهاهي ذي :

" كذبت ثمود وعاد بالقارعة " (٢٢) .

" القارعة * ما القارعة ؟ * وما ادراك ما القارعة ؟ " (٢٣) .

ومن المفردات التي وردت في السورة ولم تأت الا في القرآن المكي كلمة " رواسي " ، التي وردت خارج سورة " الرعد " ثماني مرات ، وهاهي ذي نصوصها :

" والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي " (٢٤) .

" وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم " (٢٥) .

" وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم " (٢٦) .

" جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي " (٢٧) .

" وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم " (٢٨) .

" وجعل فيها رواسي من فوقها " (٢٩) .

" والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي " (٣٠) .

" وجعلنا فيها رواسي شامخات " (٣١) .

وليس ذلك وحسب ، بل انه لايوجد في الوحي المدني أية لفظة مشتقة من هذه المادة التي ورد منها في القرآن " أرسى " (٣٢) و " راسيات " (٣٣) و " مرسى " (٣٤) ، وكلها أتت في نصوص مكية .

ومنها كلمة " واق " ، التي لم تأت خارج سورة " الرعد " الا في سورة " غافر " ،وهي مكية ، وذلك في قوله سبحانه :

" وماكان لهم من الله من واق " (٣٥) .

ومثلها " العقبى " ، التي وردت في السورة خمس مرات (٣٦) ، ولم ترد في غيرها الا في سورة " الشمس " ، وهي من المكي . وذلك في قوله سبحانه : " ولايخاف عقباها " (٣٧).

وكذلك يمكن الاستهداء في الحكم في قضية مكية السورة أو مدنيتها بصيغ بعض الألفاظ الواردة فيها ، فمثلا صيغة المجرد الثلاثي من مادة " ع ج ب " سواء كانت فعلا أو مصدرا أو اسما أو صفة لم ترد (اذا نحينا "الرعد " مؤقتا) الا في نصوص الوحي المكي . وهاهي ذي :

" بل عجبت ويسخرون " (٣٨) .

" أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم " (٣٩) .

" عجبوا أن جاءهم منذر منهم " (٤٠) .

" بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم " (٤١) .

" أفمن هذا الحديث تعجبون " (٤٢) .

" قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ " (٤٣) .

" أجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لشيء عجاب " (٤٤) .

" أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس... ؟ " (٤٥) .

" كانوا من آياتنا عجبا " (٤٦) .

" واتخذ سبيله في البحر عجبا " (٤٧) .

" فقالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا " (٤٨) .

" ان هذا لشيء عجيب " (٤٩) .

" فقال الكافرون : هذا شيء عجيب " (٥٠) .

أما النصوص المدنية فلم يستخدم فيها من هذه المادة الا صيغة " أفعل " بالهمزة (أعجب . يعجب) :

" كمثل غيث أعجب الكفار نباته " (٥١) ٠

" ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم " (٥٢) ٠

" ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم " (٥٣) ٠

" قل : لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث " (٥٤) ٠

" لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن " (٥٥) ٠

" ولبعد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم " (٥٦) ٠

" فلاتعجبك اقوالهم ولا أولادهم " (٥٧) ٠

" ولاتعجبك أموالهم وأولادهم " (٥٨) ٠

" واذا رايتهم تعجبك أجسامهم " (٥٩) ٠

" يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار " (٦٠) ٠

" ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا " (٦١) ٠

أى أن " العجب " أى الاستغراب والاستبعاد استعمال مكى ، بينما " الاعجاب " أى الاستحسان والاستملاح مدنى ٠

وهذا من الفروق الدقيقة ٠ فاذا وجدنا أن " الرعد " قد تضمنت " العجب " لا " الأعجاب " ، أفلا يكون هذا دليلا آخر يضاف الى الأدلة الكثيرة التى تتضافر كلها على الاشارة الى أن السورة مكية ؟

ومن الصيغ التى تلفت النظر فى سورتنا صيغة الجمع من " أمة " ، فقد وردت فى القرآن عشر مرات (عدا المرة التى وردت فيها فى سورة " الرعد ") (٦٢) ، وكلها تنتمى الى مكى الوحى ، اللهم الا مرة واحدة جاءت فى نص مدنى ، ومع ذلك فان هذاالنص المدنى ، ان صح أنه كذلك ، هو جزء من سورة مكية ، وذلك هو الآية ١٦٨ من سورة " الأعراف " ونصها :

" وقطعناهم فى الأرض أمما " ٠

أما المرات التسع فكلها ، كما قلت ، وحى مكى ٠ وهاهى ذى :

" ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم " (٦٣) ٠

" ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك " (٦٤) ٠

" قال : ادخلوا فى أمم " (٦٥) ٠

" اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم " (٦٦) ٠

" تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم " (٦٧) ٠

" وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم " (٦٨) ٠

" لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم " (٦٩) ٠

" وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم " (٧٠) ٠

" أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم " (٧١) ٠

" وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما " (٧٢) ٠

ومن ذلك أن الفعل الماضى المبنى للمجهول من " أمر " ، والذى فاعله ضمير يعود على الرسول عليه السلام ، والوارد فى سورتنا هذه ، وذلك فى قوله تعالى :

" قل انما امرت أن اعبدالله ولا أشرك به " (٧٣) ، لم يأت قط فى أى موضع من نصوص الوحى المدنى ٠ أما فى المكى فقد جاء مرارا ، واليك النصوص :

" قل : انى امرت أن أكون أول من أسلم " (٧٤) ٠

" لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " (٧٥) ٠

" وأمرت أن أكون من المسلمين " (٧٦) ٠

" وأمرت أن أكون من المؤمنين " (٧٧) ٠
" قل : انما امرت أن أعبد رب هذه البلدة التى حرمها " (٧٨) ٠
" وأمرت أن أكون من المسلمين " (٧٩) ٠
" قل : انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين " (٨٠) ٠
" وأمرت لأن أكون أول المسلمين " (٨١) ٠
" وأمرت ان أسلم لرب العالمين " (٨٢) ٠
" وأمرت لأعدل بينكم " (٨٣) ٠

ومثله المضارع المبنى للمجهول والمسند الى ضمير يعود على الرسول عليه السلام :

" فاصدع بما تؤمر " (٨٤) ٠

ومما يمكن اللجوء اليه للفصل فى قضية مكية " الرعد " أو مدنيتها بعض عبارات السورة وصورها وتراكيبهاالتى لم ترد الا فى القرآن المكى ، وان وردت ففى موضع واحد ليس غير ٠ وهذه العبارات هى :

١- " آيات الكتاب ٠٠٠ " (٨٥) ، التى لم ترد فى المدنى ولا فى موضع واحد ، على حين وردت فى السورة المكية خمس مرات (٨٦) :

ويلحق بها قوله تعالى : " تلك آيات القرآن وكتاب مبين " (٨٧) ٠

٢- " يستوى على العرش " (٨٨) ، التى لم ترد فى المدنى الا فى موضع واحد (٨٩) ، على حين وردت فى المكى خمسمرات (٩٠) ، أحيانا بالفعل المضارع كما هى الحال هنا ، وأحيانا بالفعل الماضى ٠

بل انه سبحانه لم يذكر كلمة " العرش " من غير ذكر الاستواء ، الا فى الوحى المكى ٠ وهاهى ذى النصوص (٩١) :

" عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم " ٠
" وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا " ٠
"اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا " ٠
" فسبحان الله رب العرش عما يصفون " ٠
"قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم " ٠
" فتعالى الله الملك الحق ٠ لا اله الا هو رب العرش الكريم " ٠
" وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم " ٠
" الله لا اله الا هو رب العرش العظيم " ٠
" أيكم يأتينى بعرشها ٠٠٠ ؟ " ٠
" قال : نكروا لها عرشها " ٠
" فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك " ٠
" وترى الملائكة حافين من حول العرش " ٠
" الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم " ٠
" رفيع الدرجات ذو العرش " ٠
" سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون " ٠
" ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية " ٠
" انه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين " ٠
" وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد " ٠

٣- " سخر الشمس والقمر " (٩٢) لاتوجد الا فى موضع واحد من القرآن المدنى (ان صح أنه كذلك ٠ ذلك أن السورة مكية ، والآية نفسها التى وردت فيها هذه العبارة لاتتعرض لموضوع مدنى بالذات) (٩٣) ، وتكررت فى المكى عدة مرات ٠ وهاهى ذى النصوص (٩٤) :

" وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر " .

" ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن : الله " .

" وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى " .

" وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى " .

٤- " ان فى ذلك لآيات ... " (٩٥) ، التى لم ترد ولا مرة على حين ترددت فى الوحى احدى وعشرين مرة (٩٦) .

٥- كذلك لم يرد ذكر " الجنات " مقترنا ب " الزرع " وحده ، أو " به وبالنخل " (كما هى الحال فى الآية الرابعة من سورتنا) (٩٧) الا فى نصوص الوحى المكى ، وهذه النصوص هى (٩٨) :

" ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب " .

" واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا " .

" أتتركون فيما ههنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم ... ؟ " .

(كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم " .

٦- عبارة " خلق جديد " (٩٩) لم ترد الا فى المكى . وهاهى ذى الشواهد :

" ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد " (١٠٠) .

" وقالوا : أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ؟ " (١٠١) .

" هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ؟ " (١٠٢) .

" ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد " (١٠٣) .

" أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد " (١٠٤) .

ويلحق بها عبارة (خلقا جديدا) ، التى وردت فى القرآن مرتين ، وكلتاهما فى نصوصه المكية :

" وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ " (١٠٥) .

٧- كذلك فان صورة الأغلال التى فى الأعناق (١٠٦) هى من الصور التى تكررت فى القرآن المكى عدة مرات (١٠٧) :

" وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا " .

" اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل " .

" انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا " .

على عكس القرآن المدنى ، الذى لم يرد فيه قط .

٨- ومنها عبارة " لولا أنزل عليه آية من ربه " (١٠٨) ، التى لم ترد فى القرآن المدنى قط ، ووردت فى المكى (بهذا النص أو ببعض التحوير الذى لايذكر) ثلاث مرات (١٠٩) .

٩- كذلك فهذان الاسمان من أسماء الله الحسنى : " الواحد القهار " لم يقترنا [الا] فى الوحى المكى . وقد حدث هذا (فيما عدا المرة التى ورد فيها فى سورة " الرعد")(١١٠) خمس مرات . واليك نصوصها :

" أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ " (١١١) .

" وبرزوا لله الواحد القهار " (١١٢) .

" قل انما أنا منذر ، ومامن اله الا الله الواحد القهار " (١١٣) .

" سبحانه هو الله الواحد القهار " (١٤٤) .

" لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار " (١١٥) .

١٠- ومثل ذلك السلام الذى يلقاه أهل الجنة (١١٦) ، مما لا وجود له فى الوحى المدنى الا فى وضع واحد (١١٧) ، بخلاف المكى الذى تكرر فيه ذلك (١١٨) :

" ونادوا أصحاب الجنة أن : سلام عليكم " .

" دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام " .

" خالدين فيها باذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام " ٠

" ان المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين " ٠

" يقولون : سلام عليكم ٠ ادخلوا الجنة بماكنتم تعملون " ٠

" سلام ، قولا من رب رحيم " ٠

" وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ٠ طبتم " ٠

" ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود " ٠

" لايسمعون فيها لغوا الا سلاما " ٠

" ويلقون فيها تحية وسلاما " ٠

" لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * الا قيلا : سلاما سلاما ! " ٠

١١-عبارة " يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " (١١٩) لم ترد فى المدنى الا مرة واحدة (ان صح أنها مدنية) (١٢٠) ، أما فى المكى فقد وردت عدة مرات (١٢١) ٠

١٢-ومن هذا أيضا عبارة " كفى بالله شهيدا بينى وبينكم " (١٢٢) ، التى لايعرفها الوحى المدنى على عكس المكى ، اذ وردت فيه اربع مرات (١٢٣) ٠

والآن الى التراكيب .

ان تركيب " أئذا ٠٠٠ أئنا ٠٠٠ ؟ " الموجود فى قوله تعالى من السورة : أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ " (١٢٤) هو تركيب لم يرد فى أى قرآن مدنى ، على عكس المكى ، فقد ورد فيه فى ثمانية مواضع كاملا (١٢٥) ، وفى موضع بحذف الجواب (١٢٦) ، وفى موضع بتقدم الجواب (١٢٧) ٠ والملاحظ أنها قد وردت كلها على السنة الكفار فى معرض انكار البعث ٠ **وهاهى ذى (على الترتيب) النصوص القرآنية التى وردت فيها هذا التركيب .**

" وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ " ٠

" وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟" ٠

" قالوا : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ " ٠

" وقال الذين كفروا : أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ؟ " ٠

" وقالوا : أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ؟ " ٠

" وقالوا : ان هذا الا سحر مبين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ "٠

" أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ؟ "٠

" وكانوا يقولون : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ " ٠

" أئذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد " ٠

" يقولون : أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ * أئذا كنا عظاما نخرة ؟ " ٠

فان التركيب الاستفهامى المكون من همزة استفهام تليها فاء عطف (أو واو) ويليها الاسم الموصول " من " وبعده فعل ، والمحذوف منه الخبر ، هو تركيب لايعرفه الوحى المدنى ٠ وقد ورد فى القرآن فى أربعة مواضع (وذلك علاوة على سورة " الرعد " (١٢٨) ، ونصه فيها : " أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء ٠ قل : سموهم ") ٠ وهذه هى المواضع التى ورد فيها هذا التركيب ، وهى كما قلت جميعها نصوص مكية :

" أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة ؟ " (١٢٩) ٠

" أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ؟ فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء " (١٣٠) ٠

" أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله " (١٣١) ٠
" أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ وقيل لظالمين : ذوقوا ماكنتم تكسبون " (١٣١) ٠
" أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ " (١٣٢) ٠

كذلك فهذا التركيب : (الواو أو الفاء + اما + فعل مضارع مسند الى ضمير جماعة المتكلمين المقصود به رب العزة + نون التوكيد ٠٠٠) والمتمثل فى قوله تعالى : " واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك " (١٣٣) ، فانه لم يرد فى اى قران مدنى ٠ أما المكى فقد ورد فيه فى عدة مواضع (١٣٤) ، (علاوة على انه ورد نفس المعنى فى موضع خامس ، وهذا الموضع هو ايضا مكى ، وذلك فى قوله تعالى : " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولاتستعجل لهم ٠ كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار") (١٣٥) ٠ ومن الطبيعى الا يرد هذا الكلام الا فى وحى مكى ، قبل أن يبدأ اشتباك الاسلام والشرك فى تلك المعارك الطاحنة التى كتب فيها للاسلام الظفر منذ بدايتها فى بدر وظل معقودا له لواؤه ، اللهم الا فى انتكاسة احد بعد ماكانت يد المسلمين هى العليا فى بداية الأمر لولا عصيان الرماة أوامر الرسول لهم بالثبات فى مواقعهم ٠ ان الآيات هنا تذكر أن من الممكن أن يمد الله فى عمر نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يريه وعده من النصر والفلج على الأعداء أو يتوفاه قبل ذلك ، اى ان شيئا مما وعد الله به نبيه لم يكن قد حدث ٠ وهذا انما يصدق على الفترة المكية ٠ ان الذين يقولون بمدنية هذه السورة يقولون انها نزلت بعد " محمد " (١٣٦) ٠ فلو كان رأيهم هذا صحيحا لكان هناك تناقض بين هذه الآية ووقائع الصراع بين الاسلام والشرك ، اذ كان الاسلام قد انتصر عليه انتصارات باهرة فى عدد من المعارك ، فكيف يقال : " ان وقع ماوعدناهم به أو توفيناك قبل ذلك " وماكان الله قد أوعد به الكفار قد تحقق منه حينئذ جزء غير قليل ؟

ومثله قوله : (أولم يروا ٠٠٠ ؟) ، وهو تركيب مكون من : (همزة استفهام + واو العطف ، أو بحذفها ، أو ابدالها الى فاء + لم + الفعل المضارع " يرى " مسندا الى واو الجماعة) ٠ وهذا التركيب لم يأت فى اى موضع من القرآن المدنى ، بخلاف المكى ، فقد ورد فيه فى سبعة عشر موضعا (١٣٨) :

" الم يروا كيف أهلكنا قبلهم من قرن ؟ " ٠
" الم يروا انهم لايكلمهم ولايهديهم سبيلا ؟ " ٠
" أولم يروا الى ماخلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ؟ " ٠
" الم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن الا الله ؟ " ٠
" أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على ان يخلق مثلهم ؟ " ٠
" أولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟ "٠
" أولم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ " ٠
" أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ؟ " ٠
" أولم يروا يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ " ٠
" أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ " ٠
" أولم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ؟ " ٠
" أفلم يروا الى مابين ايديهم وماخلفهم من السماء والأرض؟ " ٠
" ألم يروا كم أهلكنا من القرون أنهم اليهم لايرجعون ؟ " ٠
" أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ؟ " ٠
" أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ " ٠
" أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ " ٠
" أولم يروا الى الطير فوقعهم صافات ويقبضن ؟ " ٠

كذلك فالتركيب الذى صبت فيه خاتمة الآية الثانية والثلاثين من سورتنا التى بين ايدينا ، وهى قوله تعالى : " فكيف كان عقاب ؟ " والمكون ، كما هو واضح ، من (الفاء + كيف الاستفهامية + كان + اسم

يدل على العقاب " عقاب / نكير / عذاب / نذر " + ياء المتكلم المحذوفة غالبا) ، والذى تكرر فى القرآن (فيما سوى " الرعد ") تسع مرات (١٣٩) ، لم يرد الا فى الوحى المكى ، اللهم الا آية سورة (الحج) ، التى أشك مع ذلك فى مدنيتها ، فهى فى تهديد أهل مكة بما جرى القرآن على تهديدهم به فى الوحى المكى ، رغم أن السورة فى عمومها مدنية ٠

فاذا انتقلنا الى الأفكار والموضوعات فاننا نلاحظ الآتى :

أن فكرة " مد الأرض" الواردة فى الآية الثالثة من السورة (١٤٠) لم ترد فى الا القرآن المكى (١٤١) :

" والأرض مددناها وجعلنا فيها رواسى " ٠

" والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى " ٠

" واذا الأرض مدت "٠

وبالمثل فاستعجال الكفار (سواء كفار الأمم السابقة أو كفار العرب أعداء الرسول عليه السلام) للعذاب الذى توعدهم الله سبحانه به قد تردد غير قليل فى القرآن الذى نزل بمكة ٠ أما الوحى النازل فى المدينة فلم ترد فيه هذه الفكرة ، اللهم الا فى موضع واحد (١٤٢) أنا أشك كثيرا فى مدنيته ، فالمستعجل فيه كفار مكة ، وكيف يستعجل الكفار ذلك بعد الهجرة وهو قد أخذ ينصب عليهم منذ غزوة بدر ؟ ان استعجال الشيء لايكون الا قبل أن يوجد ذلك الشيء ، فاذا وجد فلا استعجال ٠ وحتى لو قلنا انهم يستعجلون هنا عذاب الآخرة ، فالرد أن ماكان قد انفجر بينهم وبين المسلمين من صراع مرير كانت الغلبة فيه للمسلمين معظم الوقت كفيل أن يجعلهم يوجهون كل عزمهم اليه وأن يشغلهم عن استعجال عذاب الآخرة ، فالانسان لايفتح على نفسه جبهة أخرى وهو لايستطيع أن يسد الأولى ٠ ثم ان مثل ذلك الاستعجال يدل على خلو البال ، وأنى لهم خلو البال فى تلك الظروف ؟ واليك الآن بعض المواضع التى ورد فيها استعجال الكافرين لما توعدهم الله به على لسان رسله عليهم السلام من عذاب :

" بل هو ماااستعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم " (١٤٣) ٠

" ماعندى ماتستعجلون به " (١٤٤) ٠

" قال : ياقوم ، لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ " (١٤٥) ٠

" قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون " (١٤٦) ٠

" ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب " (١٤٧)

" ويستعجلونك بالعذاب ، وان جهنم لمحيطة بالكافرين " (١٤٨)

ومثله قصر مسئوليته عليه السلام على الانذار ، الوارد فى قوله تعالى من السورة : " انما أنت منذر ، ولكل قوم هاد " (١٤٩) ، فهذا لا وجود له فى المدنى ٠ أما المكى فقد أتى فيه فى مواضع متعددة ، سواء بصيغة " نذير " (١٥٠) :

" أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة ؟ ان هو الا نذير مبين " ٠

" ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون " ٠

" انما أنت نذير ٠ والله على كل شيء وكيل " ٠

" قل : ياأيها الناس، انما أنا لكم نذير مبين " ٠

" ان أنا الا نذير مبين " ٠

" وانما أنا نذير مبين " ٠

" ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد " ٠

" ان أنت الا نذير " ٠

" ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين " ٠

" وما أنا الا نذير مبين " ٠

" وانما أنا نذير مبين " .

أو بصيغة " منذر " (١٥١) :

" قل : انما أنا منذر ، ومامن اله الا الله الواحد القهار " .

"انما أنت منذر من يخشاها " .

أو بصيغة " من المنذرين " (١٥٢) :

" ومن ضل فقل : انما أنا من المنذرين " .

ومن الأفكار التي لاتتردد الا في الوحي المكي فكرة عدم استواء الأعمى والبصير ،التي وردت في سورة " الرعد " ، وذلك في قوله تعالى :

" قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ "(١٥٣) .

واليك نصوصها من نصوص القرآن المكية :

" قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ " (١٥٤) .

" مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ؟ " .

" ومايستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور " (١٥٦) .

" ومايستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء " (١٥٧) .

وقد يظن بعض من ينظرون في هذه السورة أن فكرة قصر وظيفة الرسول عليه السلام على " البلاغ " هي من الأفكار التي يمكن الاستناد اليها في الحكم بمكية السورة ، كما فعل الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، اذ قال : " والسورة مكية . من أجل ذلك تحدد فيها وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم بـ " البلاغ " . ذلك أن " الجهاد " لم يكن بعد قد كتب . فأما بعد ذلك فقد أمر بالجهاد بعد البلاغ " (١٥٨) . والواقع أن التعبير بمايفيد قصر مهمة الرسول عليه السلام على البلاغ كما ورد في المكي ورد في المدني أيضا ، لا مرة واحدة ، بل عدة مرات . وهذه هي النصوص :

" وان تولوا فانما عليك البلاغ " (١٥٩)

" فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين " (١٦٠) .

" ماعلى الرسول الا البلاغ " (١٦١) .

" وماعلى الرسول الا البلاغ المبين " (١٦٢) .

" فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين " (١٦٣) .

وهي لاتقل عن النصوص المكية الواردة بهذا المعنى ، ولكن مع ملاحظة أن نصوص الوحي المكي ليست كلها عن الرسول محمد عليه السلام وحده كما هي الحال في هذه النصوص المدنية ، بل بعضها يتحدث عن مهمة الرسل عامة ، وهو :

" فهل على الرسل الا البلاغ المبين " (١٦٤) .

" وماعلينا (أى الرسل) الا البلاغ المبين " (١٦٥) .

أريد أن أقول ان قصر مهمة الرسول على البلاغ ليست من الأفكار التي يمكن الارتكاز عليها في الحكم بمكية نص قرآني ، على خلاف ماذهب اليه الأستاذ سيد قطب رحمه الله .

ومما يحكم لهذه السورة بالمكية أن فيها سجدة . وقد قال العلماء الذين عنوا باستنباط بعض العلامات التي تساعد في الحكم على سورة ما بالمكية أو المدنية ان كل السور التي وردت فيها سجدة هي سورة تنتمي الى الوحي المكي (١٦٦) . والسجدة في هذه السورة هي عقيب قوله تعالى : " ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال " (١٦٧) .

كذلك فان فكرة استهزاء الأمم السابقة برسلهم الواردة في سورتنا هذه (١٦٨) هي من الأفكار التي اختص بها (اذا نحينا سورة " الرعد " الآن جانبا) الوحي المكي ، الذى قد وردت فيه هذه الفكرة في عدة مواضع هي :

" ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون " (١٦٩) ٠

" ومايأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون " (١٧٠) ٠

" ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون "(١٧١) ٠

" ياحسرة على العباد ، مايأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزئون " (١٧٢) ٠

" ومايأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزئون " (١٧٣) ٠

وفى هذا المجرى نجد نص سورة " الرعد " يجرى ٠ وهاهوذا :

" ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ، فيكف كان عقاب ؟ " (١٧٤) ٠

وايضا فان الاشارة الى نقص الأرض من أطرافها الواردة فى الآية ٤١ من السورة لم ترد خارجها الا فى نص مكى (١٧٤) ٠

ومن ناحية الموضوعات التى تعالجها السورة والاستناد اليها فى الحكم بمكية السورة يلاحظ أنها لم تحتو على أى من الموضوعات المتعلقة بالمدينة ، سواء من جهة الأحداث التى كانت تلك البلدة مسرحا لها أو لها دخل فيها أو الغزوات التى اشتعلت منذ السنة الثانية من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليها أو الطوائف التى كانت تقطنها ولم تكن تعرفها مكة ، وهى طوائف المسلمين الأنصار والمنافقين واليهود ٠ بل كل الموضوعات التى تعالجها هذه السورة هى من موضوعات ماقبل الهجرة ، من كفر الكافرين برسالة النبى عليه الصلاة والسلام واستهزائهم بعقيدة البعث وطلبهم المعجزات منه صلى الله عليه وسلم ٠ والطائفة التى تتحدث عنها السورة هى طائفة " الذين كفروا " :

" ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ، انما أنت منذر ، ولكل قوم هاد " (١٧٥) ٠

" ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ٠ قل : ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب " (١٧٦) ٠

" ويقول الذين كفروا : لست مرسلا " (١٧٧) ٠

وعبثا تبحث فى السورة عن شىء من التشريع مما يميز الوحى المدنى (فى سوره من غير المفصل) عن المكى ، فانك لن تجد من ذلك شيئا ، بل كل ماتتناوله السورة انما يدور حول تجلية مفهوم الألوهية وتوضيح صفات المولى سبحانه ، وأنه هو الخالق الرزاق القائم على شئون عباده الجدير بالحمد والخوف ، وتأكيد حقيقة البعث ، والاشارة الى مصائر المستهزئين المكذبين لرسلهم من الأمم الخالية ٠ ومن الواضح أن هذه الموضوعات هى موضوعات موجهة الى قوم لم يؤمنوا بعد برسالة الاسلام ، بل كانوا لايزالون يعارضونها ويكذبونها ويتعنتون مع النبى عليه السلام بشأنها ٠ ولايمكن أن يكون هؤلاء القوم الا مشركى مكة ٠

أما فى المدينة فقد كان الوضع مختلفا ٠ لقد كانت القاعدة العامة هناك من المؤمنين المتفانين فى محبة النبى عليه السلام ورسالته ، والذين تجاوزوا الحاجة الى اقناعهم بصفات المولى سبحانه أو بوجود حياة أخرى بعد الموت ، الى طور آخر هو طور التشريع لحياتهم الجديدة ٠

من هنا فلسنا نوافق الشيخ محمد على الصابونى على أن هذه الموضوعات هى المقاصد الأساسية للسور المدنية ، والا فلا فرق بني المكى والمدنى اذن من هذه الناحية ، وهو ما لا يقول به أحد ٠

والآن ، وبعد كل هذا التحليل الأسلوبى (موسيقى والفاظا وعبارات وتراكيب) والتحليل المضمونى للسورة نخلص الى أنها لايمكن أن تكون الا مكية ،وان كان هذا لايمنع ، من ناحيه المبدا على الأقل ، أن تكون هذه الآية منها أو تلك قد تأخر نزولها الى مرحلة مابعد الهجرة ثم وضعت فى موضعها من السورة ٠ والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

٢-الدراسة اللغوية والادبية للسورة

المر • تلك آيات الكتاب .

فى القرآن تسع وعشرون سورة تبتدىء كل منها بحرف أو أكثر من حروف الهجاء الى خمسة أحرف • ومجموع حروف الهجاء التى تفتتح بها هذه السور أربعة عشر حرفا • ومن بين السور التى تبتدىء هكذا سورة "الرعد "• وهى من السور التى لاتشاركها سورة أخرى فى افتتاحيتها ،مثل سورة "ص" التى لاتبتدىء سورة أخرى سواها بحرف " ص " ، وسورة " مريم " التى لاتستفتح سورة غيرها بحروف كهيعص " ••• الخ •

وقد ذهب علماء القرآن مذاهب شتى فى تفسير هذه الأحرف • فمن قائل انها اختصار لعبارات ، فمثلا " المر " معناها " أنا الله أرى " ، و " طسم " تعنى " طور سيناء وموسى " ، وهكذا • ومن قائل انها اختصارات لأسماء الله ، فالكاف مثلا من " كهيعص " اختصار " كاف " ، و " الهاء " اختصار " هاد " و " الياء " اختصار " أمين " ••• الخ • ومن قائل انها الوان من القسم الالهى • ومن قائل انها أسماء للقرآن • ومن قائل انها أسماء للسور المبتدئة بها • ولايخفى مافى هذه التفسيرات من تعسف وشطط •

ولعل أفضل ماقيل فيها حتى الآن هو أن هذه هى الأحرف التى يتألف منها القرآن ، وهى ذات الأحرف التى تستعملونها فى كلامكم ، ومع ذلك فلا يمكنكم أن تأتوا بشىء مثله • ويقوى هذا الرأى انه فى كثير من الحالات التى وردت فيها هذه الأحرف فى أوائل السور قد عقبها مثل تلك العبارات : " تلك آيات الكتاب " ، أو " ذلك الكتاب " أو " تلك آيات الكتاب وقرآن مبين " أو عبارات قريبة منها • وليس من الصعب الرد على من يعترض بأنه لو كان ذلك هو المراد لاطرد مجىء هذه العبارات واشباهها فى كل مرة أتت فيها هذه الأحرف ، اذ يمكن الجواب بأنه لما عرف أن هذا هو المراد وتقرر فى الأذهان أمكن حذفه ايجازا ، كما يحدث مع خبر المبتدا وجواب الشرط وفعل القول مما يكثر مجيئه فى القرآن الكريم •

ويعضده أيضا أن الأغلبية الساحقة من هذه الافتتاحيات (وهى سبع وعشرون من تسع وعشرين) انما نزلت فى مكة حيث كان المشركون لايكفون عن الاعتراض على القرآن والزعم بأنه من عند الرسول عليه الصلاة والسلام أو ان بعض البشر هم الذين يعلمونه اياه ، فجاء ابتداء عدد غير قليل من سور القرآن بهذه الاحرف تحديا لهم ودعا فى أقفيتهم بأنهم ان كانوا صادقين فى هذه الدعوى فليأتوا بمثله ، وهاهى ذى أداة التأليف حاضرة فى أيديهم ، وهى الألف واللام والميم والصاد والقاف والهاء ••• الخ ، وليست شيئا بعيدا عن متناولهم فيكون لهم العذر •

والآن بعد أن اخترنا الرأى الأوجه فى نظرنا فى تفسير هذه الأحرف ننظر فى اعرابها(١) • وطبيعى ، مادمنا قد رفضنا فيما رفضناه القول بأنها اسم للسورة المبتدئة بها ، أن نرد اعرابها على أنها خبر مبتدا محذوف ، على أساس أن تقدير الكلام هو : " هذه السورة هى المر " (٢)• وانما الاعراب الذى أراه لهذه الأحرف هو انها متبدأ خبرها جملة " تلك آيات الكتاب " ، كما هو الحال مثلا فى قولنا " محمد ذلك أول الفصل " • والمعنى : " هذه الأحرف التى هى ألف ولام وميم وراء هى آيات الكتاب " ، أى هى الحروف المتكونة منها آيات الكتاب • فاجهدوا جهدكم وأتوا بمثلها ان كنتم صادقين فى زعمكم أنها من صنع بشر • وهناك من يرى أن " تلك " اشارة الى ماجاء فى سورة " يوسف " السابقة فى المصحف على سورة " الرعد " من قصة ذلك النبى الكريم عليه السلام (٣) • ولا أدرى كيف ساغ هذا الاعراب لصاحبه • ان من الواضح أنه قد خلط بين تعاقب السورتين فى المصحف وبين افتراض تعاقبهما زمنيا ، رغم أن السورتين لم تتعاقبا فى نزولهما من السماء • وحتى لو تعاقبتا فان ذلك الاعراب يقتضى أن تكونا قد نزلتا قطعةواحدة ، ثم فصلتا بعد ذلك ، وهو مالايمكن أن يكون • ولا أظنهم ولا أحد غيرهم يقول بهذا •

والذى أنزل اليك من ربك الحق .

" الذى " متبدأ ، وخبره " الحق " • ولا أرى رأى من جعل " الذى " معطوفا على " الكتاب " فى محل جر ، من باب عطف صفة الشىء على الشىء • وقد مثل من قال بذلك ، وهو الفراء النحوى الشهير ،

بالعبارة التالية : " أتانا هذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق " ، وبقول الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة فى المزدحم

مفسرا الكلام فى البيت بأن الشاعر أراد أن يقول : " الى الملك القرم ابن الهمام " (٤) ٠ والواقع أن ظاهر بعض التراكيب القرآنية قد يدفع الى قبول هذا الاعراب بوصفه احتمالا جائزا ، وذلك فى قوله تعالى : " لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم " (٥) ٠ اذ ان "الذين فى قلوبهم مرض " هى وصف للمنافقين ٠ ولكن الذوق البيانى يرفض هذا ٠ وباعادة النظر يتضح أن ثمة فرقا هاما بين التركيبين ، فـ " المنافقون " هى فى الأصل صفة مشتقة (اسم فاعل) ٠ واذا كانت فاعلا فى الظاهر لهى فى الحقيقة نعت لمحذوف تقديره " لئن لم ينته القوم المنافقون " مثلا ، فاذا عطف القرآن عليها عبارة " الذين فى قلوبهم مرض" فليس ذلك من باب عطف الصفة على موصوفها ، وانما هو فى الواقع عطف صفة على صفة مثلها ٠ وهو مالا وجود له فى عبارة " أتانا هذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق " ، تلك العبارة التى لايستسيغها البيان السليم ٠ وفضلا عن ذلك فليست الفاروق صفة لـ (أبى حفص " وانما كلتاهما علم : الأولى كنية والثانية لقب ٠ أما البيت فان أمره مختلف تماما عما نحن فيه ، فـ " الملك " مجرور بـ " الى " ، و " القرم " نعت له ، و "ابن الهمام " معطوف على " القرم " ٠ وهذا كما ترى تركيب آخر لا صلة له بتركيب الآية ٠

ومما جعلنى لا اقبل ذلك الاعراب أنه يسىء لجمال التركيب القرآنى ، ويفوت غرضا بلاغيا مهما هو " القصر " ، الذى يبرز للعيان مباشرة اذا أعربنا الآية ، كما ينبغى ،على أساس أن " الذى أنزل اليك من ربك " مبتدأ وصلته ، و " الحق " خبره ، أى أن الوحى النازل على محمد هو لاغيره وهو وحده الحق كل الحق ٠ وفضلا عن هذا فان الاعراب المرفوض سيوقعنا فى مشكلة أخرى ، اذ ماذا سيكون اعراب كلمة " الحق " حينئذ ؟ انهم يعربونها خبرا لمتبدا محذوف تقديره " هو " ، وهو مايستدعى الفصل بين عبارتى " تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك من ربك " و " الحق " والوقوف بينهما ، على أساس أن هذه جملة وتلك أخرى ، وهو مايبدو بمجرد النطق به ركيكا يتنزه الأسلوب القرآنى عنه (٦) ٠

وهنا قضية ينبغى أن نقف عندها قليلا ، فالملاحظ أن القرآن قد صيغ فى كثير من المواضع بحيث يحتمل عددا من الاعرابات ٠ ولعل ذلك مرده الى أنه أريد له أن يكون حمال أوجه ، وأن يدل على الكثير باللفظ القليل ٠ فاذا نظرت اليه من جانب أعطاك معنى ، واذا نظرت من جانب آخر حصل لك معنى آخر ، وهكذا ، وكله صحيح ، وهو من اعجازه ٠ وعلماء النحو والتفسير من شغفهم بالقرآن الكريم ورغبتهم فى خدمته بكل سبيل يقلبون تراكيبه على كل الأوجه الممكنة ، الا أن بعضهم للأسف يغلو فى ذلك فيقع فى اعرابات تسىء الى فصاحة النص القرآنى وجماله الباهر ، كما هو الحال فى الاعراب السالف المرفوض٠

ولكن اكثر الناس لايؤمنون .

هل المقصود هنا أهل مكة كما جاء فى " زاد المسير " لابن الجوزى عن ابن عباس أو هم ومعهم اليهود والنصارى كما أورد الألوسى ضمن ماأورد من تفسيرات ؟ أم هل الكلام ينطبق على كل البشر فى جميع العصور كما رجح الألوسى ؟ يبدو لى أن الثالث هو المقصود ، فقد قال الله تعالى فى سورة " يوسف " فى نفس المعنى :" وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين " ٠ (٧) فلو كان المقصود هو أهل مكة فالمعروف أن أهلها جميعا غداة الفتح قد أسلموا ، فكيف يتسق هذا مع تأكيده سبحانه فى آيه " يوسف " السالف ذكرها أن أكثر الناس لن يؤمنوا مهما يبذل الرسول من جهد فى هذا السبيل ويحرص على هداهم ؟ وشىء آخر أن القرآن الكريم فى كل مرة ذكر فيها الانسان أعقب ذلك بذمه ، ولايستثنى من هذا الذم فى بعض المواضع الا المؤمنين ٠ وفضلا عن ذلك فالمشاهد أن أكثر البشر ليسوا مؤمنين بالاسلام وهو الدين الذى لايقبل منهم غيره ٠ أما بالنسبة لليهود والنصارى فلم يكونوا قد برزوا بعد على ساحة الاسلام كطائفة كبيرة (اذ السورة كما قلنا مكية) حتى يقال انهم مقصودون فى الآية ٠

رفع السماوات بغير عمد ترونها :

السماوات : هى كل ماعلانا (من " السمو " أى العلو) • ويشمل ذلك النجوم والكواكب والمجرات والفضاء الذى يسبح فيه كل ذلك وغيره مما لايعلمه الا خالقه سبحانه وتعالى •وقد ذكر القرآن أن السماوات سبع (٨) ، كما ذكر أن الأرض مثلها أيضا (٩) •ولعل سائلا يسأل : أين السماوات السبع والأرضون السبع ؟ والجواب أن البشر رغم التقدم العلمى الكبير الذى أحرزوه فى العصر الحديث لم يصلوا خارج الأرض الا الى القمر • فمعلوماتهم بالنسبة لما فى الكون الهائل من معارف وأسرار تعد كالقطيره فى المحيط اللجى الشاسع العميق ، فينبغى ألا يتسرعوا • ونرجو الا نكون مخطئين اذا قلنا ان السماء التى نراها هى السماء الأولى ، وذلك استنباطا من قوله تعالى : " زينا السماء الدنيا بمصابيح " (١٠) ، وأرضنا هذه هى الأرض التى تتبع هذه السماء الدنيا ، وهناك سماوات ست أخر بأرضين ست أخر وراء عالمنا هذا الذى نعيش فيه • ولانحب أن نقول أكثر من هذا حتى لانضل السبيل ويحمل كلامنا على الدين فنسيء من حيث نريد الاحسان •

ورفع السماوات حاصل من غير عمد ، والا فأين تلك العمد ؟ أو بعمد ، ولكنها عمد غير مرئية ، اذ هى قوى أودعها الله سبحانه بين ماخلق من نجوم وكواكب ، فالأرض مثلا فيما يقول العلم الطبيعى باقية فى مدارها بتأثير قوتى الجاذبية والطرد المركزية ، ويمكن الاستئناس بذلك فى تخيل هذا النوع غير المرئى من العمد • أقول هذا ، لأن للمفسرين رأيين فى تفسير قوله تعالى : " رفع السماوات بغير عمد ترونها " • وهذان الرأيان يوضحهما الاعرابان اللذان وردا فى الآية ، فانهم يجوزون أن تكون " ترونها " جملة نعتية لـ " عمد" ، وعلى هذا يكون المعنى : " رفع السماوات بغير عمد مرئية " ، أى أن هناك عمدا ولكنها لاترى • كما يجوزون أن يكون الكلام قد تم عند قوله " بغير عمد " وتكون " ترونها " " جملة مستأنفة" ، أى أن السماوات مرفوعة من غير عمد ، وأنتم أيها البشر ترون ذلك وتشاهدونه •

والطريف أنه كان هناك من يظن أن لها عمدا ، وهذه العمد هى جبل قاف ، الذى زعموا أنه محيط بالأرض والسماء كالقبة (١١)• وبطبيعة الحال قد تبخرت مثل هذه الآراء الى غير رجعة ، فقد تقدمت العلوم بفضل الله سبحانه وتعالى ، وتبين سخف هذا الزعم وأشباهه ، فالأرض كرة (أو مايشبه الكرة) سابحة فى الفضاء بقدرة ربها وارادته وحفظه ، تسبح بحمده وتنطق بربوبيته •

على أن هناك تفسيرا روحيا لطيفا لهذه الآية منسوب لابن عباس أورده القرطبى فى تفسيره ، مؤداه أن هذه العمد " هى توحيد المؤمن أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر " • ويمكن فهم هذا الكلام على أنه سبحانه يمسك السماوات والأرض مادام هناك مؤمن ، فاذا انتفى الايمان من القلوب قامت القيامة (كما يفهم من بعض الأحاديث النبوية) ، فانتثرت النجوم انتثارا ، وتفجرت البحار نارا•

ثم استوى على العرش :

لأن " الاستواء على العرش " يدخل فى نطاق الغيب الذى ليس فى مقدور أحد من البشر أن يتخطى حدوده ويطلع عليه فأنفضل مايمكن قوله فيه هو تفويض العلم بحقيقة ذلك الى رب العرش العظيم • وأيا ما يكن معناه فان الله سبحانه هو صاحب السلطان والأمر النافذ والارادة المطلقة • والكون كله رهن قدرته ومشيئته يسجد له ويعنو ويخضع ويقر بربوبيته ، بلسان المقال أو بلسان الحال أو بهما معا ، ونحن عبيده ، نواصينا بيده ، ماض فينا حكمه • وهو لايسأل عما يفعل ، ولامعقب لحكمه •

وهنا نقطه أثارها محيى الدين الدرويش، الذى ذكر فى " اعراب القرآن وبيانه" (١٢) عند اعراب هذه الآيه أنه " لايقع ذكر الاستواء على العرش الا بعد الفراغ من خلق السماوات والأرض ومابينهما " ، وهذه النقطة تحتاج الى تحميص• لقد ورد ذكر الاستواء على العرش فى القرآن سبع مرات ، وهاهى ذى النصوص التى ورد فيها :

" ان ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش"(١٣) •

" ان ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش" (١٤)•

" الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش" (١٥) •

" تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى * الرحمن على العرش استوى " (١٦) •

" الذى خلق السماوات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش"(١٧) ٠

" الله الذى خلق السماوات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش"(١٨) ٠

" هو الذى خلق السماوات والأرضفى ستة أيام ثم استوى على العرش"(١٩) ٠

ومن مراجعة هذه النصوصيتبين لنا أن ملاحظة الأستاذ الدرويشلاتصدق مطلقا الا على نصين فقط هما الخامسوالسادس٠ أما النصان الأول والثانى فيذكران خلق السماوات والأرض ولايذكران " مابينهما " ٠ وأما النصالثالث فليسفيه ذكر لخلق السماوات والأرض، بل لرفع السماوات فقط ، علاوة على أنه لم يذكر شيئا عما " بينهما " ٠ وأما النص الرابع فانه وان كان قد ذكر خلق الأرضوالسماوات فلم يذكر مايدل على أن " الاستواء على العرش" قد تم " بعد الفراغ " من خلقهما ، اذ ليسفيه " ثم " ، التى يفهم من كلام الأستاذ أنه يرى أنها تدل على " البعدية "٠ كذلك لم يتطرق النصالى " مابينهما " " أى مابين السماوات والأرض " ٠ ونصل للنصالسابع ، وهو أيضا قد سكت فلم يذكر " مابينهما " ٠

ولا أحب أن أغفل الاشارة الى أننى لا أرتاح الى مايفهم من كلام الأستاذ الدرويش من أن " الاستواء على العرش " قد تم " بعد الفراغ من خلق السماوات والأرضومابينهما " ، فالأفضل فى نظرى الا نفهم " ثم " هنا على معنى " الترتيب " ، فان لها معنى آخر الى جانب الترتيب الزمنى الذى درج الناسعلى الصاقه بها فى كل الأحوال ، هو مجرد العطف (٢٠) ٠ ولاحاجة للخوضفى هذه المسألة أكثر من هذا ، فانها من مسائل الغيب التى لاينبغى ، كما قلت ، أن نقتحمها والا جاء كلامنا على غير هدى ٠

وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى .

تسخيرهما جعلهما فى خدمة المخلوقات ومن بينها البشر ٠ وغنى عن البيان ما تمدنا به الشمس من ضوء وحرارة وأشعة مختلفة لولاها ماكانت حياة ، وجاذبيتها للأرض بقدرة الله ومشيئته ، ومايمدنا به القمر من نور يقشع ظلمات الليل فى أكثر ليالى الشهر ، ويبث فى القلب السكينة ويثير فى النفسالأحلام والأشواق العذبة الجميلة ، وماله من تأثير على مياه البحر على هيئة مد وجذب ، وما الى ذلك ٠

وسوف تبقى الشمسوالقمر يؤديان الوظائف التى سخرهما الله لها الى الأجل المسمى الذى ضربه الله لهما ، وهو يوم القيامة ٠ وهذا أحد التفسيرين اللذين سبقا فى شرح هذه الآية وأقربهما للنص٠ فالنصيقول : " كل يجرى لأجل مسمى " ، أى الى تلك الغاية ، وعند ذلك ينقطعان عن الجريان ٠ أما التفسير الثانى الذى يقول ان المقصود هو الأجل السنوى للشمسوالشهرى للقمر فهو يغفل عن الغائية فى " اللام " ٠ان الشمس لا تتوقف عن الجرى بعد السنة ، ولا القمر يكف عن ذلك بعد انقضاء الشهر ، والا لكانا قد توقفا منذ أو ل الخليقة ، وانما يستمران فى الجرى قرونا وأحقابا ، منذ الأزل والى أن يرث الله الأرض ومن وماعليها ٠

وقوله تعالى : " كل يجرى لأجل مسمى " جملة حالية صاحبها هو الشمسوالقمر ٠ والرابط هوالضمير المحذوف مع حرف الجر (اذ التقدير " كل منهما يجرى ٠٠٠ ") ٠ والمعنى أن هذه حالهما منذ أن خلقهما الله وسخرهما الى أن يبلغا الأجل المسمى ٠

يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون :

الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله وأنزل وحيه لا لينبه الناسفقط الى أنه هو الرب المعبود ، بل ليبين لهم أيضا أن هناك معادا وثوابا وعقابا ، ارادة منه جل وعلا أن يكف الناس ظلمهم عن بعضهم البعض٠ فالايمان بالآخرة والحساب أصل من اصول الايمان ٠ والأديان ليست عبادة فقط ، بل هى أخلاق كريمة أيضا ، والا تحولت الدنيا الى غابة يفترس فيها القوى الضعيف افتراسا ٠ فالله سبحانه يفصل الآيات : آيات الوحى وآيات الطبيعة ، ليعرفنا أن خلقنا وخلق الكون من حولنا ليسعبثا ، وليس بلا غاية ، فالحياة الدنيا ليست ممتدة بغير نهاية ٠ والمرجو أن يوقن الناس بلقاء الله ويرتبوا حياتهم وسلوكهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض بل وعلاقاتهم بالكون كله على هذا الأساس ٠

وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وانهارا .

هو الذى مد الأرض لاغيره ، ولم يشركه فى ذلك أحد ، بل هو وحده الرب الاله ، وكل العباد له خاضعون • وهذا هو الملحظ البلاغى فى تركيب الكلام على النحو الذى هو عليه بتقديم الضمير العائد على الله سبحانه الى أول الجملة بمايفيد قصر مد الأرض عليه •

وقد جاء فى تفسير القرطبى مانصه : " فى هذه الآية رد على من زعم أن الأرض كالكرة " • كما أورد ابن حيان فى " البحر المحيط " رأى ابن عطية من ان قوله تعالى : " مد الأرض" يقتضى أنها بسيطة (يقصد " مبسوطة مسطحة ") لاكرة ، وأن هذا هو ظاهر الشريعة (يريد أن هذا هو مايفهم من ظاهر الآية) • كما ذكر الألوسى أنه قد استدل بالآية على أن الأرض مسطحة غير كرية • فهل صحيح أن الآية تدل على أن الأرض مسطحة غير كروية ؟ان الآية كما هو واضح لم تنف كروية الأرض، وانما كل ماذكرت أنه سبحانه هو الذى مد الأرض• ومن قال ان مد الأرض يناقص كرويتها ؟ ان الأرض ممدودة • هذا حق • وهى كروية (أو شبه كروية بالأحرى) ، وهذه حقيقة علمية فرغ من أمرها • ولكنها رغم كرويتها لانستطيع بأبصارنا أن ندرك هذه الكروية • والسبب هو أنها ضخمة هائلة الأقطار، وهذا هو معنى " مد الأرض " • ويمكن تقريب ذلك بأن النملة لو وجدت نفسها فوق كرة فى حجم البيت مثلا خارج نطاق الجاذبية ، فلن يمكنها أن تستنبط أن الذى تمشى فوقه انما هو كرة ، بل ستظن أنه شيء مسطح • ومن رحمته سبحانه بعباده أن كبر أقطار الكرة الأرضية ، أى مدها وبسطها ، بحيث جعلها صالحة للسكنى • ولو صغر حجمها لما استطاع البشر أن يثبتوا فوقها ، ولهووا منها فى الفضاء السحيق •

ولله در أبى عبدالله الدارانى ، الذى نقل عنه صاحب " البحر المحيط " أنه " ثبت بالدليل أن الأرض كرة ، ولاينافى فى ذلك قوله : " مد الأرض" • وذلك أن الأرض جسم عظيم ، والكرة اذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح • والتفاوت بينه وبين السطح لايحصل الا فى علم الله تعالى " •

وثمة رواية منسوبة الى ابن عباس فى " زاد المسير " لابن الجوزى أن " مد الأرض" معناها " بسطها على الماء " • وبغض النظر عن قيمة هذه الرواية من ناحية الاسناد فانها من حيث واقع الأمر فى الطبيعة فاسدة المضمون ، اذ الأرض كرة سابحة فى الفضاء ،لامرتكزة على ماء ولا موضوعة فوق حوت ••• الى آخر تلك الأساطير التى كان يعتقدها الأقدمون •

و "الرواسى " هى الجبال ، جمع " راسية " • وسميت كذلك لأنها قد رست فوق الأرض رسوا •وهو سبحانه الذى جعل " الرواسى " ، وجعل " الأنهار " ، وجعل كل شيء • وكل ذلك نعم جليلة لا غنى للبشر عنها ، ولاتستقيم حياتهم بدونها • فمثلا " لولا الأنهار لضاع (كما يقول الطبرسى) أكثر المياه ولما أمكن الشرب والسقى " • وهذا حق ، فلولاها فما الذى كان سيمسك مياه الأمطار المنهمرة فوق الجبال والهضاب والتى ، على حسب النظام الالهى ، تسيل منحدرة الى الأودية وتجرى فى الأنهار مارة بالبلاد المختلفة ، فتروى أهل كل بلد وتسقى زرعه وضرعه ، الى أن تصب فى نهاية المطاف فى البحر ؟ انها كانت ستغرق البلاد لو لم تجد مجرى مائيا تنحدر اليه وتلزم شاطئيه •

ولايصح أن يتعرض معترض بأن كثيرا من الأنهار انما شقتها يد البشر •فالأنهار الأولى فى الأرض انما كانت أنهارا طبيعية لم تشقها يد الانسان • ولما تقدمت البشرية الى المدى الذى استطاعت فيه أن تشق بنفسها الأنهار لم تستطع أن تقوم بذلك الا بمحاكاة الأنهار التى كانت موجودة فى الأرض أصلا • وهذه المحاكاة والقدرة عليها انما هى هبة الهية • ثم انه لولا أن الله سبحانه قد خلق الأرض على نحو يمكن معه أن يشق البشر خلالها أنهارا لاستحال عليهم ذلك • فجعل الله سبحانه فى الأرض الأنهار قد يكون من خلال العوامل الطبيعية ، وقد يكون من خلال الجهد البشرى • والجهد البشرى مثله مثل العوامل الطبيعية ، كل قد خلقه الله وقدره على النظام الذى هو عليه ، أى أن الله هو فى الحقيقة الذى جعل فى الأرض الانهار • كما أنه جل شأنه هو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى • ليس شيء فى الحقيقة الا والله هو خالقه ومريده والقائم عليه • فالقصر اذن فى قوله : " وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ••• الخ " يعبر عن الحقيقة أدق

تعبير .

ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين .

كثير من المفسرين القدامى يفسرون " الزوجين " هنا بـ " الصنفين " ، يقصدون " أسود وأبيض ، وحلوا وحامضا ، وصيفيا وشتويا ، ورطبا ويابسا " (٢١) . ومع ذلك فان منهم من فسرها بأنها " الذكر والأنثى " ، كمجاهد (٢٢) ، وكالفراء ، الذى عقب القرطبى على كلامه بأنه " خلاف النص" .

والحقيقة أن تفسير " الزوجين " هنا بـ " صنفين " يناقض ماهو مشاهد من أن أنواع كل ثمرة تربو على اثنين كثيرا جدا . والآن وبعد أن اتصلت أقطار المعمورة ونشطت بينها حركة الاستيراد والتصدير أصبح متاحا للناس أن يعرفوا بل ويأكلوا عديدا من كل نوع من أنواع الثمار ، فالعنب مثلا منه ذو البذر ومالا بذر له ، ومنه المستدير ومنه المستطيل ومنه المبطط ، ومنه الأصفر والأخضر والأزرق والأسود والأحمر ، والشفاف وغير الشفاف ، وذو القشرة السميكة والقشرة الرقيقة ، ومنه الكبير والصغير ، ومنه الشديد الحلاوة والقليلها ، ومنه الأسبانى والتركى واليونانى والمصرى والسعودى ... الخ ،ان كان لذلك من آخر معروف . وكل نوع من هذه الأنواع تندرج تحته أصناف مختلفة . وكل يوم تستنبط سلالات جديدة . فكيف يقال اذن ان العنب صنفان ؟ ومايصدق على العنب يصدق على كل الثمار ، بل ويصدق على كل شىء فى الكون ، فالكون يبدى غنى فى التنوع والاختلاف ، وكله من فضل الله الغنى الذى لاتنفد خزائنه . اذن فتفسير " الزوجين " بالذكر والأنثى هو فيما يبدو لنا التفسير الذى يخلص للنص ولواقع الحياة معا . فأما واقع الحياة فقد عرفنا أن لكل ثمرة من الأنواع ما يربو كثيرا جدا على صنفين . الى جانب أن لكل نبات أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث (٢٣). وأما من ناحية النص فان كلمة " زوج" تعنى فيما تعنيه " الذكر والأنثى "(٢٤) .

وقبل أن نغادر هذا الجزء من الآية أود أن أذكر أن تفسير العبارة على هذا النحو قائم على أساس أن " الواو " فى " ومن كل الثمرات ..." هى واو استئنافية ، أى أن مابعدها كلام مستقل . لكن من المفسرين من جعلها عاطفة لـ " ومن كل الثمرات " على " رواسى وأنهارا " ، وجعل من ثم قوله تعالى : " جعل فيها زوجين اثنين " جملة أخرى منفصلة . والكلام على هذا الاعراب معناه أنه سبحانه " جعل فى الأرض رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات " . وعمدتهم فى هذا أن مثل هذا التركيب قد جاء فى موضع آخر من القرآن ، وهو قول رب العزة : " ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون " (٢٥) . وصاحب هذا الرأى هو الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب الاستدراكات الرائعة على التفاسير القديمة . ولا أدرى كيف فاته أن تركيب الكلام على هذا الاعراب يصبح مفككا ركيكا ، الا اذا قلنا ان جملة " جعل فيها زوجين اثنين " هى تعقيب على قوله " وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات " ، يراد به تكميله بالنص على أن الله جعل فى كل ذلك زوجين اثنين ، وهو مالا يمكن أن يكون ، لأنه غير صحيح ، فليس فى الجبال والأنهار ذكر وأنثى ، ولا كل جبل ونهر فيه صنفان . ثم ان الشيخ ابن عاشور لايقصد هذا ، بل يفسر " جعل فيها زوجين اثنين " بالذكر والأنثى من البشر . وهو كما ترى لاعلاقة له بماقبله لاتركيبا ولا من ناحية المضمون . كما فاته أن قياس هذه الآية على آية سورة " النحل " لايستقيم ، لأن تركيب الكلام فى الآية الأخرى يقتضى هذا الاعراب ، أما فى آيتنا هذه فان بناء العبارة يرفض كما رأينا هذا الأعراب .

يغشى الليل بالنهار .

الاشارة هنا الى دورة الظلام والنور المترتبة على دوران الأرض حول الشمس مرة كل أربع وعشرين ساعة . بيد أن النص القرآنى قد عبر عن ذلك بالاغشاء : اغشاء الليل النهار والعكس ، والاغشاء هو الالباس والتغطية ، فكل منهما له نوبة يأتى عليه الدور فيها فيستتر الآخر داخله كأنه ملبس يرتديه .

ويلاحظ القارى أننى جعلت الليل والنهار كل منهما يغشى الآخر ، لا الليل وحده هو الذى يغشى النهار ،كما يفهم من عبارة الآية للوهلة الأولى . وقد جريت فى ذلك على ما التفت اليه بعض المفسرين من أنه يمكن اعراب " الليل " مفعولا أول ، أو جعل " النهار" هو المفعول الأول متأخرا ، أى أن ذلك يغشى هذا ،

وهذا بدوره يغشى ذاك ، وهكذا دواليك • وهذا مما يشار اليه بقولهم : " القرآن حمال أوجه " •ومادام ذلك صحيحا فاننا نأخذ به ، ولا نلتفت الى قول من قال ان التغشية أنسب بالليل من النهار (٢٦) ، اذ مادام اليل يختفى عند مجيء النهار مثلما يختفى هذا عند حلول ذاك فالنهار اذن يغشى الليل كما يغشى الليل النهار•

ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون :

يعجبنى التفات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الى الدقيقة الأسلوبية فى اختيار القرآن لصيغة " يتفعل " من " الفكر " ، وهى الصيغة الدالة على التكلف ، أى استفراغ الوسع وعدم الضن باى جهد فى استخدام العقل للوصول الى حقائق هذه الآيات الالهية العظيمة ، وكذلك فى استعماله لتلك الصيغة فى الزمن المضارع للاشارة الى أنهم لايكفون عن التفكير • ذلك ان الأمم لاتتقدم الا بالتفكير وبذل كل جهد ممكن فى فض مغاليق الطبيعة ، وهو مايؤدى الى التقدم العلمى ، احد أسرار قوة الأمم وتفوقها وأمنها عكس أعدائها وعدوانهم • ان هذا هو مايحض عليه القرآن فى عدد جد كبير من آياته الكريمة • والمسلمون لم يتخلفوا الا يوم كفوا عن التفكير العلمى الحر والابداع العقلى • بيد أن القرآن لايريده مجرد تفكير علمى ، بل يريده أن يكون تفكيرا علميا ايمانيا ، يعرف الانسان به اسرار الكون ويسيطر عليه ، وفى ذات الوقت يؤمن بخالق الكون ويخضع له ويحمده على نعمه ويخاف مقامه • ان العلم والايمان اذا اجتمعا فى أمة صنعت بهما العجائب والمعجزات •

وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من اعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان ، وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضا على بعض فى الأكل .

المعنى أن فى الأرض قطعا متجاورة عبارة عن حدائق من أعناب أو نخيل أو حقول مزروعة بالزروع المختلفة ، ورغم تجاورها وأنها تسقى من نفس الماء فان الثمار التى تنتجها هذه القطعة أفضل من الثمار التى تنتجها القطعة المجاورة •

هذا هو المعنى الذى يفهم من الآية ، بيد أن بعض المفسرين يفسر " القطع المتجاورات " بأنها الأرض السبخة والأرض العذبة ، تنبت هذه ، وهذه الى جنبها لاتنبت •ويعزون هذا الرأى الى ابن عباس ومجاهد وغيرهما (٢٧) • ولا اظن أن النص القرآنى يقبله ، ذلك أن المفهوم من الآية الكريمة أن القطع المتجاورات كلها منتجة ، لكن نتاج بعضها افضل من نتاج بعضها الآخر ، لا أن بعضها ينتج وبعضها لا • وهناك من يقول ان المقصود بـ " القطع المتجاورات " هى " فارس والأهواز والكوفة والبصرة "(٢٨) • وهو ليس برأى فى الحقيقة ، والا فلم هذه الأربع بالذات ؟ ان البلاد كلها يجاور بعضها بعضا ،ويمكن أن يختار الواحد أى مجموعة من البلاد ويزعم أنها هى المقصودة • ثم مامعنى هذا الكلام ؟ ومامغزاه ؟ وماجماله ؟ ولماذا يشير القرآن الى هذه البلاد بالذات ؟ وماذا تمثل للضمير الاسلامى والانسانى ؟ بل اين كانت يوم نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لقد كان من الممكن ان أهمل هذا الكلام ، بيد أنى أحببت أن أبين للقارىء كيف أن فى كتب التراث الغث والسمين ، وأنها ليست كلاما معصوما •

وهناك من المفسرين من قال ان فى الكلام حذفا تقديره : " وفى الأرض قطع متجاورات وقطع غير متجاورات " (٢٩) • وهذا أيضا يصادم النص القرآنى ، اذ الآية الكريمة تلفتنا الى أن تجاور البساتين والحقول (بل تجاور الأشجار والنباتات فى البستان أو الحقل الواحد) وسقيها بماء واحد لايؤدى بالضرورة الى أن تكون الثمار كلها فى مستوى واحد من الجودة •

كذلك لا ادرى لم قيد بعض المفسرين " الماء الواحد " فى الآية الكريمة بـ " ماء المطر "(٣٠) ، والماء الذى نسقى به الجنان والحقول قد يكون ماء آبار أو عيون أو انهار أو ماء بحر محلى • وكأن ابن حيان فى بحره المحيط يرد على هذا التضييق حين قال فى " ماء واحد " انه " ماء مطر أو ماء بحر أو ماء نهر أو ماء عين أو ماء نبع لايسيل على وجه الأرض " .

والآية تلفت الانتباه الى ان أسرار الكون أعمق ما قد نظن ، وأن علينا أن نتوغل فى دراسة هذه الأسرار

وازاحة الستار عنها . وفي حالتنا هذه فان علينا أن نصل الى معرفة الأسباب التي تقود الى هذا التفاوت في جودة الثمار رغم أنها نتاج قطعتين من الأرض متجاورتين وسقيت بماء واحد . ان الكون يجرى على نظام الهي دقيق . وكلما عرفنامزيدا من قوانين هذا النظام وسننه كان انتاجنا من ثمار الأرض اغزر واجود وافخم . والدول المتقدمة قد استطاعت أن تقطع اشواطا في هذا السبيل . ونحن المسلمين واجبنا مضاعف ، فنحن كبشر من البشر ينبغي أن نبحث ونتفكر في اسرار الطبيعة . ونحن بوصفنا مسلمين مأمورون من قبل ديننا بذلك . فواجبنا اذن واجبان : واجب طبيعي ، وواجب ديني . ومع ذلك فنحن للأسف متخلفون عن كثير من الدول . والمرجو أن نضاعف الجهد حتى لاتتسع مسافة التخلف الى الحد الذى لايمكن معه أن نعوضها .

وبالنسبة لـ " النخيل الصنوان وغير الصنوان " فـ " الصنوان " جمع " صنو " ، و " النخيل الصنوان " هو عدد من النخلات مشترك في جذر واحد ومتفرع منه . و "غير الصنوان "هو أن تكون كل نخلة مستقلة بجذوها . والأكل : مايؤكل .

ذلك ، ويرى بعض المفسرين في هذه الآية مثلا مضروبا لاختلاف استجابات البشر لدعوة السماء ، فأهل البلدة الواحدة يكون منهم المؤمن ومنهم الكافر ومنهم المنافق ومنهم اللامبالي ومنهم التابع ومنه المتبوع ... وهكذا ، رغم أنهم سكان بلدة واحدة . (يقابل ذلك قوله " قطع متجاورات ") ، وكذلك رغم أن الرسالة التي عرضت عليهم واحدة (ويقابلها قوله " يسقى بماء واحد ") . وهذه عبارة الطبرى عن الحسن : " مثل ضربه الله عز وجل لقلوب بني آدم ، كما كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة ، فسطحها وبطحها ، فصارت قطعا متجاورة ، فنزل عليها الماء من السماء ، فتخرج هذه زهرتها وثمرها وشجرها ، وتخرج نباتها وتحيي موتاها ، وتخرج هذه سبخها وملحها وخبثها ، وكلتاهما " يسقى بماء واحد " . فلو كان الماء مالحا قيل انما هذه من قبل الماء . كذلك الناس خلقوا من آدم ، فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع وتخضع ، وتقسو قلوب فتلهو وتسهو وتجفو " (٣١) .

ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

اختتمت الآية السابقة بالحث على التفكر ، واختتمت هذه بالحض على العقل . وكثيرجدا من آيات القرآن تنتهي بمثل هاتين الخاتمتين ، وهو مايؤكد شخصية الاسلام ، وأنه يخاطب العقل ويشجعه على تأدية وظائفه التي ناطها به خالقه من تفكر وتدبر وبحث واستنباط واكتشاف وتذكر ... الخ ، لا ليفيد صاحبه من نعم الخالق التي بثها لعباده في الكون وأمرهم أن يتمتعوا بها فقط ، بل ايضا ليعرف لهذا الخالق قدره وفضله فيؤمن به ويخشاه ويتعلق قلبه به تعلقا يكفه عن الظلم والفساد في الأرض والاساءة الى مخلوقات الله من البشر أو غيرهم .

وان تعجب فعجب قولهم . أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ؟ .

يقول الزمخشرى في تفسير الآية : " وان تعجب يامحمد من قولهم في انكار البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه " (٣٢) . ومعناه أنه اذا كنت قد تعجبت من قولهم من البعث فان موقفهم فعلا هو جدير بالعجب وهو أفضل ما اطلعت عليه مما راجعته من كتب التفسير .

ولامعنى لاعتراض صاحب البحر المحيط على هذا التفسير بقوله ان تقدير الكلام على هذا النحو هو " ان تعجب من انكارهم البعث فاعجب من قولهم في انكار البعث " ، اذ لايفهم هذا من تفسير الآية الذى سقناه بل ولا يمكن تأويله بهذا . انما الذى قيل والذى يفهم منه هو ماقلناه . وقد رد الألوسي على تخطئة صاحب البحر لهذا التفسير بأنه مثل قول الرسول عليه السلام : " من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله " . يقصد ان جواب الشرط ليس هو فعل الشرط ، وان كان هذا هو ظاهر الكلام . وهذا صحيح ، لأن مراد كلام الرسول عليه السلام هو " من جعل هجرته الى الله ورسوله فتلك هي الهجرة الصحيحة التي تحسب له ويؤجر عليها " . على ان الآية يمكن أن تفسر تفسيرين آخرين على الاقل ، اذ انها تحتمل أن يكون معناها هو : " وان أردت العجب فالعجب هو قولهم كذا وكذا انكارا للبعث " ، أى ان كنت تبحث عن العجب فهذا هو العجب فاعجب منه . كذلك يمكن أن يكون مرادها :" ان حدث وعجبت ، فهذا هو العجب " ، أى أن

هذا هو العجب العجاب ، أى أعجب العجب ، أو العجب الوحيد الجدير بهذه الصفة ٠

وقد تنبه المعنيون بدقائق البلاغة فى كلام القرآن الى الحكمة البلاغية من تقديم الخبر: " عجب " على مبتدئه : " قولهم " وأن ذلك يفيد القصر ، بمعنى أن
هذا هو العجب الوحيد ، أو العجب الجدير بهذه التسمية (٣٣) ٠

والاستفهام فى قولهم :" أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ " هو استفهام انكار وسخرية ٠ وأحب أن نتلبث قليلا أمام هذا التركيب ٠ لقد سبق أن ذكرت فى الفصل الخاص بمكية هذه السورة أن هذا التركيب لم يرد الا فى الوحى المكي وأنه لم يستخدم الا على السنة الكفار فى انكارهم للبعث ٠ والذى يتمعن فى هذا التركيب يجد ان همزة الاستفهام قد تكررت مرتين فى الكلام : مرة مع الشرط (وهو كلمة " اذا ") ، ومرة مع جواب الشرط :" انا لفى خلق جديد " ٠ وقد قلنا انه استفهام انكار وسخرية ، ومعنى هذا أنهم كرروا انكارهم وسخريتهم مرتين : مرة فى أول الكلام ، ومرة فى وسطه، مع أن الكلام هو جملة واحدة لاغير ٠ كذلك ينبغى أن نلاحظ أن همزة الاستفهام فى المرتين قد عقبتها همزة أخرى (فى المرة الأولى : همزة " اذا " وفى الثانية : همزة "ان") وفى تتابع الهمزتين ثقل وبطء ٠

انى لأتخيل الكفار وهم يقولون هذا يبطئون عند كل زوج من هذه الهمزات ويضغطون عليهما وهم ينظرون الى رسول الله عليه السلام تارة ويتطلعون الى من حولهم تارة أخرى وفى عيونهم بريق التهكم والعناد ، يؤكدون بهذا البطء والضغط على مخرج الهمزات سخريتهم وانكارهم ، ويقصدون الى ايلامه صلى الله عليه وسلم ٠ ثم انهم قد استخدموا فى جواب الشرط "ان " و " الام " (فى " لفى خلق جديد ") ، يريدون أن يقولوا : " أتقول لنا اننا سنبعث ، ثم لاتكتفى بهذا ، بل تؤكده ايضا وتشتد فى تأكيده ؟ يالغرابة ماتقول !"

والملاحظ أنه لم يهتم بهذين الاستفهامين فى الآية الا علماء القراءات ، وكان اهتمامهم بطبيعة الحال منصبا على كيفية نطق الهمزتين ، وهو ماليس من دراستنا للسورة بسبيل ،اذ ان اهتمامنا بالتذوق الأدبى ٠
أولئك الذين كفروا بهم ، وأولئك الأغلال فى اعناقهم ، وأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون :

كما كرر الكفار وأكدوا كلامهم انكارا وهزءا بالرسول عليه السلام ورسالته كذلك كرر القرآن هنا فى تعقيبه على هذاالانكار والهزء ، فاستخدم اسم الاشارة " أولئك " (وفيه هو ايضا همزتان) ثلاث مرات تأكيدا منه لحقيقة أنهم هم الكافرون ، وأنهم هم الذين ستكون الأغلال فى أعناقهم ، وأنهم هم الداخلون فى النار والمخلدون فيها : تكرير بتكرير، وتأكيد قبالة تأكيد ، وسخرية (ولكن بالحق) فى مواجهة سخرية المبطلين !

(*)وقوله " الأغلال فى أعناقهم " يحتمل كما قال المفسرون أن يكون معناه أنهم مغلولوالرقاب فى النار ، أو أن عقولهم مقيدة فهم لايفكرون بها ، ولا يتدبرون هذه الآيات التى نبههم اليها ربهم ٠ والأفضل أن نقول ان الآية تعنى هذا وذاك معا ، فأعناقهم مغلولة فى الدنيا والآخرة، وغلها فى الدنيا هو سبب غلها فى الآخرة ،اذ لو كانوا كسروا هذه الأغلال هنا وتحرروا منها لحررهم الله منها يوم القيامة ٠ولكنهم وضعوها فى أعناقهم بعنادهم وكفرهم وأبقوها فيها ، فبقيت حيث وضعوها ، وأصبحت عذابا لهم ونكالا فى قعر الجحيم ٠

(*)وقد ذكر محيي الدين الدرويش أن فى الكلام قلبا ، وبنى هذا على أن الأعناق هى التى تكون فى الأغلال ولاعكس، واستشهد على ذلك ببيت رؤبة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه   كأن لون أرضه سماؤه

وعلق عليه قائلا :" أى كأنه لون سمائه لون أرضه ، فعكس التشبيه مبالغة " (٣٤) ٠ ولكن اذا كان فى الكلام قلب كما قال فلم عدل به عن الوضع المعتاد اذن الى عكسه ؟ لقد جعل القرآن الأغلال داخلة فى أعناق الذين كفروا ، فهى لاتقيد أعناقهم ، بل قد اخترقتها ، ومن ثم فلن تنفك عنها ، اضافة الى أن حركة أعناقهم أصبحت بهذا مستحيلة ، لأن حديد الأغلال قد نفذ الى داخلها ٠ وهذا فوق الآلام الفظيعة التى يسببها لهم وجود الحديد داخل رقابهم ٠

(*) وقد ختم الله سبحانه هذه الآية بالاخبار عن الكفار بأنهم أصحاب النار ٠وعبارة " أصحاب النار " كثيرة الورود فى القرآن ، ومثلها" أصحاب الجحيم " ٠ أما " أهل النار "فلم ترد فيه الا مرة واحدة (٣٥) ٠ وفى التعبير ب " أصحاب النار " دلالة على انهم ملازموها لايريدون أن يفرطوا فيها ، لأن أصحاب الشىء هم مالكوه ، والمالك يحرص على مايملك ٠ أو هم أصحابها ، بمعنى أن بينهم وبينها صحبة ، والصحبة تقوم على الملازمة والحب ، وعلى المشاكلة أيضا فى الطباع والأخلاق ٠ اى أن الكفار بالنار أشبه ، وهم على ملازمتها حريصون ٠ وهذه سخرية مرة ٠

(*) وقوله سبحانه " أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " جملتان : الأولى (وهى " أولئك أصحاب النار ") مستأنفة ، والثانية (وهى " هم فيها خالدون ")حال جملة (مكونة من مبتدا وخبر) فى محل نصب ٠" هم " اذن مبتدأ وليست ضمير فصل كما ظن البيضاوى ، فالمعروف أن ضمير الفصل يقع بين المبتدا والخبر ٠ وقد تقدم المبتدأ الأول وخبره معا (وهو قوله " أولئك أصحاب النار ") ٠ ولوكان "هم " ضمير فصل لكان الكلام " أولئك هم أصحاب النار " ٠ ولعل البيضاوى رحمه الله ظن أن خبر " أولئك " هو" خالدون " ٠ فاذا كان ذلك كذلك فكيف نعرب " أصحاب النار " ؟ العله ظنها يمكن أن تعرب تابعا لـ " أولئك " ؟ لكن ذلك لا يمكن الا اذا كانت معرفة بالألف واللام ٠ أم لعله يرى أن " أصحاب النار " جاءت للتبيين والتفسير ، بمعنى " أولئك - اقصد أصحاب النار - هم فيها خالدون " ؟ لكن كان ينبغى أن تكون " أصحاب النار " على هذا التوجيه منصوبة (بفعل محذوف تقديره " اقصد " مثلا) ٠ وهذا على فرض أن كون أولئك اصحاب النار قد فرغ منه وتقرر ٠ أما ولم يسبق عليهم حكم بهذا فلا يصح ، بل هذه الجملة نفسها هى التى تنشىء هذا الحكم ٠

ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات .

أكثر ما يأتى الفعل " يستعجل " فى القرآن متعديا ب " الباء " ، واقله أن يتعدى بنفسه ٠ فمن الأول : " بل هوما استعجلتم به ٠ ريح فيها عذاب أليم " (٣٦)

" قل : لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم " (٣٧)

" ويستعجلونك بالعذاب " (٣٨)

" ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم " (٣٩)

(*)ومن الثانى :" أتى أمر الله فلا تستعجلوه " (٤٠)

" ماذا يستعجل منه المجرمون ؟"(٤١)

(*)ويبدو لى أن الباء هنا تدل على الالحاح فى الاستعجال وشدته ٠ وهى على أية حال ليست لتعدية الفعل الى مالم يكن يتعدى اليه كما ظن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (٤٢)، فالفعل فى الأصل متعد بنفسه (٤٣) ٠

(*) وقد وقف بعض المفسرين أمام التعبير بـ " قبل " هنا متسائلين عن معنى هذه القبلية٠ وكان الجواب اما أن المعنى أنهم استعجلوا السيئة قبل الحسنة ، واما أنهم استعجلوا السيئة قبل انقضاء الحسنة ، التى فهم هؤلاء المفسرون منها أنها فترة الامهال٠ (٤٤)

(*)والواقع أن النفس لا تطمئن لأى من هذين التفسيرين ٠ فأما الأول فهو مبنى على أن المفروض أنهم كان عليهم أن يستعجلوا السيئة ، ثم بعد ذلك يستعجلوا الحسنة ،ولا أظن أن هذا هو المراد ٠ وأما الثانى فانه يقوم على تأويل " قبل الحسنة " ب "قبل انقضاء الحسنة " ، مع أن هذا ليس هو الذى يتبادر الى الذهن ، بل الذى يفهم عادة من قولنا " قبل الشىء الفلانى " هو " قبل حلول وقته " ٠ واذن فـ " قبل الحسنة " هو "قبل مجيئها " لا " قبل انقضائها " ٠ على اية حال ، فالأمر أبسط من هذا كله ، فـ " قبل الحسنة" فى الآية معناها " بدل الحسنة " ، اى أنهم بدلا من استعجال الحسنة يستعجلون السيئة ٠ فـ " القبلية " هنا ليست " قبلية زمانية " بل " قبلية تفضيلية " ، فان الشىء الذى تفضله يأتى عندك قبل المفضل عليه ٠

(*) و " السيئة " هى العذاب الذى توعدهم به الله فى قرآنه ٠ و " الحسنة " هى الهداية لدعوة الحق

ورجاء الخير من ورائها ·

(*) وجملة " وقد خلت من قبلهم المثلات " جملة حالية · والمعنى أنهم يستعجلون السيئة بدل الحسنة رغم سبق التنكيل الالهى بالمكذبين من قبلهم وتكرر وقوعه ·

(*) " والمثلات " جمع " مثلة " ، وهى " العقوبة " التى تجعل ممن توقع عليه مثلا بين الناس · وقد فسرها ابن الأنبارى بأنها " العقوبة التى تبقى فى المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه ، من قولهم : مثل فلان بفلان " (٤٥)· لكن القرآن هنا يتحدث عن العقوبات التى حلت بأمم لا بأفراد · ولا أظن التهديد هنا بهذا النوع من العقوبة ، بل بعقوبة تجعل أصحابها سلفا ومثلا للآخرين · ثم ان الأمم التى ذكر القرآن قصصها مع أنبيائها كانت نهاية أمرها الدمار والاستئصال ، لاجدع أنوف أفرادها مثلا أو سمل عيونهم · ومن المفسرين من فسر " المثلة " بأنها العقوبة التى تتساوى مع الذنب (٤٦) · وليس مقصد القرآن أن يقرر ذلك ، وانما قصده التهديد والقاء الرعب فى القلوب ، وهذا انما يكون بالنص على أن العقوبة تجعل من المعاقب مثلا فى العالمين ·

(*) وقد أعرب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور جملة " ويستعجلونك " على أنها معطوفة على جملة " وان تعجب " · ولكن الأفضل فى رأيى اعرابها جملة مستأنفة ، اذ ليس بين الجملتين تشاكل يسوغ العطف بينهما · فالأولى شرطية ، والثانية ليست كذلك · ثم ان الفاعل فى الجملة الأولى هو الضمير العائد على الرسول عليه الصلاة والسلام ، أما الفاعل فى الثانية فهو الضمير العائد على الكفار · وثالثا فقد فصل بين الجملتين بجملة مستأنفة عطفت عليها جملتان أخريان تلت الثانية منهما جملة حالية · وهذه الجمل الأربع كلها جمل اسمية ، على حين أن الجملتين اللتين جعلهما الشيخ ابن عاشور متعاطفتين هما جملتان فعليتان · لهذا كله أرى أن اعراب جملة " ويستعجلونك ··· " على الاستئناف هو الأليق بالأسلوب الفصيح ·

وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وان ربك لشديد العقاب "

(*) كثيرا ماتقترن المغفرة بالعذاب فى القرآن ، وقد تسبقه أو يسبقها هو · ويظهر أنه اذا كان المقصود التلويح بفتح باب الأمل مثلا أو الامتنان على العباد بأن الله يعفو عن كثير وأنه يمهلهم فلا يعاجلهم بعقوبة لعلهم يستيقظون من غفلتهم ، فان المغفرة تتقدم على العقاب ، والعكس بالعكس· فاذا صح هذا فقد يكون تقديم المغفرة هنا حثا للكافرين على مراجعة أنفسهم قبل فوات الأوان ، أو تنبيها لهم الى أنه اذا كان العذاب لم يقع بهم فليس معناه أنه لن يقع أبدا ، بل لأنه سبحانه لايعجل العقوبة لمن يستعجلها ، ولكن العذاب مع ذلك قادم قادم ·

(*) و " على ظلمهم " معناها " برغم ظلمهم " ·

(*) والتعبير بـ " ربك " هنا بدل " الله " لتقوية قلب النبى عليه السلام فى مواجهة عناد الكافرين واستهزائهم ، فالله هو رب النبى ورب الكافرين معا ، ولكن الآية أضافت" الرب " الى النبى وحده ، ايحاء بأنه سبحانه فى صفه هو ، فهما فى جانب ، والكافرون فى جانب · وتكرير " ربك " مرتين لزيادة تقوية عزمه عليه السلام وتطييب خاطره والتحبب اليه وتشريفه باضافة اسمه تعالى اليه·

(*) وأحب أن أنبه الى تكرار " ان " واللام المزحلقة مرتين ، اذ كان يمكن أن يقال : " وربك ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وهو شديد العقاب " ، ولكن القرآن أراد تأكيد أن الله سبحانه هو وحده الذى يغفر وتأكيد شدة عقابه ·

ويقول الذين كفروا . لولا انزل عليه آية من ربه .

(*) لماذا لم يقل القرآن :" ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه " بدلا من " ويقول الذين كفروا ··· " ؟ يجيب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بأنه "عدل عن ضميرهم الى الاسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم ، ولما يومىء اليه الموصول من تعليل صدور قولهم ذلك " ، وهو ملحظ حسن · ويمكن أن نضيف اليه أن القرآن ربما أراد تحقيرهم والزراية عليهم بذكر هذا العيب فيهم ·

(*) و " الآية " التى يطلبها الكفار هنا هى المعجزة · وهو أحد المعانى التى تستخدم فيها الكلمة فى

القرآن . ومن معانيها فى القرآن أيضا " الآية القرآنية "، وكذلك " العلامة " كما فى قوله : " قال : رب ، اجعل لى آية . قال : آيتك الا تكلم الناس ثلاث ايام الا رمزا " (٤٧)، و" آيات الطبيعة" :" وجعلنا الليل والنهار آيتين " (٤٨) .

(*)ولقد كان الكفار كلما دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام تعنتوا معه وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة . وقد ذكرت سورة "الاسراء " بعضا من هذه المعجزات التى اقترحوها عليه ، ومنها أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو يسقط السماء عليهم كسفا ، أو يأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يرقى فى السماء وينزل معه كتاب يقرؤه عليهم (٤٩). ورد القرآن عادة فى مثل هذا الموقف هو أمره للرسول أن يقول لهم انه ليس الا بشرا رسولا . كما بين القرآن أن انزال المعجزات من السماء لم يجد مع الأمم السابقة ، وكانت النتيجة أن حقت عليهم كلمة العذاب ونكل بهم فى الدنيا أشد التنكيل : " وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموابها " (٥٠) .

(*) ثم ان الايمان لايستمر ولا يثبت فى النفس الا اذا قام على الاقتناع . ولايصح أن تهمل البشرية عقلها وتنتظر أن تنزل السماء عليها المعجزات لتعرف أن الرسول الذى أتاها بهذه المعجزة هو رسول من عند رب العالمين حقا . وفضلا عن ذلك فالمعجزة ان نفعت فانما تنفع من شاهدوها فقط ، وهم لن يتجاوزوا على أقصى تقدير المئات أو الآلاف أم الذين لم يشاهدوها سواء فى زمن وقوعها أو فى الأزمان التالية ، وهم لايحصون عددا ، فانهم لن يصدقوا وقوعها . وقد كان المفروض على الكفار أن ينظروا فى الدعوة التى أتاهم بها الرسول ليروا أتحض على مكارم الأخلاق وتبتغى الصالح العام أم لا ، وأن ينظروا فى أخلاق حاملها ، وما داموا يعرفون أنه رجل صدق ، ولا يبغى من ورائها مغنما شخصيا أو أسريا أوقبليا ، فليس لهم عذر فى تكذيبه والشغب عليه . أعنى أنه ينبغى أن يكون مقياس صدق الرسول وححقية رسالته هو مقياسا داخليا ،مقياسا من شخصية الرسول نفسه وطبيعة رسالته ، وأن يكون عمدتهم فى ذلك كله هو العقل ، العقل الذى يدعوهم القرآن دائما الى استعماله وعدم اهماله ، العقل الذى هو نعمة الله وحجته على عباده .

انما أنت منذر ولكل قوم هاد .

(*) " انما أنت منذر " جملة تفيد القصر ، أى هذه أيها الرسول مهمتك المطلوب منك أن تؤديها فلاتهتم بما يشغبون به عليك من طلب المعجزات ، وأنت فى النبوة لست بدعا ، بل سبقك الهداة من الرسل والأنبياء الى أقوامهم ، فما الغرابة أو الجديد فى اتيانك اياهم برسالة حتى يحدثوا كل هذه الضجة ، كأنهم لم يسمعوا من قبل لابنبوة أو أنبياء ؟ وهذا معنى " ولكل قوم هاد " ، أى أن " هاد " مبتدأ متأخر خبره " لكل قوم " . أو قد يكون معناه : انما أنت منذر وأنت لكل قوم يتبعونك هاد ، تهديهم برسالتك الى طريق الحق المبين . وعلى هذا تكون " هاد " معطوفة على " منذر " . وهناك تفسيران آخران : أولهما أن المقصود بـ " هاد " هو الله سبحانه وتعالى . ومن الذين قالوا بذلك الزمخشرى ، الذى لاأدرى كيف قال هذا وهو اللغوى والبلاغى الضليع . ذلك أن معنى " لكل قوم هاد " أن هناك هداة متعددين بعدد الأقوام . فاذا قلنا ان " هاد " معناها " الله " ترتب على ذلك أن هناك آلهة متعددة . أم لعله فهم أن معنى " ولكل قوم هاد " هو " ولكل الأقوام هاد " ؟ لكن هذا غير هذا تماما . وثانى التفسيرين أن " الهادى " هو على بن أبى طالب (٥١) . وهذا التفسير أيضا عندى غير مقبول، لا لأنى لا أرى عليا كرم الله وجهه أهلا لهداية من يقتدى به ، بل لأنى لا أفهم افراده بأن يكون هاديا من دون أبى بكر وعمر وعثمان وعيرهم من الصحابة الذين أضاؤوا كالنجوم فى أفق الانسانية العالى ، والتابعين وتابعيهم الى يوم الدين ممن استقام على الطريقة وخشى الله واتقاه. اننى أشعر أن هذا التفسير يهدف الى أن يجعل لعلى بن أبى طالب حقا خاصا هو خلافة النبى عليه الصلاة والسلام سياسيا وروحيا . لا ، بل ان تأويله " الهادى " بأنه هو على قد يفهم منه تقديمه كرم الله وجهه على الرسول نفسه عليه السلام ، اذ لاشك أن " الهادى " افضل ممن لايفعل أكثر من مجرد الانذار. ان المنذر والهادى معا هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى بعد مماته ، لأنه اذا كان قد غاب عن الدنيا بجسمه الشريف فقد بقى بعده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهما ماكان ينذر بهما ويهدى فى حياته صلى

الله عليه وسلم . وقد رأى ابن الجوزى فى تفسير " الهادى " بـ " على " أنه " من موضوعات الرافضة " (٥٢) . ان على بن أبى طالب هو من أفذاذ الصحابة لاشك ، وهو من الهداة المهديين بمشيئة الله، ولكنه واحد منهم وليس هو الهادى الوحيد ، وان كان من خلاصتهم .

(*) وفى هذا الرد الالهى على الكفار وعلى استهزائهم المثمثل فى طلب المعجزة تلميح بأن العقاب ينتظر هؤلاء الكفار ، اذ الانذار لايكون الا بسوء قادم ، وان كانت الآية تشير فى نفس الوقت الى أن الأفضل لهم أن يصيخوا للهداية التى جاءهم بها الرسول والا يصنعوا صنيع الأقوام السابقين مع رسلهم حين لم يهتدوا مع المهتدين فحق عليهم ما أنذروا به واسحتهم الله بعذاب من عنده .

الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

(*) استأثر الله سبحانه بعلم الغيب ، ذلك أن علمه سبحانه لاحد له ، فهو خالق كل شىء من عدم ، فكيف يغيب عن علمه شى ءخلقه ؟ أما نحن البشر فعلمنا قاصر ومحدود ، ولا تعلق له بأمر من أشياء الغيب . والغيب قد يكون غيبا زمانيا ، وقد يكون غيبا مكانيا ، الى جانب الغيب الروحى (كالملائكة والجن) ولسنا بصدده الآن . فالأمر الذى لم يحدث بعد هو من النوع الأول ، أما الأمر الذى يحدث الآن ولكن يحول بيننا وبين الاطلاع عليه حائل هو من النوع الثانى .

(*) " وما فى الأرحام " هو من الغيب المكانى ، ذلك أن حواس البشر لاتصل اليه . وعلى هذا فهو من الأمور التى لايعلمها الا الله سبحانه . ولكن اذا زال الحجاب الذى يمنع البشر أن يعرفوا مافى الأرحام فعندئذ لن يعود من الغيب . ذلك أن العلم والطب قد تقدما ، وأصبح مستطاعا رؤية الجنين على شاشة المرناء وهو لايزال فى بطن أمه ، فهل يعد هذا من باب العلم بالغيب ؟ لا طبعا ، لأن الحاجز الذى كان يفصل بيننا وبين الجنين قد زال. وهذا مثل ما لو جئنا الى جدار يفصل بيننا وبين غرفة مجاورة ويمنعنا أن نرى أو نسمع أونعرف أى شىء فيها ، فهدمناه ، فعندئذ نسمع ونرى ونعرف مافيها ، لأن الحاجز قد زال . ان ماكان غيبا أصبح بهذا من علم الشهادة . ولماذا نذهب بعيدا وعندنا المناظير الطبية التى يطلع بها الطبيب على المعدة والمثانة من الداخل ويعرف مافيهما ويعالج ماأصابهما من القرح ؟ كذلك فكلنا نعرف المرناء ، الذى ينقل لنا ، لا مايدور داخل الجسم البشرى الذى أمامنا ، بل مايدور فى البلاد الأخرى، وقد يكون بيننا وبينها عشرات الآلاف من الكيلومترات ، وتفصلنا عنها صحارى وجبال وبحار ومحيطات، وكذلك ما يدور فى سفن الفضاء فى الفضاء الخارجى بل وعلى سطح القمر . لقد تقدم العلم . هذا صحيح ، ولكن ذلك كله هو بفضل الله ونعمته . ولولا الله سبحانه ما استطاع الانسان أن يحرك اصبعه ولا أن يكمل تنفسه . المهم أن نكون على بينة من أن هذا كله لا يدخل فى باب معرفة الغيب ، اذ مادامت هناك آلات توصلنا بما كان مغيبا فانه لايظل غيبا ، بل يصبح أمرا من أمور عالم الشهادة .

(*) يقول د . عبداله عبادة ، وهو طبيب متخصص ، ان قوله تعالى :" مافى الأرحام " قد فسر خطأ فى الأجيال الماضية بأنه ذكر وأنثى ، وانه قد تكون هناك موجات صوتية أو موجات مرئية أو تحليلات كيميائية تؤدى الى معرفة جنس الجنين ذكرا أو أنثى ، ولكن كلمة " مافى الأرحام " ستظل مع ذلك من علم الغيب الذى لايعلمه الا الله (٥٣) .

(*) هذا مايقوله أحد المتخصصين فى الطب (فى كتاب صدر له فى السنوات الأخيرة) ، ولكن الأستاذ محمد أحمد جمال (فى كتابه " على مائدة القرآن " ، الذى نشر لأول مرة فى الخمسينات) يستبعد استطاعة العلم الحديث أن يكشف نوع الجنين وهو لايزال فى بطن أمه ، اذ ان هذا عنده من الغيب الذى لايعلمه البشر أبدا (٥٤) .

(*) على أن هذا ليس كل مايتعلق بالجنين ، فما زالت وستظل هناك أشياء حوله مجهولة ، فمن ذلك مثلا لون البشرة ولون العينين والقدرات العقلية والميول النفسية والطول والوزن ... الخ ، الخ ، وان كان ممكنا أن تتقلص بعضهذه المجهولات مع تقدم العلم ،الذى هو من الله سبحانه وتعالى وبفضله .

(*) ان بعضالمتعجلين يظنون أن معرفة هذه الأشياء حول الجنين مثلا تصادم ماورد فى هذه الآية وفى

آخر سورة " لقمان " ، وكذلك ماورد فى أحد الأحاديث النبوية من أن هناك خمسا لايعلمهن الا الله ، ومن بينهن " مافى الأرحام " ، ولا مصادمة (٥٥) ٠ ذلك ان أحدا لايعلم فعلا مافى الأرحام اذا ظل الحجاب الذى يفصل مافى الأرحام عما هو خارج الأرحام قائما ، اذ يظل مافى الأرحام عندئذ غيبا من الغيب ، وحينئذ لايعرفه الا الله ، الذى يعلم السر وأخفى ٠

(*) وللشيخ محمد الطاهر بن عاشور هنا ملاحظة أسلوبية ، اذ قال ما مفاده ان استعمال القرآن للفعل " تحمل" بدلا من "تحبل " دلالة على أن المقصود أنثى الانسان والحيوان على السواء ، لأن " الحبل " لايستعمل الا لأنثى البشر (٥٦) ٠ لكن فاته أن القرآن كثيرا قد تحدث فى عدة مواضع عن حمل المرأة فقط ، وفى كل مرة يستعمل " الحمل " ولم يحدث أن استخدم " الحبل " البتة ٠ وهذه هى النصوص :

" فلما تغاشها حملت حملا خفيفا فمرت به " (٥٧)

" فحملته فانتبذت به مكانا قصيا " (٥٨)

" حملته أمه وهنا على وهن " (٥٩)

" حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا " (٦٠)

" وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن " (٦١)

" وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن " (٦٢)

(*) ومع ذلك فانى أوافقه على أن المقصود " أنثى الانسان والحيوان جميعا " ، ولكن لاعتبار آخر ، اذ مادام القرآن لم ينص على أنها أنثى البشر فلا داعى لقصر الكلام عليها ، الى جانب أن قوله تعالى " كل أنثى " تفيد التعميم ٠

(*) و "غاض الماء فى الأرض" ، و" غاضته الأرض " : تسرب الى باطنها ، أى أنه يستعمل لازما ومتعديا ٠ والأليق أن يكون هذا الفعل هنا هو والفعل " تزداد " متعديين ، حتى يكون هناك تشاكل بينهما وبين " تحمل " ، الذى لا يأتى الا متعديا ، ويكون الضمير فى كل منها مستترا ، سواء قلنا ان " ما " التى تسبق كلا منها هى اسم استفهام أو اسم موصول ٠

(*) وقد اختلف المفسرون فى معنى " تغيض الأرحام " ، فمن قائل ان المقصود أن تحمل ولدا واحدا ، على حين أن "تزداد " معناها أن تحمل أكثر من ولد ، ومن قائل ان المقصود جفاف الدم وازديادها سيلانه ، ومن قائل ان غيضها هو نزول الولد قبل تمام الأشهر التسعة وازديادها عكس ذلك ، (٦٣) ومن قائل ان غيضها هو اسقاطها الولد خديجا ٠٠٠ الخ ٠

(*)ويبدو أن هذا التعبير جديد غير مألوف ، ومن هنا وجدناهم لايتفقون على شىء فيه ، علاوة على أن نظم الأسلوب القرآنى وما فيه من ايجاز من شأنه أن يكثر أبواب التأويل أحيانا ٠ و " الله " مبتدأ ،وخبره " يعلم ماتحمل كل أنثى ٠٠٠ " ٠ وتقديم لفظ الجلالة فى الآية للقصر ، أى لايعلم ذلك الا هو سبحانه ٠ وقد جوز بعض المفسرين اعراب لفظ الجلالة خبرا لمبتدا محذوف تقديره هو ، يعود على " هاد " (٦٤) ٠ ولما كان قد سبق أن رفضنا تفسير " هاد " بانه هو الله فاننا نرفض أيضا هذا الاعراب ٠ وثمة سبب ثان ، وهو أن الكلام على الاعراب المرفوض سوف يخلو من القصر ، ومن ثم يضيع مغزى الآية ٠

وكل شىء عنده بمقدار .

(*)الاشارة هنا الى القوانين الالهية التى تحكم الكون كله : بشره وملا ئكته وجنه وعجماواته وما فيه من جماد ٠ وقد استطاعت الانسانية على مدار تاريخها الطويل أن تكتشف كثيرا من هذه القوانين وتفيد منها وتنظم حياتها على أساسها ٠ وهى فى سبيلها الى اكتشاف المزيد منها ٠ وكلما اكتشفت منها أكثر كانت خطاها فى مدارج الرقى والتقدم أسرع وأخصر ٠ وفى القرآن الكريم :

" انا كل شىء خلقناه بقدر " (٦٥)

"وخلق كل شىء فقدره تقديرا " (٦٦)

"٠٠٠٠وكان أمر الله قدرا مقدورا " (٦٧)

عالم الغيب والشهادة .

(*) جرى القرآن دائما على تقديم علم الله بالغيب على علمه بالشهادة (٦٨) . وسوف نرى فى الآية التالية أنه قد ذكر علمه بالسر اولا قبل الجهر (٦٩) ، وكذلك علمه بمن هو مستخف بالليل سابقا على علمه بالسارب بالنهار ، وذلك حتى لايظن ظان أن علم الغيب وأمثاله أصعب عليه سبحانه من علم الشهادة . ان الأمر بالنسبة له سبحانه واحد ، فليس بالنسبةاليه صعب وسهل ، فقدرته مطلقة ولا حد لها .

الكبير المتعال .

(*) الكبير بحق ، أما المخلوقات فهى صغيرة . وليس معنى هذا أن هناك وجها للمقارنة ، فلا مقارنة بين الخالق والمخلوق ، أو بين الرب والعبد ، فنحن بدونه عدم فى عدم ، ولو تخلى عنا طرفه عين هلكنا وبدنا .

(*) و " المتعال " أصلها " المتعالى " ، ثم حذفت الياء منها للمحافظة على الايقاع وجماله . وقد تكرر مثل ذلك فى القرآن ، وأحيانا ماتحذف هذه الياء من غير أن تكون فى نهاية الفاصلة ، وذلك مثل قوله تعالى :

" أجيب دعوة الداع اذا دعان " (٧٠)

" ومن يهد الله فهو المهتد " (٧١)

" ومن يهد الله فهو المهتد " (٧٢)

" سواء العاكف فيه والباد " (٧٣)

" واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب " (٧٤)

(*) ومن ثم فلا معنى لتعقيب محيي الدين الدرويش(فى كلامه عن حذف ياء " المتعال ") بعدقوله : " انها رسمت بغير ياء لأنها رأسآية " بقوله :" ولولا ذلك لكان الجيد اثباتها " (٧٥) ، اذ من الذى يجرؤ على أن يجعل من نفسه حكما على أسلوب القرآن يضع له القواعد بل يجوده ويسوءه ؟

(*) ومعنى " المتعال " هو الموغل فى العلو ، فهى لاتدل على العلو بل على العلو الذى لا يطاوله علو آخر . وكيف لا وهو سبحانه الموجود الحقيقى ، وكل الموجودات منه تستمد وجودها ؟ وهل يمكن أن يسامت المخلوق خالقه ؟

سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومو هو مستخف بالليل وسارب بالنهار :

(*) " استخفى " : جهد فى الاختفاء ، لأن الهمزة والسين والتاء تدل هنا على الطلب . و " سرب " ذهب على وجهه فى الأرض ، ومن ثم تعنى هنا الظهور ، فالذى يذهب فى النهار لابد أن يراه الناس. والمعنى واضح ، وهو أن الله سبحانه يستوى فى علمه اسرار القول والجهر به ، كما يستوى الاستخفاء بالليل والظهور بالنهار . ومع ذلك يأبى فريق من المفسرين الا أن يعقد السهل ويقلب معنى الكلام رأسا على عقب فيقول ان " مستخف بالليل " معناها " ظاهر " ، و " سارب بالنهار " معناها " مستتر " . وقد بدأ هذا الاشكال من تفسيرهم " السارب " ، اذ رأوا أنها مأخوذة من " انسرب الوحش" اذا دخل فى كناسه ، فهو عندئذ يختفى . ثم انتقلوا الى " مستخف بالليل " ، ولما وجدوا أن الآية تقوم على المقابلات فسروا " الاستخفاء " على معنى " الظهور " ، وقالوا ان " خفيت " معناها " أظهرت " ، واستشهدوا بقوله تعالى : " ان الساعى آتية أكاد اخفيها " ، الذى أولوه بـ " أكاد أظهرها " . وهناك من فسر الكلام بأن معناه " " ومن هو مستتر بالليل ومستتر بالنهار " (٧٦) . وهما تفسيران متمحلان تأباهما بلاغة القرآن حتى لو كان لهما وجه من الناحية اللغوية . فأما الأخير فلأنه قد أضاع التوازن الذى فى الآية ، فقد جعل " الجهر " فيها فى مقابل " الاسرار " ، مما يحسن معه أن يوضع " الظهور بالنهار " تجاه " الاستخفاء بالليل " . فلو جعلناهما " استتارين " ، أحدهما بالليل والثانى بالنهار ، لانكسر هذا التوازن . وأما الأول فلأنه ، وان قابل بين " الظهور بالليل " و " الاستتار بالنهار " ، قد أفسد مع ذلك التوازن ، اذ ان الترتيب فى " المقابلة " الأولى قائم على ذكر " الاستتار " أولا ثم التثنية بذكر " الظهور " . وهذا الترتيب الجديد لايخالف الترتيب فى المقابلة الأولى فقط

، بل يخالف الترتيب المطرد فى علم الله بالسر والجهر فى القرآن كله ، كما أشرت سالفا • ثم ان هذا التفسير الغريب يضيع المغزى الذى حرصت الآية على ابرازه ، وهو أن علم الله تستوى فيه شدة الاستتار وقوة الظهور • وشدة الاستتار تتحقق بأن يكون الاستتار بليل ، كما أن قوة الظهور تتم اذا كان الظهور نهارا • أما أن يكون الظهور ليلا والاختفاء نهارا فهو يسوى بين الأمرين •

(*) قلت ان الآية حريصة على التوازن ، وأحب أن أضيف أن التوازن ليس بين قوله " من أسر القول ومن جهر به " وبين " من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار " من جهة الترتيب فقط ، بل من جهة نوع صلتى " من " وخبرها فى كل من الجزأين ، اذ الصلتان فى الجزء الأول هما فعلان ماضيان ، على حين أن الخبرين فى الجزء الثانى اسما فاعل •

(*) وقد لفت انتباه المفسرين أن تركيب العبارة فى الجزء الثانى من قوله تعالى : " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار " لا يجرى على ما هو مألوف ، والا لقيل :" ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار " • ولعل أحسن التوجيهات التى ذكرت فى ذلك أن " سارب " ليس معطوفا على " مستخف " بل على " من هو مستخف " ، وبالتالى فلا اشكال (٧٧) • على أنه ينبغى أن نعرف أن للقرآن الكريم انفراداته الأسلوبية فى كثير من الأحيان ، والا فهل يقال عادة :" وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور "؟ أليس الأسلوب الشائع هو :" وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات والنور * ولا الظل والحرور "؟ أم كيف يمكن على نظام الأسلوب المعتاد توجيه مجىء " دعوا " فى الآية التالية على النحو الذى جاءت عليه : " هو الذى يسيركم فى البر والبحر • حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين "؟ لقد جعل الزمخشرى " دعوا " بدلا من " ظنوا " ، وحاول الاقناع بأنه ممكن (٧٨) • ولكن من قال ان القرآن لا بد أن يجرى على النمط المعهود فى التراكيب ؟

له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .

(*) " معقبات" أى يعقب بعضهم بعضا ، جمع " معقبة " ، والمقصود الملائكة الحفظة • وقد استعمل الفعل المضعف ولم يستعمل المجرد ، وذلك ارادة المبالغة والتكثير ، كما نقول مثلا " طوف " و " قتل " •••الخ (بالتشديد) بدلا من " طاف " و " قتل " •

(*) و " من بين يديه ومن خلفه " كناية عن أنهم يحيطون به من كل جانب ، وان لم يذكرالا " الأمام " (من بين يديه) و " الخلف " ، وذلك كقولنا :" صباح مساء " ، والمقصود طول اليوم ، وهكذا •

(*) وقد أورد المفسرون عدة آراء فى عود الضمير فى " له " ، فقال بعضهم انه الله ، وبعضهم انه الرسول ، وآخرون انه الحاكم المتخذ حراسا وجلاوزة ، وفريق رابع انه الانسان عموما • فأما الذين قالوا ان الضمير فى " له " عائد الى الله سبحانه فانهم يقصدون ، فيما هو واضح ، أن لله معقبات من بين يدى (الرسول ؟ الحاكم ؟ الانسان ؟) ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، أى أن الضمير فى " من بين يديه ومن خلفه •••الخ " يختلف عن ذلك الذى فى " له " ، وهو تكلف وتمحل ، اذ اما أن تكون الضمائر كلها عائدة الى "الله " (وهو مالا يمكن ، اذ لايقال : " من بين يدى الله ومن خلفه " ، وايضا لايمكن أن يكون المقصود أن الملائكة تحفظه تعالى ، بل هو الحافظ القيوم سبحانه) واما الى " من أسر القول ومن جهر به ••• الخ " ، وهو المراد فى نظرى • أما توجيه أحد الضمائر الى جهة وتوجيه الباقى الى جهة أخرى من غير أن يحتمل تركيب الكلام ذلك بوضوح واستقامة فغير مستساغ ، وبخاصة أن الآية ستعود وتذكر اسم الله صراحة (وذلك فى قوله " من أمر الله ") ، فكيف يعكس الأمر ، ويأتى الضمير أولا وبعده الاسم الظاهر ؟

(*) ومما سبق يتبين أنى أرفض التفسيرين الآخرين ، وهما أن المحفوظ هو الرسول أو الحاكم ، اذ لم يسبق لأيهما ذكر فى الآية (٧٩) حتى يقال ان الضمير يمكن أن يعود اليه ، وبخاصة " الحاكم " ، اذ ان الآية فيما هو واضح تمتن على العبد بأنه محفوظ بحفظة ،أما المفسرون الذين فسروا المحفوظ بأنه " الحاكم

" نقد قالو انهم لايحفظونه حقيقة ، وانما هو يتوهم ذلك (٨٠) .

(*) أما كيف يعود الضمير على " الانسان " وهو لم يذكر فى الآية ، فالجواب انه مفهوم من قوله :" من أسر القول ومن جهر به ... الخ " ، فالكلام كله على الانسان وان لم يأت اسمه صراحة .

(*) وكما اختلف المفسرون فى عود ضمير " له " كذلك اختلفوا فى شبه جملة " من أمر الله " : هل هو نعت لـ " معقبات "؟ أم هل هو متعلق بـ " يحفظونه "؟ أى هل المقصود أنهم" معقبات من أمر الله (أى بفضله وكرمه) ؟ أم المراد أن " المعقبات يحفظونه من أمر الله " ؟ ولا أرى بأسا أن يكون المقصود هذا وذاك معا ، فهؤلاء المعقبات هم من رحمة الله ، وهم يحفظون الانسان من أمر الله أيضا .

(*) ولعل سائلا يسأل : وهل يمكن أن يحفظ شيء الانسان من أمر الله ؟ أليس أمر الله نافذا لامحالة ؟ لكن قائل هذا ينسى شيئا جوهريا فى المسألة ، وهو أن الحفظ والحفظة هما أيضا من أمر الله ، بل كل شيء فى الكون هو من أمر الله . أليس الله هو خالق كل شيء ومريد كل شيء والقيوم على كل شيء ؟ ومن قبل سئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عندما قرر الا يدخل المنطقة المصابة بالطاعون من بلاد الشام : " أتفر من قضاء الله وقدره ؟ " ، فكان جوابه هو الجواب ، اذ قال :" افر من قضائه الى قضائه " . وعلى كل حال فالأمر رهن مشيئته سبحانه ، فاذا أراد للانسان حفظا حفظ ، واذا أراد له الاصابة أصيب ، وهذا معنى قوله بعد ذلك فى نفس الآية :" واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له " .

ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بانفسهم .

(*) فاذا أساءوا جنوا عاقبة أساءتهم ، واذا أحسنوا كانت لهم الحسنى . يصدق ذلك على الفرد وعلى المجتمع . وهذا مفاده أن البشر ليسوا مجبورين فى أفعالهم ، بل اقتضت مشيئته سبحانه أن يعطيهم القدرة والارادة اللتين بهما ينفذون ارادته جل وعلا .

(*) وفى الآية تهديد خفى للكفار الذين يحادون الله ورسوله ويغلقون عيونهم وآذانهم وعقولهم وقلوبهم وضمائرهم عن دعوة الحق والنور بأنه سبحانه لايترك أمثالهم اذا أصروا على كفرهم ولجوا ، بل يأخذهم بالعقاب ، وأنه ليس بمكنة أحد أو شيء أن يرد عذاب الله عمن يريد عقابهم . وهو سبحانه لايظلم أحدا ، فلا يلومن هؤلاء الكفار الا انفسهم ، فهم عندئذ انما يجنون ماقدمت أيديهم من سوء .

(*) وما يهمنا الآن فى عصرنا هذا هو أن على المسلمين أن يشتغلوا بأسنانهم وأظافرهم حتى يتغلبوا على ماهم فيه من تخلف وضعف وانقسام ، فيقووا علميا واقتصاديا وحربيا وسياسيا ، ويستطيعوا أن يتبوأوا مكانة عزيزة كريمة بين الدول والأمم ، وتكون كلمتهم مسموعة محترمة ، ويرهب عدوهم جانبهم ، ويستردوا مالا يزال من بلادهم فى أيدى المستعمرين ، فالآية تصرح بما لايقبل ذرة من شك أن التغيير يبدأ من البشر، سلبا وايجابا .

واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال .

(*) فاذا توجهت ارادته سبحانه الى شيء فليس من يستطيع لها تحويلا و لا حتى تأجيلا ، فهو القاهر فوق عباده ، وكلمته هى العليا . وعلى الكفار أن يحذروا فلا يعاندوا ولا يظنوا أن العذاب مادام لم يقع حتى الآن فانه لن يقع بهم أبدا ، فان لكل شيء أوانا ، فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

(*) وهو سبحانه الولى : هو الحافظ ، فان رفع حفظه فلاحفظ . وهو الرازق ، فان منع رزقه فلا رزق . وهو الناصر ، فان كف نصره فلا نصر . وهو المحيى ، فان أراد اهلاكا فليس الا العدم . لايسأل عما يفعل ، وهو المنتقم الجبار .

هو الذى يركم البرق خوفا وطمعا ، وينشىء السحاب الثقال .

(*) التركيب فى الآية يدل على القصر ، أى أن الذى خلق البرق وأنشأ السحاب الثقال (وغير الثقال ، وكل شيء فى الكون) هو الله سبحانه وتعالى .

(*) والبرق ، بما يحدثه من نور باهر يشق حجب الظلام لثوان ليقود جيوشه فتطبق على الكون كرة أخرى ، وبما يعقبه من رعد ، يفعم القلوب بالخوف والرعب . ولا أنسى ليلة فى بانجول عاصمة جامبيا (فى

غرب افريقية) كنت فيها فى حجرتى بالفندق ، وكان الطابق خاليا الا منى • وكانت غرفتى بجوار الشرفة من جهة الشارع القريب من المحيط الأطلسى • وفجأة سمعت خبطا ودقا ظننت فى بادىء الأمر انه آت من تحتى من الطابق الأرضى ، وأن العمال يمزحون • ثم علا الخبط والدق واشتد ، واذا بالسماء تصطفق اصطفاقا كأنها طلقات مدفعية تصوب نيرانها على الفندق ، الذى أخذ يرتج بعنف خلع قلبى وخيل الى أنه سينهدم على من فيه • وحبست نفسى فى غرفتى وأنا أردد فى الظلام الذى ساد بعدانقطاع الكهرباء من المدينة : " يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته " • وكنت اذا أطللت من الزجاج ناحية المحيط وأبرق البرق وجدت الشوارع قد استحالت الى نهار • ولم يفرخ روعى الا بعد أن انقشع هذا كله • فهذا هو الخوف •

(*) أما الطمع فان البرق يصاحب الأمطار ، والماء حياة ، ولولاه لهلكت المخلوقات من انسان وحيوان ونبات • وما أخبار الجفاف الأفريقى وماجره من " تصحر " وموت ألوف البشر وتحول ألوف أخرى الى هياكل عظمية عنا ببعيدة •

(*) وهناك تفسير آخر للآية ، اذ ليس موقف البلاد والعباد كلهم من البرق ومايعقبه من هطول الأمطار شيئا واحدا ، فبلاد تعتمد على الأنهار وكثير من طرقها مترب ، فاذا سقطت الأمطار أوحلت الطرق وتوقفت المواصلات وتوقفت معها مصالح العباد ، وبلاد أخرى لم يهبها الله الأنهار فهى تنتظر الأمطار بفروغ الصبر ، وتعده خيرا وبركة •

(*) ويمكننا أن نضيف تفسيرا ثالثا وهو أن البرق اذا كان هينا وكانت الأمطار معتدلة فى البلاد التى تحتاجها كان مطمعا للناس وابتهجوا به • أما اذا اشتد البرق وتحولت الأمطار الى سيول جارفة تهدم البيوت وتقلع الأشجار وتغرق الشوارع وتقتل البشر فانه يتحول الى فزع رهيب •

(*) وقد قيل فى اعراب " خوفا وطمعا " انه مفعول لأجله • وقد رفض بعضهم هذا الاعراب على أساس أنه لوكان مفعولا لأجله لكان الكلام هكذا : " هو الذى يريكم البرق اخافة واطماعا " (٨١) ، يريد أن يقول ان الله يرينا البرق ليخيفنا ويطمعنا ، لا ليخاف هو ويطمع • ولذلك فهؤلاء يؤولون الى " اخافة واطماعا " قبل أن يقبلوا القول بأنه مفعول لأجله • وعلى أية حال فهذا التركيب مثال آخر من السورة على أن أسلوب القرآن كثيرا مايخرج على المألوف فيدهش‌ويبعث العقول على التفكير • ومع ذلك فالجملة تقبل اعرابا آخر لم يقل به أحد ممن رجعت اليهم رغم أنه لايحوج الى تأويل ولا تقدير ، وهو أن تكون " خوفا وطمعا " مفعولا ثالثا لـ" يرى " أى يجعلكم تحسونه فى قلوبكم خوفا وطمعا • ومثلها فى القرآن الكريم : " كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم " (٨٢) • ولا أدرى لماذا لم يقل بهذا الاعراب أحد من هؤلاء على فضلهم وعلمهم وتعودهم أن يقلبوا كل جملة قرآنية على كل وجوهها الممكنة بل فى كثير من الأحيان على الوجوه غير الممكنة أيضا • وهذا الاعراب يقوم ، كما هو بين ، على أن " يرى " ليست رؤية العين ، بخلاف اعراب الزمخشرى لها ، فقد جعلها بصرية ، وجعل " خوفا وطمعا " منصوبا على الحال من البرق أو من ضمير المخاطبين فى "يريكم " بمعنى" خائفين وطامعين " • وجعل الحال من ضمير المخاطبين فيه تأويل وتعسف ، وجعله من البرق لا يستقيم ، لأن البرق لايرى بالعين أبدا خوفا وطمعا ، فأحرى بالرؤية هنا أن تكون رؤية الوجدان ، بمعنى شعور القلب كما قلت فى تفسير الجملة على اعرابى •

(*) وفى الجملة نكتة بلاغية ، اذ لماذا قدم الله سبحانه " الخوف " على " الطمع " ؟ ويظهر لى أن ذلك هو المناسب لما جاء فى الآية السابقة من أنه " اذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له " فذكر " الخوف " أولا ، لأنه أحد أنواع السوء ، وبخاصة أن المقام مقام تهديد للكفار •

ويـنشـئ السحاب الثقال .

في الآية اشارة الى دورة المطر ، فالريح والحرارة تبخران بعضا من مياه البحار والأنهار وغيرهما من المسطحات المائية ، ويصعد هذا البخار الى طبقات الجو العليا محمولا على ذرات الهواء حيث يتجمع ويتكون منه السحب . ورغم ثقل هذه السحب فان الهواء يحملها بقدرة الله وارادته . وتسوق الريح تلك السحب حتى يقدر لها أن تهطل مطرا على بقاع مختلفة من الأرض ، ومنها الجبال والهضاب ، التى ينحدر هذا المطر الى سفوحها حيث ينصب فى بحيرات ومنها الى الأنهار ، التى تحملة مارة بالبلاد والعباد فيأخذ كل منها حاجته من مائها الى أن تنتهى بأن تصب فى البحار ، لتبدأ الدورة من جديد . وهذا كله بناء على قوانين خاصة هى صنع الله القدير ذى السلطان والمشيئة المطلقة النافذة . وهذا الذى نراه ونأخذه شيئا مسلما ما كان يمكن أن يكون لو أراد الله سبحانه الا يكون .

وقد وصف " السحاب " فى الآية بأنه " ثقال " والمعتاد أن يقال :" سحاب ثقيل " ، ولكن أسلوب القرآن كثيرا مايكسر المعتاد المألوف ، فيأتى خضرا نضرا .

ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته :

قال بعض المفسرين ان " تسبيح الرعد " على المجاز ، وفسر بعضهم ذلك بأنه لما كان الرعد يدل على تنزيه الله تعالى ووجوب حمده ، فكأنه هو المسبح (٨٣) ، أى أن تسبيحه بلسان الحال لا بلسان المقال . وفسره بعضآخرون بأن الذى يسبح ويحمد هو سامع الرعد لا الرعد نفسه (٨٤).فالكلام على هذا التفسير فيه حذف . وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ان " اسناد التسبيح الى الرعد مجاز عقلى . ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شبه الرعد بآدمى يسبح الله تعالى ، وأثبت شيئا من علائق المشبه ، وهو التسبيح " . (٨٥)

وذكر بعض المفسرين الآخرين أن " تسبيح الرعد " حقيقى . ومن بين هؤلاء من قال ان الرعد ليس مجرد صوت ، بل هو الملك الذى يسوق السحاب ويزجره بصوته وهو يسبح الله تعالى ويحمده (٨٦) . وقد أورد الزمخشرى عن ابن عباس" أن اليهود سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الرعد: ماهو ؟ فقال : ملك من الملائكة موكل بالسحاب ، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب " (٨٧) .على أن سيد قطب ، الذى فسر أولا " تسبيح الرعد " على أنه تسبيح بلسان الحال والدلالة ، لم يستبعد مع ذلك أن يكون التسبيح هنا حقيقيا " فهذا الغيب الذى زواه الله عن البشر لابد أن يتلقاه البشر بالتصديق والتسليم وهم لايعلمون من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسهم الا القليل " (٨٨). ولكن الملاحظ أن فى كلامه ، عليه رحمات الله ، شيئا من التناقض ، اذ بدأ بعدم استبعاد ذلك قائلا :" وقد يكون المدلول المباشر للفظ " يسبح " هو المقصود فعلا" ، وانتهى بالجزم به ، وذلك فى قوله :" فهذا الغيب ... لابد أن يتلقاه البشر بالتصديق والتسليم " . ولو اكتفى بأن ذلك غير مستبعد لكان كلامه متسقا مع بعضه البعض.

والواقع أننى لاأستبعد أن يكون صوت الرعد تسبيحا لله وتحميدا . وكوننا نرى الرعد مجرد صوت لا يعقل ليسمعناه انه عند الله كذلك ، فليسالله مثلنا . واذا كنا نحن محدودين ببشريتنا وكان فهمنا للأشياء والظواهر الكونية مقصورا على الظاهر منها عادة فان علم الله سبحانه مطلق لايحد . وهو سبحانه الذى خلقها ، وليسيعقل ان نقيسه عز وجل علينا . ثم ان الله يقول فى القرآن الكريم بصريح العبارة :" وان من شىء الا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم " (٨٩)

ولتقريب الأمر نقول انه لايوجد أحد من البشر يفهم كل لغات العالم ، ولكن الله سبحانه الذى خلق البشر وخلق هذه اللغات على ألسنتهم يحيط بهذا كله احاطة تامة . فاذا نزلنا الى دنيا العجماوات رأيناها تتفاهم فيما بينها بأصوات واشارات لا نفهمها عادة ، ولكن لاشك أن الله سبحانه يحيط بذلك كله أيضا . أليسهو الذى خلقها وخلق ألسنتها وجوارحها ، وجعل هذه تصدر اشارات وتلك أصواتا ؟ فاذا نزلنا درجة أخرى فى سلم الخلق الى عالم الجمادات فهل ينبغى أن نستبعد أن تكون لهذه الكائنات لغات لمجرد أننا نجهل ذلك ؟ ان معناه اننا نعتقد أننا مقياس كل شىء ، مع أننا لسنا الا جنسا واحدا من

أجناس المخلوقات الكثيرة ، والأرض التي نعيش فوقها لاتعدو ان تكون كوكباً من كواكب واحد من النجوم التي لا تحصى في أحد السدم التي لاتحصى، في هذا الكون الهائل الرهيب الذى لايدرك أبعاده الا خالقه العظيم •
وعلى هذا فاذا كان الرعد ، كما يبدو لنا ، هو مجرد " صوت احتكاك الهواء الناشىء من تفريغ جزء منه بسبب احتراقه بالشرارة " (٩٠) فليس معناه أنه عند الله كذلك • ومن ثم فلا تعارض بين تفسير " تسبيح الرعد " بأنه دلالته على ربوبيته سبحانه وقدرته المذهلة وابداعه في خلقه ، وبين تفسيره بانه " تسبيح حقيقى " ، وان كان ذلك بلغة لايعرفها الا خالقها ، أى أن " تسبيح الرعد " هو في نفس الوقت تسبيح بلسان الحال وبلسان المقال معا : بلسان الحال بالنسبة لنا ، وبلسان المقال عند مولاه سبحانه •

ويشترك مع الرعد في تسبيح الله تعالى الملائكة : **فذاك يسبح بحمده ، وهؤلاء يسبحون من خيفته** • ان الله عز وجل كريم رحيم ، ولكنه ايضا منتقم جبار لايسأل عما يفعل • ومن كان هذا شأنه فاحر به أن يخاف ويخشى • والملائكة لقربها منه سبحانه تعرف ماقد تنطمس ابصارنا وبصائرنا فلا نعرفه أو على الأقل لانقدر على استحضاره في كل وقت • ومن ثم فان الواحد منا ، حتى لو كان مؤمنا قوى الايمان بالله ولقائه ، قد تأتى عليه أوقات يتصرف فيها كما لو كان قلبه لايعرف خشية الله ، أما الملائكة فلا ، فهم كما قال القرآن : " يسبحون الليل والنهار لايفترون " (٩١)، و"هم من خشيته مشفقون " (٩٢)•

ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء .

الملاحظ أن القرآن في هذه الآية لايتحدث الا عن مظهر واحد من مظاهر الطبيعة التي تدل على جبروته سبحانه ، وهو مايصاحب المطر أحيانا من برق ورعد وصواعق • والواقع الذى نعرفه جميعا أن هناك مظاهر أخرى لجبروت المولى عز وجل : كالزلازل التي قد تضرب مدنا بأكملها وتمحوها من الوجود وتبتلع في لحظات الرجال والنساء والأطفال والحيوانات والسيارات وكل ماشيدته الحضارة ، فاذا كل ذلك في خبر كان ، وكالبراكين التي ترسل دخانها السام ، ورمادها القاتل ، وحممها التي تهبط متدفقة بالموت والدمار ، وتقوض في طريقها المنازل ، وتدمر الحقول ، وتقيد كل ما يسوقه القدر في طريقها تقييدا أبديا ، ليتحول الى حفريات تكتشفها الأجيال المقبلة بعد حقب من الزمان متطاولة ، وكالسيول والفيضانات والعواصف البرية والبحرية والثلوج ، مما قد أصبح أمرا معروفا للجميع بفضل المرناء الذى ينقل أخبار العالم من اقاصيه لأقاصيه في غمضة عين ، وكالأوبئة والأمراض التي ما ان تصل البشرية الي علاج لبعضها ودواء حتى تفاجأ بغيرها مما لاتستطيع له شيئا ، وغير ذلك من ظواهر الجبروت الالهى ، وهو أحد أسمائه الحسنى سبحانه (كما أن الرحمة أحد هذه الأسماء أيضا) • ولكن القرآن ، فيما يبدو ، قد اقتصر على البرق والرعد والصواعق مما يدخل في دائرة مشاهدات العربى في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وتجاربه ، ليكون كلامه مفهوما ويحدث تأثيره المنشود في نفسية هذا العربى •

وقد قدر الطبرسي في الكلام هنا حذفا ، اذ يرى أن أصله هو :" ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء (ويصرفها عمن يشاء) " ، ولكنه لم يبين النكتة البلاغية في هذا •وانى أرى ان القرآن قد اقتصر على ذكر الاصابة ، لأن المقام مقام تهديد وتخويف للكفار الذين تمضى الآية بعد ذلك فتقول انهم " يجادلون في الله "، فالملائكة تسبحه من خشيته ، وهو يرسل الصواعق فتقتل من يشاء وتحرق مايشاء • والمفروض أن يضع الكفار في حسابهم هذا فيكفوا عن عنادهم وسفاهتهم ويسارعوا الى الانضواء في موكب الرعد والملائكة فيسبحوا مولاهم ويعرفوا له قدره •

وقد أعرب الألوسي الآية على أساس أن " يرسل " و " يصيب " عاملان كلاهما في " من يشاء " ، أى أنه يرسل الصواعق على من يشاء فيصيبه بها • والحق ان تأويل الطبرسي للعبارة وتقديره فيها محذوفا افضل من هذا التوجيه الاعرابي ، اذ ان ارسال الصواعق لايلزم عنه بالضرورة أن يصاب بها في المنطقة التي حدثت فيها شخص أو شيء • وعلى هذا فانني لاارى أن تكون " يرسل " عاملة في " من يشاء " (بمعنى "يرسل الصواعق على من يشاء ") ، بل ينبغى أن يقف عملها عند " الصواعق " ، ويستقل الفعل " يصيب " بالعمل في الاسم الموصول (٩٣) ، أى انه سبحانه يرسل الصواعق ، أما الاصابة فقد تقع وربما لاتقع •

وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال .

اعربت " الواو " : فى " وهم يجادلون ..." على أنها للعطف ، كما اعربت على انها للحال (٩٤) .
وجوز بعضهم ايضا ان تكون للاستئناف (٩٥) . وافضل هذه الاعرابات فى نظرى ان تكون الواو حالية ،
فيكون المعنى " ما اعجب هؤلاء الكفار واشد عنادهم ! انهم فى الوقت الذى يسبح الرعد بحمد الله والملائكة
من خيفته وتنقض الصواعق بأمره سبحانه فتقتل من يشاء وتحرق مايشاء ، فى نفس هذا الوقت ترى هؤلاء
الكفار يجادلون فى الله ولايسلمون ويؤمنون " ، أى انهم فى ذات الوقت الذى يدعوهم كل شىء الى الايمان
والانقياد لا ينقادون ولا يؤمنون . فـ " واو الحال " هى التى تعطينا هذا التزامن بين شهادة الملائكة ومظاهر
الكون لله وبين كفر الكافرين به . وهذا التزامن هو الذى يؤكد صلابة رقابهم وغلاظة قلوبهم . أما اعراب "
الواو " عاطفة أو استئنافية فانه يفقد العبارة هذا التزامن ، وبالتالى لايكون فيها تأكيد لصلابة رقابهم
وعنادهم .

و " الواو " فى قوله :" وهو شديد المحال " هى ايضا للحال ، اى ان عندنا حالا منحال . والمعنى أنه
فى ذات الوقت الذى يشهد فيه كل شىء بجبروت الله سبحانه ترى الكافرين يجادلون فى الله . وفى ذات الوقت
الذى يجادل فيه هؤلاء الكفار فى الله ، جاهلين أنه عز وجل حرى أن يأخذهم اخذ عزيز مقتدر فى الوقت الذى
يقدره ، وان ظنوا أنهم آمنون من المؤاخذة والعقاب .

له دعوة الحق .

أى أن الحق هو أن تكون العبادة والدعاء له سبحانه وحده لا لسواه ، فهو وحده الاله الحق ، وما عداه فهم
عبيده ، ان دعوا فأجابوا من دعاهم فانما اجابتهم بقدرته وارادته ، فهم غير قادرين على السمع والاجابة فضلا
عن نفع من يدعوهم أو ضره من تلقاء أنفسهم . هذا اذا كان المدعو بشرا ، أما اذا كان صنما أو وثنا مثلا (
وهو المقصود هنا ، فقد كان العرب وثنيين) فانه لايسمع ولايجيب أصلا ، بله يستجيب . وبعبارة اخرى
فعبادة الله هى العبادة الحقة ، والدعاء له هو الدعاء الحق . أما عبادة البشر لغيره ودعاؤهم اياه فهو باطل
وضلال فى ضلال .

والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه **وماهو ببالغه .**

الأصنام والأوثان جامدة لاتفقه دعاء من يدعونها ، ولا تستطيع ان تصنع لهم شيئا ، بل هم الذين
يفعلون لأنفسهم مايفعلون ثم ينسبونه اليها . وهذا ماتقوله العبارة القرآنية على طريقة التصوير والايحاء
والتهكم . انها تريد أن تقول : ان كان الماء يستطيع ان يرى من يبسط كفه نحوه ويفهم مغزى هذه الاشارة
ويستجيب لها فيرتفع الى أن يصل الى اليد المبسوطة والفم المفتوح الصديان فان فى مستطاع الأصنام والأوثان
أن تسمع عبادها وتفهم ما يقولون وتستجيب لما يطلبون منها . ولكن الآية لم تقل ذلك على هذا النحو ، بل
صاغت الكلام صياغة يفهم منها أولا ان الماء يمكن أن يستجيب لمن يبسط نحوه كفيه مجرد بسط ، وذلك
عندما نفت الاستجابة ثم أثبتتها ، ومعروف أن نفى النفى اثبات . ولكن القارىء سرعان مايكتشف أن هذا
تهكم بالباسط كفيه الى الماء وكذلك بالكافرين الباسطين اكف الضراعة لأصنامهم وأوثانهم ، فلا الماء ببالغ
فم الباسط كفيه ، ولا الأصنام بمستجيبة لعبادها الحمقى شىء .

والقرآن على عادته ، فى بعض الأحيان ، مع التشبيه الذى يتكون كل طرف من طرفيه يدوره من طرفين قد
حذف من طرفى المشبه (وهو الطرف الأول من طرفى التشبيه) أحدهما . ولتوضيح ذلك نقول : ان المشبه هو
الكافرون مع اصنامهم ، والمشبه به هو الباسط كفيه مع الماء . وقد حذف الكافرون من المشبه . ومن الأمثلة
الأخرى لذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى : " مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله
بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون "(٩٦) ، اذ المعنى :" مثل رسول الله معهم كمثل الذى استوقد نارا
مع من يجلسون معه حولها حين ينجح فى ايقادها فاذا أبصارهم قد ذهب الله بنورها ... الخ "، وكذلك قوله
سبحانه : " ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء " (٩٧) ، فالمقصود أن مثل
الرسول عليه السلام مع الكفار كمثل الراعى دواب ينعق بها فلاتفهم من ذلك الا أنه مجرد دعاء لها ، فحذف

أحد الطرفين اللذين يتكون منهما المشبه (وهو الرسول عليه السلام) وهو من الأساليب التى لاتجرى مع المالوف الذى لايبدهك بجديد ٠

ورغم وضوح هذه الصورة فان أباعبيدة وغيره قد رأوا أن ذلك تشبيه بالقابض على الماء فى انه لايحصل على شيء ، وأن العرب تضرب بذلك المثل فى الساعي فيما لايدركه ، واستشهدوا ببيتين من الشعر على ذلك (٩٨) ٠ وقد كان الألوسي على حق حين لاحظ أن ابا عبيدة يتكلم عن شيء مغاير لما ذكرته الآية ، فالآية تتحدث عن انسان باسط كفيه الي الماء لا قابضهما عليه ٠

واغرب من ذلك من قال ان غلطة هذا المحتاج للماء انه بسط كفيه اليه ، ولو قبضهما لنال مبتغاه ٠ ومن المدهش أن أحد القائلين بهذا هو الألوسي نفسه ، الذى خطأ عن حق اباعبيدة ، فوقع للأسف في أشد من خطا ابي عبيدة (٩٩)٠

ان الماء لا يمكن الحصول عليه بقبض الأصابع ، بل يفر من بينها فلا يحصل الانسان منه على شيء ٠ وقد أصابت العرب حين شبهت من يسعى فى أمر مستحيل بالقابض على الماء ، وان كانت الآية قد شبهته بالباسط كفيه اليه لا القابض بهما عليه ، وهو أقوى في الدلالة على المعنى ، اذ الباسط كفيه الي الماء لايحصل منه على كثير أو قليل ، أما القابض كفيه عليه فهو يخرج على أية حال بالبلل ٠

وكعادة بعض المفسرين ومن يتصدون لاعراب القرآن نراهم يأتون فى تفسير الضمير " هو " فى " وما هو ببالغه " بالمقبول وغير المقبول ، فيجعلونه عائدا على " الفم " ،والماء هو المبلوغ ، ويجوزون ايضا عوده على الشخص نفسه (١٠٠) ، على أساس أنه هو البالغ والماء هو المبلوغ ايضا هنا ، مع ان الآية تقول بوضوح تام :" ليبلغ فاه " ، فالماء هو البالغ والفم هو المبلوغ ، فلم الاغراب والابعاد ؟

وما دعاء الكافرين الا فى ضلال .

"ضل فلان طريقه " أى خرج عن الطريق المؤدى به الى غايته ، ومن ثم فلن يصل اليها ٠ وكذلك الخطاب حين يضل طريقه فى البريد فلا يصل الى المرسل اليه ٠ وهذا هو الحال مع دعاء الكافرين أصنامهم ٠ ان هذا الدعاء قد ضل وسيظل ضالا طريقه ، وهو المفهوم من قوله :" فى ضلال " بالاطلاق من غير تعيين زمن بعينه لهذا الضلال ، فهو فيه دائما أبدا ٠

ومع وضوح معنى العبارة ودلالتها على أن دعاء الكافرين انما هو موجه الى أصنامهم فقد رأى بعض المفسرين أنه قد يكون المقصود بهذا دعاءهم الله سبحانه وتعالي (١٠١) ٠ان سياق الآية يدل دلالة جازمة على ما فهمناه منها ٠ ثم كيف يكون دعاء الكافرين ربهم فى ضلال ؟ انهم ان دعوا بالهداية لأنفسهم فكيف يتصور أن يغلق الله سبحانه بابه فى وجه من يدعوه بالهداية ؟ وان دعوا بالعذاب عليها ، كما ذكر القرآن فى سورة " الأنفال" (١٠٢) فان الله سبحانه معذبهم ان عاجلا أو آجلا ، فى الدنيا أو فى الآخرة ٠

ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال .

فاما طوعا فمفهوم ، فالملائكة وكذلك الجن والبشر المؤمنون الخاشون ربهم يعبدون ربهم ويسجدون له ويخضعون ٠

ولكن ما معنى " كرها " ؟ وكيف يسجد الكافر كرها لله ؟ ومن الذى يكرهه ؟ واذا أكره عدد من الكافرين على السجود لله (كما يفهم من التفسير الذى أورده الطبرى مع غيره من التفاسير والذى مؤداه أن "كرها " معناها الدخول فى الاسلام كرها) فماذا عن ملايين الكافرين بل ملياراتهم من لدن بداية الخلق الى وراثة الله الأرض ومن عليها ؟ ان السجود هنا هو ماعبر عنه كثير من المفسرين بأن العالم كله " مقهور لله تعالي ، خاضع لما أراد سبحانه منه ، مقصور على مشيئته ، لا يكون منه الا ماقدر جل وعلا " (١٠٣)٠ وعلى هذا فالظلال هي ايضا تسجد لربها ٠ اليست تجرى على القوانين التى رتبها عليها خالقها ولا تستطيع ، مثلما لا يستطيع أى كائن مخلوق مهما علا أو سفل أو صغر أو كبر أو جل أو تفه ، عنها حولا ؟ ولأن السجود الفعلي لايقع الا من العقلاء نرى الآية قد عبرت عن الساجدين بألفاظ العقلاء (" من " و " ٠٠٠ هم ") ، مسوية بذلك بين الملائكة والبشر والجن وبين سائر الكائنات ممن لايعقل ٠

وقوله "بالغدو والآصال " معناها طول اليوم ليله ونهاره ، كقولهم " صباح مساء " وكما فى قوله فى السورة قبل ذلك " من بين يديه ومن خلفه " ، والمقصود " من كل جانب " .

قل . من رب السماوات والارض؟ قل . الله .

ورد فعل الأمر " قل " فى القرآن ٣٣٢ مرة ، وهو فى اغلبيته الساحقة موجه الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . ومن استعمالاته لغير الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى لموسى عليه السلام :

" اذهب الى فرعون انه طغى * فقل : هل لك الى أن تزكى " ؟ (١٠٤) .

وقوله تعالى موجها الحديث الى الانسان عموما :

" وقل لهما (اى للوالدين) قولا كريما * ... وقل : رب ، ارحمهما كما ربيانى صغيرا * ... فقل لهم (اى لذى القربى والمسكين وابن السبيل) قولا ميسورا " (١٠٥) .

ومعظم ورود هذا الفعل فى العهد المكى (ربما بنسبة الثلاثة أرباع الى الربع) ، غالبه فى المحاجة فى امور العقيدة وما يتعلق بها .

وفى اكثر الأحيان يأتى الفعل " قل " ابتداء ، اى من غير أن يسبقه من الكلام مايكون هو ردا عليه ، كما هو الحال فى آياتنا التى نحن بصددها ، ويكون فى هذه الحالة تعقيبا على موقف يراد تبيان رأى القرآن فيه . وقد يأتى جوابا لـ " قال " أو " يقولون " او " يسألون " او " يستفتونك " أو " يستنبئونك " .

وأول الأربعة هو الأغلب ، ويليه الثانى ، أما الثالث فقد ورد مرتين ، على حين ورد الرابع مرة واحدة لاغير :

" واذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل : ان الله لايأمر بالفحشاء " (١٠٦) .

" قالوا : انما أنت مفتر . بل أكثرهم لايعلمون * قل : نزله روح القدس من ربك بالحق " (١٠٧) .

" سيقول السفهاء من الناس: ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب "(١٠٨) .

" سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ... قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا " (١٠٩) .

" ويقول الذين كفروا : لست مرسلا . قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ... " (١١٠).

" سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتاخذوها : ذرونا نتبعكم ... قل : لن تتبعونا " (١١١).

" يقولون :هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : ان الأمر كله لله " (١١٢) .

" ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون : هو أذن . قل : أذن خير لكم " (١١٣) .

" فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة " (١١٤) .

" سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون ...، ويقولون ... قل : ربى أعلم بعدتهم " ١١٥) .

" ويقولون : متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟* قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون " (١١٦) .

" يسألونك عن الأهلة ، قل : هى مواقيت للناس والحج " (١١٧) .

" يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل : قتال فيه كبير " (١١٨) .

" ويسألونك عن المحيض. قل : هو أذى " (١١٩) .

" ويسألونك عن ذى القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكرا " (١٢٠) .

" ويسألونك عن الجبال ، فقل : ينسفها ربى نسفا " (١٢١) .

" ويستفتونك فى النساء. قل : الله يفتيكم فيهن " (١٢٢) .

" يستفتونك . قل : الله يفتيكم فى الكلالة " (١٢٣) .

" ويستنبئونك : أحق هو ؟ قل : اى وربى انه لحق " (١٢٤) .

وقد تأتى جوابا لشرط (ولكنه غير كثير) ، مثل :

" واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم " (١٢٥) .

" وان حاجوك فقل : أسلمت وجهى لله " (١٢٦) .

" فان كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة " (١٢٧) .

" وان جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون " (١٢٨) ٠

وأحيانا ماتأتي " قل " متتالية ، والقول مرة سؤالا ، ومرة جوابا على هذا السؤال أو غير ذلك ، مثل :

" قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم * قل : أطيعوا الله والرسول " (١٢٩) ٠

" قل : ان الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ٠٠٠ قل : ان الفضل بيد الله ٠٠٠ " (١٣٠) ٠

" قل : سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين * قل : لمن مافي السماوات والأرض؟ قل : لله " (١٣١) ٠

"قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم ٠ وأوحي الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ٠ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ٠ قل : انما هو اله واحد " (١٣٢) ٠

" قل : لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا ٠ هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل : هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ؟ ٠٠٠ * قل : أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم " (١٣٣) ٠

" قل من يرزقكم من السماء والأرض؟ قل : الله ٠ وانا واياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل : لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم * قل أروني الذين ألحقتم به شركاء "(١٣٤) ٠

وهذا الفعل في معظم الأحيان يوجه الى النبي من غير أن يسبقه نداء له صلى الله عليه وسلم ، وأحيانا ما ينادي النبي قبله وهو قليل (ثلاث مرات) ٠ والملاحظ أن النداء في هذه الحاله لايكون الا ب " يا أيها النبي " ولم يرد بـ " يا أيها الرسول " أو بأي اسم أو صفة أخرى له عليه السلام (١٣٥) ٠ وهذه هي الشواهد :

" يا أيها النبي ، قل لمن في أيديكم من الأسرى :٠٠٠ " (١٣٦) ٠

" يا أيها النبي ، قل لأزواجك : ٠٠٠ " (١٣٧) ٠

" يا أيها النبي ، قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن " (١٣٨) ٠

وأحيانا يحدد المقول لهم (وقد يكون هذا التحديد " باللام " فيقال " قل للقوم الفلانيين كذا وكذا " ، وقد يكون بالنداء) ، والغالب عدم تحديد ذلك ٠ وهذه أمثلة على تحديد المقول لهم :

" قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون الى جهنم " (١٣٩) ٠

" وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ " (١٤٠) ٠

" قل : اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ٠٠٠ " (١٤١) ٠

" قل : ياأهل الكتاب ، تعالوا الى كلمة سواء " (١٤٢) ٠

" قل : يا أهل الكتاب ، لم تكفرون بآيات الله ٠٠٠؟ " (١٤٣)٠

" قل للذين كفروا : ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف " (١٤٤) ٠

" قل : يا أيها الناس ، انما أنا نذير مبين " (١٤٥) ٠

" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم " (١٤٦) ٠

" وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن " (١٤٧) ٠

" قل لأزواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ٠٠٠ " (١٤٨) ٠

" قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن " (١٤٩) ٠

" قل : ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم " (١٥٠) ٠

" قل : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة " (١٥١) ٠

" قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله " (١٥٢) ٠

" قل للمخلفين من الاعراب : ستدعون الى قوم أولي بأس شديد " (١٥٣) ٠

" قل : يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت " (١٥٤) ٠

" قل : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون " (١٥٥) .

والملاحظ أن حظ السور من ورود هذا الفعل فيها يختلف . وتأتي على رأس القائمة سورة " الانعام " حيث ورد فيها أربعا وأربعين مرة ، تليها " يونس" (٢٤ مرة) ، تليها " آل عمران " (٢٣ مرة) ، ف " الاسراء " (٢١ مرة) ، ف " البقرة " (١٨ مرة) ، فكل من " سبأ " و " الزمر " (١٥ مرة) ، ثم التوبة " (١٢ مرة) ، فكل من " الأعراف " و " المؤمنون " (١١ مرة) ، ثم سورتنا " الرعد " (١٠ مرات) ، وهكذا ... ، الى أن نصل الى سور لا يأتي فيها هذا الفعل الا مرة واحدة مثل " يوسف " و " الحجر " و " النحل " و " مريم " و " الروم " و " فاطر " و " يس" و " الصافات "

و " غافر " و " الكافرون " و " الاخلاص" و " المعوذتين " . على أن هناك سورا لم يرد فيها هذا الفعل قط ، مثل " الفاتحة " و " المدثر " و " الدخان " و " الرحمن " و"القلم " و " الحاقة " و " المعرج " و " المزمل " و " المدثر " و " المرسلات " و "الكوثر " و " المسد " .

أما جملة القول فقد تكون خبرية ، وقد تكون انشائية : ندائية أو استفهامية أو أمرا أو نهيا ... الخ . وفيما تقدم من الأمثلة مايغني عن سوق الشواهد هنا .

وكثرة اتيان الفعل " قل " في القرآن على هذا النحو تبين كيف أن الله سبحانه كان يكلأ رسوله دائما ويوجهه ويمده بالجواب السليم على ماكان يواجهه من مشكلات أو

يوجه اليه من أسئلة ، سواء قصد بها الاحراج (وهي أسئلة الكفار واليهود) أو الاستفسار (وهي أسئلة المؤمنين) ، وأنه عز وجل كان يحب أن يخاطب نبيه بأسلوب مباشر هو أسلوب الخطاب . ومثله في ذلك أسلوب النداء ، الذي لم يناد فيه الرسول باسمه وذلك تكريما له .

ويلاحظ أن هذا الفعل قد ورد هنا مجردا عن مناداة النبي عليه السلام . وهنا نقطة أحب ان المسها في طريقي ، وهي أن بعض المفسرين في تفسيره هذه الآية نراه يقول :" قل يامحمد كذا وكذا "(١٥٦) ، وقد سلف أن قلت في مبحث " قل " العار لتوه ان القرآن حينما ينادي النبي عليه السلام آمرا اياه بأن يقول كذا وكذا لايناديه الا بـ " ياأيهاالنبي " ، فينبغي أن نحذو حذو القرآن فلا نقول مثلا ان الآية تقول :" قل يامحمد " .

كما يلاحظ أن هذا الفعل قد تكرر في الآية خمس مرات ، ما بين سؤال وجواب : فقد سأل الرسول عليه السلام الكفار عن رب السماوات والأرض ثم أجاب هو بأنه الله ، وهكذا . ولعل سائلا يتساءل عن معنى قيام الرسول بالاجابة على السؤال الذي أمر بتوجيهه الى قومه ، ولماذا لم يتركهم يجيبونه هم ؟ يجيب المفسرون على هذا التساؤل اجابات شتى : فمثلا يقول الزمخشري ما مفاده أن جواب الرسول هو ماكان سيقوله الكفار أنفسهم ، فقد كانوا يعترفون بالله ، فهو " حكاية لاعترافهم وتأكيد عليهم " . وقد تركوا في سورة " المؤمنون " (١٥٧) يجيبون هم فكان جوابهم هو ذلك . كما جوز الزمخشري أن يكون ذلك تلقينا من الرسول لهم ان عجزوا عن الجواب ، وهم في هذه الحالة لن يستطيعوا الانكار (١٥٨) . ويقول البيضاوي أيضا ماقاله الزمخشري ولكن بعبارة مختلفة . أما الطبرسي فان له تفسيرا آخر . يقول :" فقال : قل يامحمد لهؤلاء الكفار : من رب

السماوات والأرض؟ ... فاذا استعجم عليهم الجواب ولايمكنهم أن يقولوا : الأصنام ، قل أنت لهم : رب السماوات والأرض ومابينهما ... الله . فاذا أقروا بذلك قل لهم على التبكيت والتوبيخ لفعلهم : أفاتخذتم من دونه أولياء ...؟ " (١٥٩) . على انه بعد قليل يعود فيقول ما معناه أن السائل قد يبادر الى الجواب عن سؤاله تفاديا للتطويل مادام المسئول لايخالف في الجواب . ويذكر الألوسي ما قاله هؤلاء الثلاثة ، لكنه يرفض القول بأن جواب الرسول على سؤاله هو حكاية منه لاعترافهم . ولا أدري لماذا رد الألوسي هذا التفسير ، وقد كرر القرآن في عدة مواضع منه أنهم كانوا يؤمنون بالله سبحانه ، وان كانوا قد أشركوا معه الأصنام وكفروا بالبعث . كما انه يضيف تفسيرا آخر هو أنهم جهلوا الجواب فطلبوه منه عليه السلام فذكره لهم (١٦٠) . لكن يرد على هذا بأن تركيب الكلام في الآية لايفيد ذلك المعنى . أما سيد قطب فينحو نحوا آخر

اذ يقول ان الأسئلة في الآية تهكمية لم يرد لها اجوبة ، فقد أجابت مظاهر الطبيعة وشاهد الكفار ذلك بأنفسهم ، وبقي ان يسمعوا الجواب كما شاهدوه (١٦١) .

قل . أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ .

تناولت الآية السابقة هذا المعنى ، ولكن تصويرا ، أما هذه الآية فانها تتناوله تجريدا . ونبرة التهكم والتقريع هنا واضحة . والمقصود : أين ذهب يعقولكم فعبدتم ودعوتم من لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؟ فكيف تنتظرون أن ينفعكم ويضروا أعداءكم ؟ فالاستفهام هنا ، كما يقول علماء البلاغة استفهام انكارى ، وليس المقصود أن المراد بهذا النوع من الأسئلة هو الانكار على المسئول فقط ، بل قد يتهكم به أيضا ، ويقرعه ويسخف عقله ويشككه في عقله وذوقه ... الخ .

ويرى د. حسن محمد باجودة أن استعمال القرآن لفظة " دون " هنا ، وهي نقيض لفظة" فوق " ، اشارة الى المكان الذى ينبغى أن توضع فيه هذه الآلهة العاجزة عن دفع الضرر فضلا عن جلب النفع ، والتى تعبد من دون الله تعالى (١٦٢) . لكن الملاحظ أن استعمال القرآن للفظة " دون " في معنى الدونية غير مطرد . ومن ذلك انه يقول عن الكافرين في سياق تهديدهم : " وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك " (١٦٣) . ولا يعقل أن يكون المقصود أن لهم عذابا أحقر من ذلك العذاب ، والا لما كان تهديدا ولفقد الكلام فوق ذلك بلاغته . كذلك فانه سبحانه يقول عن المرأتين اللتين ساعدهما موسى عليه السلام على السقى حين رآهما عاجزتين عن الوصول الى الماء من فرط الزحام :" ووجد من دونهم (أى من دون المتزاحمين على الماء) امرأتين تذودان " (١٦٤) . ولا أظن القرآن يريد تحقير المرأتين ، اللتين انتهى أمر موسى معهما الى التزوج باحداهما . ومثل ذلك قوله تعالى في التهكم على منطق اليهود ، الذين يظنون أن الله لن يعاقبهم يوم القيامة الا أياما معدودة : " قل : ان كانت لكم الدار الآخرة خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين " (١٦٥). ولو كانت " دون " تعنى هنا التحقير لكان معنى هذا ان اليهود يعتقدون أنهم أحقر من غيرهم من البشر ، وهذا خلاف ماكانوا يؤمنون ، والا ماسخر من عقيدتهم القرآن .

قل . هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟

خطر لي أنه قد يكون المقصود بالأعمى والبصير (ومثلهما " الظلمات والنور ") هما الأصنام والله سبحانه وتعالى . ولم أر في السياق ولا في تركيب الآية ما يمنعه ، فالكلام قبل هذه العبارة وبعدها عن الأصنام والله سبحانه وتقريع للكفار لعماهم عن المعبود الحق وعبادتهم لتلك الأصنام . ثم أليس من أسماء الله سبحانه " البصير " و " نور السماوات والأرض" ، كذلك أليست الأصنام عمياء لاتبصر ، بل وصماء لاتسمع ، وبكماء لاتتكلم ؟ أليست مادة جامدة مظلمة ومن يعبدها فقد حرم نور العقل والبصيرة والوجدان الصادق السليم ، وعاش في ظلمات بعضها فوق بعض؟ ثم رأيت البيضاوى والألوسى قد أوردا بين ما أورداه من تفسيرات تفسيرا قريبا من هذا . وهذه عبارة البيضاوى على سبيل المثال : " وقيل : المعبود الغافل عنكم ، والمعبود المطلع على أحوالكم " (١٦٦) ، لكن البيضاوى والألوسى قد وقفا بهذا التفسير دون "الظلمات والنور " فلم يمداه ليشملهما .

فهذا تفسير . والتفسير الآخر ، وهو الذى عليه أكثر المفسرين ، أن المقابلة هنا بين الكافر والمؤمن ، وهو الأقوى لأنه هو التفسير الذى يتوافق مع تفسير القرآن الكريم في مثل ذلك السياق (١٦٧) ، وكلها في المقابلة بين الكافرين والمؤمنين فيما يبدو لي .

كما يقوى هذا التفسير أن الآية التاسعة عشرة تصف الكافر بالأعمى ، مما يدل على أن المقصود الكافر والمؤمن لا الأصنام والله سبحانه .

ولكن لماذا أجمعت "الظلمات " وأفرد " النور "؟ ان الملاحظ ان هذه سنة القرآن في كل المواضع التي ذكر فيها الظلمات والنور . وقد قيل انه لما كان النور اشارة الى سبيل الحق ، والظلمات اشارة الى سبيل

الباطل ، وكان طريق الحق واحدا على حين أن للباطل طرقا متعددة أفرد النور وجمع الظلمات (١٦٨) ٠وقد يكون في الافراد والجمع هنا اشارة الى وحدة الله سبحانه وكثرة الأصنام ٠ على أن القرآن يجرى على جمع " الظلمات " حتى حين لايذكر معها النور ويريد بها الظلمات الحقيقية ، فهل نقول ان جمعها يعنى تراكبها وتكاثفها ، وهو ماتقتضيه السياقات التى وردت فيها جميعا ، ويكون المقصود بجمعها حين تذكر فى مقابل النور ويكون معناها الباطل أنه باطل غليظ قد احاط بأصحابه احاطة فهم لايستطيعون الخروج منه ، أو انهم اوغلوا فيه ايغالا ، أو أنه اذا كان الذنب العادى هو ظلمة فان الكفر ، وهو الذنب الأعظم ، ظلمات لا ظلمة واحدة ؟ هذه فكرة خطرت لى ، ولم أر أحدا ممن رجعت اليهم ذكرها ٠

ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟

مازالت الآية ماضية فى التهكم بهم والتقريع لهم ٠ لقد قررت الآية فعلا ان رب السماوات والأرض هو الله ٠ والآن تتجاهل الآية هذا ضاربة عنه صفحا ، وتسألهم عن حقيقة هؤلاء الشركاء ، وهى تعرف انهم مسلمون بأن الشركاء الذين اتخذوهم ليسوا الا اخشابا واحجارا لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا عن أن تستطيع خلق شىء ٠٠ اى شىء ، بله أن يكون هذا الشىء كخلقه سبحانه ، وهو الكون كله ٠

وأداة الآية فى التجاهل هى " أم " ، التى تدل هنا على الاضراب والاستفهام التقريعى معا ٠انها تهدف الى تعريتهم أمام أنفسهم وفضح مافى منطقتهم من سخف ٠

قلت ان " أم " هذه (وهى " أم " التى لاتأتى بعد الهمزة) تفيد الاضراب والاستفهام المقصود به الانكار والتقريع ، وليس الاضراب فقط كما فى ابن عقيل (١٦٩) ، والا لادت الى الاحالة فى بعض الآيات القرآنية ، كما فى قوله تعالى لبنى اسرائيل (ولم تسبقه " همزة " بل ولا استفهام من أى نوع) : " أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت " (١٧٠) ، اذ لو قلنا انها للاضراب لكان المعنى : " بل كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت " ، وهو مستحيل ، لأن الله لن يقول شيئا لم يحدث ، فهم لم يكونوا شهداء ، لأنه يخاطب بنى اسرائيل المعاصرين للنبى محمد عليه السلام ٠ ومثله قوله سبحانه : " أم له البنات ولكم البنون ؟ " (١٧١) ، وكذلك : "قل : من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ؟ بل هم عن ذكر ربهم معرضون * أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ "(١٧٢) ، اذ لايعقل ان يكون مراد القرآن أن له سبحانه البنات وللكفار البنين ، ولا ان للكفار آلهة تمنعهم من دون الله ٠ ونفس الكلام يصدق ايضا على قوله تعالى : " أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض؟ بل لايوقنون * أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ * أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين * أم له البنات ولكم البنون ؟ * أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ * أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ * ٠٠٠ أم لهم اله غير الله ؟ " (١٧٣) ٠

وقد كان عباس حسن أكثر تفصيلا وأدق فى كلامه عن " أم " من ابن عقيل ، فقد ذكر أنها اذا عريت عن الهمزة فقد تكون للاضراب فقط ، وقد تكون للاضراب والاستفهام الحقيقى أو الانكارى (١٧٤) ٠ كما أن الطريقة التى فسر بها كل من الزمخشرى والطبرسى والألوسى هذا الجزء من الآية يبين أنهم يرون فيها استفهاما ٠

ويلاحظ أن القرآن قد كرر فى عدد من المواضيع " أم " مرتين فأكثر ٠ وقد بلغت ثمانى مرات فى آية سورة " الطور " التى سلف الاستشهاد بها قبل قليل ، والتى يشعر القارىء أن المقصود بتكررها وتتابعها فيها وفى غيرها على هذا النحو محاصرة الخصم ،وتحطيم حججه حجة وراء أخرى ، دون اعطائه الفرصة ليلتقط أنفاسه (١٧٥) ٠

قل . الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار .

ثم تعود الآية الى الحسم . وهذا يشبه مايفعله الأستاذ مع تلميذه العابث يبتسم له وينزل الى مستوى عقله ويتظاهر بأنه يريد أن يعرف منه حقيقة الأمر .وفجاة يعبس في وجهه ويخاطبه بلهجة عنيفة صارمة كأنها قصف الرعد ويريه انه يعلم كل شيء ، فيتخلخل قلبه من جراء هذا التحول الفجائي من حال التودد الى حال المخاشنة .

و " كل شيء " يدخل فيها الأصنام . فالآية تريد أن تقول لهم : كيف تشركون مع الله شيئا من الأشياء التي خلق الله ؟

و "الواحد " هو الذي لا اله غيره . وأي كلام غير هذا هو سخف بل اجرام لا يغتفر .

و " القهار " هو الذي يخضع الكائنات كلها لسلطانه بقوته وقدرته وارادته وجبروته ، ولا يستطيع أي منها أن يخرج عليه أو أن يرد له مشيئة .

أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا . ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد كذلك يضرب الله الحق والباطل . فاما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال :

سبقت صورة الصديان الباسط كفيه الى الماء ، وهذه صورة أخرى محورها الماء أيضا . والملاحظ أن الماء قد تكرر ذكره في هذه السورة . وهذه هي نصوصها التي ورد فيها :

" وجعل فيها رواسي وأنهارا " (١٧٦) .

" يسقى بماء واحد " (١٧٧) .

"وينشيء السحاب الثقال " (١٧٨) .

" كباسط كفيه الى الماء " (١٧٩) .

" أنزل من السماء ماء " (١٨٠) .

" فاحتمل السيل زبدا رابيا " (١٨١) .

" مثل الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار " (١٨٢) .

وهي كما ترى سبعة وتردد ذكرالماء في السورة على هذا النحو من العوامل التي تخلع على السورة وحدة وتماسكا .

ومعنى " سالت أودية بقدرها " أن كل واد ينصب فيه الماء انما يسع من هذا الماء على قدر ماله من طول وعرض وعمق . وقد فسره الزمخشري بأن كل واد يسيل بالمقدار الذي يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار (١٨٣). لكن الملاحظ أن الأودية قد تفيض في كثير من الأحيان فتغرق البلاد والعباد ، كما نسمع ونرى في نشرات الأخبار والصحف . وقد كان ينبغي على الزمخشري أن يسكت عن هذه النقطة مادامت الآية قد سكتت عنها . ان الآية تتحدث عن الماء في حد ذاته ، والماء في حد ذاته هو سر الحياة ، ولا عمران ولا زرع ولا ضرع بدونه . أما أضراره فليست الأصل .

و " الزبد " هو حميل السيل ، أي مايحمله السيل من غثاء كأغصان الشجر المنكسر ورغوة الماء وما الى ذلك ، مما لافائدة فيه للشارب أو ساقي الأرض. و" رابيا " معناها " مرتفعا فوق سطح الماء " . والمقصود بـ " ما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع " المعادن التي تصهر على النار لتنقى من شوائبها ، سواء كانت معادن يراد بها الزينة أو معادن تصنع منها الوان المتاع من آنية واسلحة وغير ذلك . و " يذهب جفاء " معناها " يكون مصيره الى النبذ والالقاء بعيدا ، لأنه لافائدة فيه " ، فالفعل " جفأ " معناه " صرع " ، و " اجفأت القدر بزبدها " : " القته منها " (١٨٤) .

والآية تضرب مثلا للحق (دين الله) والباطل (الكفر والشرك) . فأما الحق فهو الماء الطاهر النقي

النازل من السماء ، وأما الباطل فهو مايخلط بهذا الماء الطاهر النظيف من شوائب وغثاء • وكذلك الحق هو الذهب والفضة وغيرهما من المعادن في حالة صفائها ونقائها ، أما الباطل فهو الأوساخ التي تشوبها (وتسمى " خبثا ") ، ولا تفصل عنها الا بالاحماء والصهر •

ومما يلفت النظر أن الآية قد نصت على نزول الماء الطاهر من السماء ، وهي نفس المصدر الذى نزل منه دين الله سبحانه • فهذه مشاكلة تقوى المعنى • كذلك فقد نصت الآية على ان الخبث والأوساخ والشوائب لا تتميز عن المعادن التى اختلطت بها فضلا عن أن تفصل عنها الا بالايقاد عليها فى النار ، مما له مغزاه ، فان اهل الحق لاينتصرون على الباطل وأهله الا اذا خاضوا فى سبيل ذلك أنواع الابتلاء ونيران الصراع •

وقد لاحظ د• حسن محمد باجودة أن غثاء السيل وخبث المعادن يكونان طافيين على السطح ، أما الماء والجوهر النافعان فيكونان فى أسفل • وهذه اشارة الى وضع الحق والباطل أول الأمر ، اذ تكون الجولة حينئذ للباطل • أما بعد ذلك فان الغثاء والخبث يأخذان ويلقيان بعيدا ، وهذا هو حال الباطل فى النهاية : يذهب جفاء ، أى ينبذ ويطرح (١٨٥) • وهى ملاحظة جيدة •

وفى " دقائق التفسير " لابن تيمية أن المقصود هو ما يخالط القرآن والايمان من الشبهات والأهواء المغوية (١٨٦) • وارى أن ذلك بعيد ، لأن المقام مقام حديث عن الايمان والكفر ، وليس عن الايمان والشبهات فى قلب الشخص الواحد •

ونكرت " أودية " ، كما قال الزمخشرى ، لانه ليس كل الأودية تسيل بالماء ، فالماء لايهطل على جميع الوديان فى العالم فى ذات الوقت •

للذين استجابوا لربهم الحسنى .

يقدم الزمخشرى (ومثله البيضاوى) لهذه الجملة تفسيرين بناء على اعرابين مختلفين • فأما التفسير الأول فيربط بين هذه الجملة وجملة " كذلك يضرب الله الأمثال " ، ويصير به الكلام هكذا : " كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم الحسنى " ، أى للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى • وهذا التفسير يقوم على أن الجار

والمجرور (وهما " للذين ••• ") متعلقان بـ " يضرب " ، وأن " الحسنى " هى نائب عن المفعول المطلق • لكن يقوم دون قبول هذا التفسير لدى خمسة اعتراضات •

الأول ، أن فى القرآن عبارة مشابهة جدا لهذه العبارة ، وهى قوله تعالى : " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " و " الحسنى " هنا هى المبتدأ ، ومعناها " الجنة " أو" المثوبة الحسنى " ، وهذا هو التفسير الثانى الذى ساقه الزمخشرى ، ولكنه فيما يبدو لايرتاح اليه ، فقد ساقه بعد أن اورد التفسير السابق ، كما قدم له بعبارة " وقيل " التمريضية عادة • ومع ذلك فهو عندى التفسير الأليق ، وبخاصة انه قد ورد فى مقابلة مصير الذين لم يستجيبوا لربهم ، وهو " سوء الحساب " ، وذلك فى نهاية الآية •

والثانى أن الحسنى لم ترد فى القرآن " قط " نعتا بل اسما •

والثالث أن الآية تقيم مقابلة بين موقف كل من المؤمنين والكافرين من دعوة السماء• ولو كان المقصود أن المؤمنين قد استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى لقال عن الكافر :" والذين استجابوا لربهم السوأى " • ولكنه لما قال :" والذين لم يستجيبوا له " دل على أن المراد فى حالة المؤمنين أنهم هم "الذين استجابوا لربهم " لا انهم هم " الذين استجابوا له الاستجابة الحسنى " •

والرابع أن الاستجابة فى القرآن لم تأخذ مفعولا مطلقا فى أى موضع من المواضع التى اتت فيها ، وهى ثمانية وعشرون موضعا •

والخامس أنه بناء على تفسير الزمخشرى ستكون جملة " لو أن لهم مافى الأرض جميعا ••• " مستانفة بلا واو • والذوق الأدبى فيما يبدو لى لايستسيغ خلو الجملة هنا من الواو ، ويشعر الانسان انها تكون أوفق لو صدرت بالواو ، وتحول الضمير فى " لهم " الى " هؤلاء " •

و " الحسنى " هو مؤنث أفعل التفضيل المطلق ، أى أحسن مافى الوجود. ولا شك أن " الجنة هى أحسن شىء ، اذ أنها مثال الكمال فى اللذائذ والمسرات والسعادة ، فكل سعادة فيها انما هى سعادة صافية لا كدر لها ولا رنق ، ولا يعقبها آلام أو منغصات ، ولايمكن أن تزول أو تبدل .

والذين لم يستجيبوا له لو ان لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به .

على عادة الأسلوب القرآنى فى كثير من المواضع فى المقابلة بين مصير المؤمنين المصدقين ومصير الكافرين المعاندين نجد الآية هنا تقرن بين عاقبة الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا له ، أى كفروا واتبعوا أهواءهم وضلوا السبيل وكذبوا بالكتاب وبالرسل وباليوم الآخر . وقد ذكرت الآية أنهم ، من سوء الحساب وشدة العذاب فى الآخرة ، لو كان لهم ضعف مافى الأرض كلها لدفعوه فدية لأنفسهم ولا يبقون ولا لحظة واحدة فى العذاب الذى ألقوا فيه ، وهو ما يوحى بهول العقاب وفظاعته الآلام المدخرة لهم .

وقد ذكر القرآن فى موضع آخر منه أنه لن يقبل من أى من الكافرين ملء الأرض ذهبا : " ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب اليم وما لهم من ناصرين " (١٨٧) .

و " الواو " فى " والذين لم يستجيبوا له " اما للعطف ، واما للاستئناف . وكلا الاعرابين مستساغ . و " الذين لم يستجيبوا له " مبتدأ وصلته ، والخبر هو جملة " لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به " .

أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم . وبئس المهاد .

وسوء حسابهم ناتج من سوء أعمالهم ، اذ كفروا بالله وحادوه ، وحادوا رسوله ودينه ، وعذبوا المسلمين ، واغلقوا آذانهم عن سماع دعوة الحق ، ولم يحاولوا أن يعيدوا فيما ورثوه عن آبائهم وأسلافهم النظر على نور المنطق والانصاف والفهم السليم ، بل تنكروا لانسانيتهم وما ميز الله به البشر وفضلهم على كثير ممن خلق ، وهو العقل ونعمة التفكير ، فاستحقوا أن يقول القرآن فيهم : " أولئك كالانعام ، بل هم أضل " (١٨٨) .

ويكفى فى حساب يوم القيامة سوءا أن يحرم الانسان رحمة ربه ويؤاخذ بما عمل ، فلا يغفر له من ذنوبه شىء . وهذا هو حال الكفار : " ان الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء " (١٨٩) . أما المؤمنون فان الله سبحانه قد وعد أن يرحمهم وأن يغفرلهم ذنوبهم مهما عظمت ماداموا لاييأسون من رحمته سبحانه بل يعودون اليه تائبين منيبين : " قل : ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . ان الله يغفر الذنوب جميعا . انه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون " (١٩٠) . فهذا معنى " سوء الحساب " ، وليس معناه أبدا انه سبحانه سيظلمهم . حاشا وكلا .

و " المأوى " هو المكان الذى يلتجىء اليه الانسان . والسخرية واضحة فى تسمية " جهنم " مأوى للكافرين ، أى أنهم يلتجئون اليها أملا أن يجدوا فيها الستر والحماية والأرض، لكنهم يفاجأون بأنها هى عين مافروا منه . وفى مثل هذا المعنى جاءت آية سورة " النور " (١٩١) : " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه " ، فهم انما كانوا فارين من الله وحسابه ، ظانين أنهم فى طريقهم الى الماء والرى ، ولكنهم يفاجأون بأنه سبحانه منتظرهم هناك . ثم هو لا يتركهم يستريحون لحظة ، بل يوفيهم حسابهم على الفور . وبالحساب المولى من حساب !

وقد لفت د. باجودة فى الآية الى لطيفة أسلوبية ، وهى المقابلة بين أشياء ثلاثة وأشياء ثلاثة أخرى

تهدمها هدما . فأما الثلاثة الأولى فهى :

١- تمنى الكفار يوم الحساب أن يكون لهم مافى الأرض جميعا .

٢- وان يكون لهم مثله ايضا معه .

٣- وان يقبل منهم أن يفتدوا أنفسهم بذلك كله .

واما الثلاثة التى تنقض هذه وتهدمها فهى :

١- ان لهم سوء الحساب . ٢- ومأواهم جهنم . ٣ - وما اباسها من مهاد (١٩٢) ، فكأن القرآن جاء الى كل امل من آمالهم ونسفه من أساسه نسفا .

و " المهاد " هو مايمهده الانسان ويوطئه ويسويه . وفي التعبير بـ " بئس المهاد ! " تهكم شديد ، فالمهاد انما جهل للراحة ، والمفروض مادام مهادا ان يقال : "نعم المهاد ! " أما اذا لم يكن مهادا فيقال انه ليس مهادا . أما ان يبقى على تسميته مهادا ثم يقال " بئس المهاد ! " فتلك هى السخرية ، ذلك انه مهاد من نار .

والكفار هم الذين مهدوا لأنفسهم جهنم بأيديهم ، مثلما المؤمنون هم الذين يمهدون لانفسهم مهادا فى الجنة : " من كفر فعليه كفره . ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون " (١٩٣) .

وقد تكررت سخرية القرآن من الكافرين على مثل هذا النحو ، كقوله : " فبشرهم بعذاب أليم " (١٩٤) ، اذ التبشير لايكون الا بالفلاح والنجاح .

كما تكررت زرايته على المصير الذى ينتظر الكافرين ، مثل "

" ومأواهم جهنم وبئس المصير ! " (١٩٥) .

" جهنم يصلونها وبئس القرار !" (١٩٦) .

" بئس للظالمين بدلا !" (١٩٧) .

" جنهم يصلونها وبئس المهاد ! " (١٩٨) .

بل هم انفسهم سوف يعبرون عن سخطهم على هذا المصير المخزى بنفس النحو من التعبير " قالوا : بل انتم لا مرحبا بكم ! انتم قدمتموه لنا ، فبئس القرار ! " (١٩٩) .

افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ؟ .

العمى هنا هو عمى العقل والقلب . هواغلاق منافذ التفكير والفهم ، والغاء المنطق ، والتحجر على الموروثات البالية . ان هذا هو العمى الحقيقى الذى لايقصد القرآن سواه فى هذا السياق وأشباهه : " فانها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور " (٢٠٠) . وفى مقابل العمى هنا يذكر القرآن " العلم بأن ما أنزل الى الرسول عليه السلام من ربه هو الحق " . وقد تكررت فى القرآن صورة " الأعمى والبصير " بمعنى الكافر المعاند والمؤمن المخبت لدعوة الحق .

والسؤال فى الآية مقصود به نفى التسوية بين الذى علم أن دعوة الرسول هى دعوة الحق ونزل على مقتضى هذا العلم فآمن بالرسول ورسالته ، وبين الأعمى الذى أتيحت له فرصة رؤية الحق فأغمض عينيه ، وأصم اذنيه ، وختم عقله وضميره ، وكفر بالحق الساطع نوره فى عينيه ، ومقصود به كذلك تقريع الكافرين والزراية على منطقهم الأعوج .

وهذا التركيب " افمن ... كمن ...؟ " (٢٠١) قد تردد فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، مثل :

" أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم ؟ " (٢٠٢) .

" أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ " (٢٠٣) .

" أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟ "(٢٠٤) .

" أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ " (٢٠٥) .

وقد يأتى هذا التركيب مع بعض التحوير لنفس الغرض (غرض النفى والتقريع والتهكم على منطق الكافرين المعوج) ، فيصبح هكذا :" افنجعل ... ك ... ؟ " ،

مثل :

" أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ " (٢٠٦) .

" أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ " (٢٠٧)

انما يتذكر أولو الألباب .

القرآن هو الذكر :

" انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون " (٢٠٨) .

" وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم " (٢٠٩) .

" وهذا ذكر مبارك انزلناه " (٢١٠) .

والرسول " مذكر " ، أى منبه للعقول وموقظ للنفوس ومحى للضمائر :

" فذكر ، انما أنت مذكر " (٢١١) .

وهؤلاء الذين لم يهملوا عقولهم هم الذين يستجيبون لهذا التذكير ، فيتذكرون . وقد عبر القرآن عنهم بقوله : " أولو الألباب " ، أى الذين يملكون عقولا ، فكأن الكافرين ليست لهم عقول . والحقيقة أن الذين لايستخدمون ما يملكون بل يهملونه وينسونه هم والذين لايملكون سواء .

وقوله :" انما ... " يفيد القصر ، أى أنه لايتذكر الا أولو الألباب . وهذا صحيح ، اذ كيف يتذكر من لايملك أداة التذكر ، وهي " اللب " ، أى العقل اليقظ والضمير الواعى الحساس والقلب الحي الذى لم ينطمس ؟

الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق .

ذكر أيضا الوفاء بعهد الله مع عدم النقض فى قوله تعالى من سورة " النحل " (٢١٢) : " وأوفوا بعهد الله اذاعاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها " ، وسورة " النحل " هى مثل " الرعد " مكية . ويبدو لى أن المقصود واحد هنا وهناك . ومع ذلك فان المفسرين الذين رجعت اليهم قد فسروا هذه على وجه وتلك على وجه آخر مختلف ، فقالوا ان الوفاء بالعهد فى آية " الرعد " (التى نحن بصددها) هى قولهم :" بلى شهدنا " ردا على قوله تعالى حين أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم : " الست بربكم ؟ " (٢١٣) ، يقصدون أن الله سبحانه قد استخرج ذرية بنى آدم جميعا من ظهور آبائهم وهم فى عالم الذر لايزالون ، وسألهم واجابوه بما سبق ، وان كان بعضهم قد أضاف انه قد يكون المقصود بالعهد هو ما افترضه الله عليهم فى كتابه من أحكام . أما آية سورة " النحل " فقد فسروا الوفاء بالعهد فيها بأنه العهد الذى كان المسلم يقطعه على نفسه اذا دخل الاسلام (٢١٤) .

والأفضل فى نظرى أن يكون العهد هنا (وكذلك العهد هناك) هو العهد الذى يقطعه العبد على نفسه لربه وهو فى عالم الوجود هذا الذى نعرفه لا عالم الامكان الذى يشير اليه العلماء بعالم الذرة ، أو العهد الذى يقطعه لاحد من البشر أمثاله مع اشهاد ربه عليه ، فهذا الاشهاد بمثابة عهد قطعه على نفسه أمام الله وبخاصة اذا أكده بالحلف بالله ، كما يشير قوله تعالى فى سورة " النحل " بعد الحديث عن عهد الله : " ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا " (٢١٥) ، اذ كيف يكلف الانسان ويؤخذ عليه المواثيق والعهود وهو لم يوجد بعد ؟ ان الانسان لايكون مكلفا الا اذا بلغ فى دنيانا هذه من السن درجة النضج والفهم والاضطلاع بالمسئولية ، فكيف يكلف هذا التكليف الخطير وهو لايزال ذرا فى ظهر أسلافه الأبعدين ؟ واذا كان بنو آدم قد شهدوا على أنفسهم قبل هذا الوجود وانتهى الأمر فما الداعى اذن الى ارسال الرسل بعد ذلك ؟ ثم ان القرآن لم يحك عن أى رسول من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين أنه ذكر من أرسل

اليهم بهذه الشهادة التي شهدوها على أنفسهم · ان المقصود بذلك ، والله أعلم ، هو شهودهم الرسل تترى ، كل امة يبعث فيها رسول يبشر الناس وينذرهم ، حتى لايقولوا ان الله لم يرسل الينا من يوقظنا من غفلتنا وينبهنا أن ماورثناه عن آبائنا هو ضلال في ضلال · وهذا المعنى قد تكرر وروده في القرآن (٢١٦) :

" رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل "

" وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * ان تقولوا : انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وان كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا : لو انا أنزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم "

" وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا "

" واقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم · فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا "

ثم ان عهد الله لو كان المقصود به عهدا سبق أن قطعه البشر على انفسهم لقيل : " الذين وفوا بعهد الله ولم ينقضوا الميثاق " لأنهم باسلامهم يكونون ، على هذاالتفسير ، قد وفوا بعهد الله فعلا وانتهى الأمر · اما التعبير بالمضارع فيدل على تجدد الأمر وتكرره كلما تكررت موجباته · ويدعم هذا التفسير ان القرآن قد ذكر عهد الله في موضع آخر منه ، عند خطابه لبني اسرائيل ، وطالبهم به ، وذلك في قوله تعالى :

" واوفوا بعهدى أوف بعهدكم " (٢١٧)

كما ذكر القرآن ان الله قد أخذ منهم ميثاقهم (٢١٨) :

" واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل : لاتعبدون الا الله ···"

"ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم "

" ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله الا الحق··· ؟ "

وأنهم نقضوه (٢١٩) :

- فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ···* فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ··· " (٢) ·

وميثاق بني اسرائيل انما تم هنا في هذه الدنيا · كذلك ذكر المسلمون بميثاقهم مع الله حين قالوا : " سمعنا وأطعنا " ، وطولبوا بأن يتذكروه (٣) · والمقصود أن يفي الانسان بما عاهد عليه ، فلا يغدر ولا يداور ، اذ ان العهد هو ميثاق أوثق به نفسه ، أي ربطها والزمها به ، فلا فكاك له منه ·

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

هو ايصال الحقوق الى أصحابها · فلله سبحانه حقوق على عباده بمقتضى ربوبيته لهم : له عليهم حق الايمان به وتوحيده وتقديسه وتنزيهه ، وعبادته ، والسمع والطاعة لرسله ، والتجهز ليوم البعث · وللبشر على البشر حقوق : للزوجة على زوجها حق ، وهو له عليها حق مثله ·وللأولاد على والديهم حقوق ، وعليهم تجاههم واجبات · وللأقرباء حقوق متبادلة · وللجار على الجار حقوق ، وعليه له واجبات · وللرعية على حاكمها حقوق ، وله أيضا عليهم حقوق مثلها ، وهكذا وهكذا ·

وقد أبهم الله سبحانه هذا الذى أمر به أن يوصل لأن الحقوق كما قلت متنوعة وتشمل كل العلاقات التي يكون البشر طرفا فيها ، فأطلق سبحانه الحقوق اطلاقا لتشمل حتى علاقتهم بالحيوانات · وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأة دخلت النار في هرة ، لأنها لم تطعمها ولم تتركها تبحث بنفسها عن الطعام ، بل حبستها وجوعتها حتى ماتت ، وعنه صلى الله عليه وسلم ايضا أن على المسلم ، اذا اراد ذبح ذبيحة ، أن يحد شفرته وأن يخفيها عن نظر البهيمة ، وذلك لتقليل فزعها وألمها الى ادنى حد ممكن··· وهلم جرا ·

وفي تركيب العبارة شيء غير عادى ، فالوضع العادى هو :" والذين يصلون ما أمر الله بأن يوصل " ، ولكن الآية بدلا من ايراد العبارة على الترتيب التالي :" الباء + أن + الفعل (يوصل) + الضمير الموجود في

الفعل " قدمت الضمير الذى فى الفعل وأتت به عقب الباء فأصبح ترتيب الكلام هكذا : " الباء + الضمير الذى (كان) فى الفعل + أن + الفعل "· وبهذا اكتسبت العبارة بالتركيب الجديد نكهة جديدة منعشة ·

ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب .

خشية الله هى ملاك الخير كله : بها تصل الحقوق الى أصحابها ، وبها يكف العبد عن ظلم الآخرين ولا يفكر فى أن ينالهم بأى أذى · وليست خشية الله كلمة تدعى ، بل هى عاطفة تغلغلت ورسخت فى الضمير ، وتبدت فى سلوك العبد فصبغت كل تصرفاته · وخشيتهم لربهم هى خوفهم من سوء الحساب ومن أن يعاملهم الله بما فرط منهم لابرحمته وستره ومغفرته ·

وقد ذكرت الآية مع خشيتهم لربهم خوفهم من حسابه ، تأكيدا لهذه العاطفة عندهم ، وان كانت الخشية تزيد على الخوف التوقير والتعظيم ·

والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم .

الصبر هنا مطلق غير محدد ، ومن ثم فهو يشمل كل الوان الصبر فى جميع المواقف والظروف · وليس المقصود بالصبر فى الآية أو فى أى موضع من القرآن الرضا بالهوان والاستسلام للمذلة ، بل الصبر فى الاسلام هو الصبر على المسئوليات الجسام ، والصمود فى وجه العقبات والمعوقات والمثبطات ، مادية كانت أو معنوية ، واستفراغ الوسع كله وعدم الضن بأى جهد او عزم فى سبيل النهوض بالواجب ، واستخلاص الحقوق ، سواء كانت حقوق الشخص نفسه أوحقوق الآخرين مادام فى وسعه أن يساعدهم ·الصبر فى الاسلام هو الصبر الذى فوقه تقام الحضارات وبدونه لا انتاج ولا ابداع · الصبر فى الاسلام هو الصبر فى الحقل حتى تظهر الثمرة باذن ربها مباركة طيبة ، والصبر أمام الآلات فى المصانع ، وعلى المكاتب فى المصالح الحكومية ، وفى قاعات الدرس فى المدارس والجامعات ، وفى ديوان الوزارة لتصريف شئون العباد ، وفى قصر الحكم لمعالجة سياسات البلد والسهر على حلها · وهو صبر الكناس على عناء تنظيف الشوارع ، وصبر الأم فى تربية أولادها وتهيئة عشها لأفراد أسرتها ، وصبر الطالب والطالبة على متاعب الدرس والتحصيل ، وصبر الجندى فى حراسة البيوت والدفاع عن الثغور ، وصبر المؤمن وعدم ضعفه فى مواجهة الباطل ومكره وتربصه ومؤامراته ·

والملاحظ أن الآية هنا قد عدلت عن الفعل المضارع فى صلة الاسمين الموصولين السابقين الى استخدام الفعل الماضى مع الصبر واقامة الصلاة والانفاق مما رزق الله . وفى تفسير هذا العدول قال بعض المفسرين ما معناه أن ذلك على سبيل التفنن فى الفصاحة ، اذ ان كلمة " الذين " هنا هى مبتدأ فى معنى الشرط (يقصدون أنها بمعنى "من " الشرطية) ، والماضى اذا وقع شرطا فانه يشبه المضارع . وهذا علاوة على أنه لما كان الصبر هو أساس الفضائل ، وبدونه لايمكن أن يحافظ الانسان على العهود أو يصل ما أمره الله أن يوصل ... الخ فقد أتى به بصيغة الماضى ، اشارة الى تقدمه عليها (٢٢١) .

ويمكن القول أيضا انه لما كان الصبر واقامة الصلاة والانفاق من رزق الله فى الظروف الصعبة العاتية التى كانت تحيط بالمسلمين والاسلام فى بداية الدعوة لا يقاس به صبر ولا صلاة ولا انفاق فى غيره من الظروف التى لايمكن ان تكون بهذه الصعوبة والعتو فقد اعتبرهم القرآن كأنهم قد أدوا ماعليهم ولم يعودوا مطالبين بشيء من ذلك . وهذا أسلوب من الكلام يقصد به المتكلم الثناء الكبير على مابذل الشخص المخلص من جهد ، وهو يعرف أنه لاخلاصه وتغلغل الاحساس بالواجب فى غور ضميره لن يعد ماقام به نهاية المطاف ، ولن يكف عن مواصلة الجهد والاتيان بأحسن مايستطيع .

وقد يكون قوله : " والذين صبروا " بداية كلام جديد ، فلا تكون الجملة التى فيها الفعل الماضى معطوفة على تلك التى فيها الفعل المضارع ، وبالتالى فلا يكون ثمة عدول من المضارع الى الماضى ، بل يكون المعنى :" ان الذين صبروا ... أولئك لهم عقبى الدار " ، ويكون اعراب هذه الجملة كالتالى :" الواو استئنافية ، و " الذين " مبتدأ ، وصلته " صبروا ابتغاء وجه ربهم " وخبره " أولئك لهم عقبى الدار " (٢٢٢) .

وقد كان صبرهم ابتغاء وجه الله ، لا ابتغاء وجه أحد من المخلوقات . وقد فسر ابن حيان " الوجه " بمعنى " الجهة ، " فـ " ابتغاء وجه الله " عنده هو " ابتغاء جهة الله ، أى الجهة التى تقصد عنده تعالى بالحسنات لتقع عليها المثوبة ، كما تقول : خرج زيد لوجه كذا " (٢٢٣) . أما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فيقول ان المقصود هو " ابتغاء رضاه كأنه فعل فعلا يطلب به اقباله عند لقائه " (٢٢٤) .

ويمكن أن نضيف الى ذلك أن الرضا يظهر أظهر مايظهر فى الوجه ، ومثله فى ذلك سائر المشاعر ، ولذلك استعير له الوجه لعلاقة المحلية . كما يجوز جدا أن يكون المقصود هو أنهم بصبرهم يبتغون رؤية وجهه الكريم يوم القيامة ، على أساس أن ذلك هو منتهى الأمل وأقصى درجات السعادة والنعيم .

هذا وقد أعرب بعض المفسرين " ابتغاء " حالا ، يقصدون تأويلها بـ " مبتغين " (٢٢٥) . والأقوى والأقوم اعرابها كما هى بلا تأويل ، فتكون مفعولا لأجله ، وذلك ما اختاره سائر المفسرين .

وأقاموا الصلاة .

" الصلاة " من " ص ل و " وليست من " و ص ل " كما قد يوحى ما يقال من أن الصلاة صلة بين العبد وربه ، فـ " الصلة " مادتها " و ص ل " ،وهذه غير " ص ل و " ، وان كانت مقلوبها . وفعل الصلاة هو " صلى " ، ومع ذلك فاذا استعمل له مفعول مطلق قيل " صلى صلاة " . ولا يقال :" صلى تصلية " (رغم أن مصدر " فعل " (بالتشديد) اذا كان معتل اللام هو " تفعلة ") ، وذلك لتخصيص" التصلية " لمعنى " الالقاء فى النار " . قال تعالى : " وأما ان كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم " (٢٢٦) . ولم يستعمل القرآن هذه الصيغة بمعنى تأدية الصلاة قط ، وانما يقول دائما : " الصلاة " أو " اقام الصلاة "

والصلاة هى الركن الثانى من أركان الاسلام ، لايسبقها الا الشهادتان ، أى بمجرد اعلان المرء اسلامه يجد نفسه أمام واجب الصلاة . وهى بهذا تسبق غيرها من العبادات فى الاسلام ، فالزكاة والصيام وحج البيت لمن توفر له شرط الاستطاعة كل ذلك يأتى بعدها . وقد وردت عن الرسول عليه السلام أحاديث فى أهميتها ، فهى عماد الدين ، وهى الفيصل بين الكافر والمسلم ، وهكذا .

والقرآن في كثير من المواطن يتحدث عن " اقامة الصلاة " لا مجرد الصلاة ، أى أنه لا يكفى المسلم أن يفعلها على أى وضع والسلام ، بل لابد ان يقيمها ، اى يجعلها مستقيمة معدولة . وهذا يستلزم الاخلاص فيها واليقظة والخشوع . قال تعالى فى حق المنافقين :" واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا "(٢٢٧) . وذكر اول صفات المؤمنين المفلحين أنهم " الذين هم فى صلاتهم خاشعون " (٢٢٨) . كما توعد بالويل " المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون " (٢٢٩).

وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية .

الانفاق فى سبيل الله هو من العلاقات المهمة الدالة على قوة ايمان الشخص. ذلك أن الله سبحانه قد غرز فى فطرة البشر الحب الشديد للمال والتطلع دائما الى المزيد . قال تعالى : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (٢٣٠) . وقال :" وانه لحب الخير (أى المال) لشديد " (٢٣١) . وقال : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث "(٢٣٢) . كما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه لو كان لابن آدم واد من مال لتمنى ثانيا ، ولو كان له ثان لتمنى ثالثا ، وانه لا يملأ عين ابن آدم الا التراب ، اى لا تمتلىء عينه وتشبع نهمته الى المال الا بالموت وامتلاء عينه بالتراب ، وذلك حين يهال عليه التراب فى القبر .

والتعبير بـ " ممارزقناهم " من شأنه أن يسهل على النفسالانخلاع من بعض ما تملك ، اذ هو ينبه الانسان الى أنه ليس مالك المال على الحقيقة بل المالك له هو الله سبحانه ، وها هو ذا الله المالك الحقيقى يطلب منه أن يتنازل عن جزء مما أعطاه لهؤلاء الذين لم يقدر لهم نصيب كاف منه . كما انه يبعث فى قلبه الطمأنينة الى أنه ان خرج عن بعض ما يملك فليس معنى ذلك أنه لن يعوضعنه ، اذ انه مادام الله هو الذى رزقه به فان رزق الله لاينفد ، وكما رزقه من قبل فسوف يرزقه من بعد ، فلا خوف ولا قلق . وقد دعا الرسول عليه السلام للمنفق قائلا :" اللهم أعط منفقا خلفا ، واعط ممسكا تلفا " .

أما التعبير بـ " سرا وعلانية " فمعناه أنهم ينفقون فى كل الأحوال ، ولا يتوخون بالذات أن يكون ذلك بمرأى ومسمع من الناس . وقدم " السر " على " العلانية " ايحاء بأنهم ينفقون ابتغاء رضوان الله ، ولذلك فهم يفضلون أن يكون انفاقهم سرا ، الا اذا دعا داع الى العلانية ، وان لم يكن فى العلانية أى حرج مادامت النية خالصة . قال تعالى :" ان تبدو الصدقات فنعما هى . وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم " (٢٣٣) . كذلك فالانفاق سرا ، الى جانب دلالته على خلوص نية المنفق ، من شأنه المحافظة على مشاعر المنفق عليه . وجاء فى أحد أحاديث الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام فى فضل الانفاق سرا أن من السبعة الذين يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لاظل الا ظله رجلا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما انفقت يمينه .

وقد ذكر بعضالمفسرين أن " السر " يراد به النوافل ، و " العلانية " يراد بها الواجب . بل ان بعضهم قد رأى ان كلا السر والعلانية فى الزكاة المفروضة ، فالسر اذا لم يتهم الشخص بترك أداء الزكاة ، والعلانية اذا خاف اتهامه بذلك (٢٣٤) . لكن هل كانت الزكاة قد فرضت فى مكة ؟ ذلك أن السورة كما انتيهينا من قبل مكية ، وليس فى هذه الآية ما يدل على أنها نزلت فى المدينة . وخيرا فعل ابن كثير حين أخذ الكلام على اطلاقه ، ولم يفرق فيه بين النافلة والواجب . وهذه عبارته :" اى فى السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار " (٢٣٥) .

ولا شك أن عبارة " سرا وعلانية " تتحدث مع قوله تعالى فى نفسالسورة :" الغيب والشهادة " و " من أسر القول ومن جهر به " و " مستخف بالليل وسارب بالنهار " مايحدثه الصوت وأصداؤه ، اذ كلها تتحدث عن نفسالمعنى ، وان كان ذلك بالفاظ مختلفة .وهذا يضفى على السورة وحدة وتماسكا . كما أن سبق النص فى السورة على أن الله يعلم السر والجهر من شأنه أن يطمئن المنفق أن الله عليم بما ينفقه سرا كان ذلك أو علانية .

كذلك ففي التعبير ب " سرا وعلانية " طباق قصد به الشمول ، اى انهم ينفقون في كل الأحوال • ونظائر هذا الطباق الشمولى العبارات التالية : " صباح مساء " و " ليل نهار " و " سرا وجهرا " و " من بين يديه ومن خلفه " و " من قمة رأسه الى أخمص قدميه " و " من اقصاها الى ادناها" ••• الخ •

والآن ما اعراب " سرا وعلانية " " ؟

بعضهم نصبه على نزع الخافض ، يقصد أن أصل الكلام : " في سر وعلانية " ، ثم حذفت " في " فانتصب المجروران • وبعضهم يقول انها حال ومعطوفة ، بمعنى " مسرين ومعلنين " (٢٣٧) • وفي رايي انه يمكن اعرابها أيضا مفعولا مطلقا لفعل محذوف ، وتقدير الكلام :" انفقوا مما رزقناهم (يسرون ذلك) سرا و (يعلنونه) علانية " ، أو وصفا لمفعول مطلق محذوف ، والتقدير " ينفقون (انفاقا) سرا و (انفاقا) علانية " • والمعروف أن المصدر قد يأتي صفة ، مثل " رجل عدل " ، وعلى هذا فالمصدران " سرا " و " علانية " على هذا التقدير هما وصفان لمفعولين مطلقين محذوفين •

ويدراون بالحسنة السيئة .

" الدره " هو الابعاد • وقد يكون المعنى انهم يدفعون سيئة من يسيء اليهم بالحسنة من جانبهم ، وذلك كما في قوله تعالى :" ولا تستوى الحسنة ولا السيئة • ادفع بالتي هي احسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم " (٢٣٨) • وقد يكون المعنى أنهم يعفون على السيئات التى قد تبدر منهم بما يعملون من حسنات ، وهو ماقاله القرآن الكريم في موضع آخر منه :" واقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات " (٢٣٩) • وقد يكون معنى الآية هو هذا وذاك معا ، وهو ما أميل اليه ، اذ مادام النص يقبل عدة معان من غير قسر ولا تلاعب بالكلام ، وبلا أى تناقض بين أى منها وبين روح القرآن فينبغي الا يقصر تفسيره على بعضها دون بعض•

وفي تقديم " الحسنة " على " السيئة " قصر ، اى انهم لايدراون السيئة الا بالحسنة•

وكما قلنا في " سرا وعلانية " نقول في " الحسنة " و " السيئة " فانهما يتناغمان مع ما ورد في السورة من مشتقات " الحسن " و " السوء " وهاهي ذى :

" ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة " (٢٤٠) •

" واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له " (٢٤١)•

" للذين استجابوا لربهم الحسنى • والذين لم يستجيبوا له ••• أولئك لهم سوء الحساب " (٢٤٢) •

" ويخافون سوء الحساب " (٢٤٣) •

" والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ••• أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار * ••• الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب " (٢٤٤) •

أولئك لهم عقبى الدار .

المقصود بـ " عقبى الدار " هو الجنة ، على حسب ما وضحت الآية التالية ، اذ الكلام يجرى هكذا : " أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن ••• " ، فـ " جنات عدن " بدل من " عقبى الدار " • وقد جاء في كلام الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور أنه قد اشتهر استعمالها في آخرة الخير • كما يفهم منه أن يشرك معها في هذا الحكم كلمة " العاقبة " • ونحن اذا رجعنا الى النصوص القرآنية المستعملة فيها هاتان اللفظتان نجد أن كلمة " عقبى " قد وردت في القرآن ست مرات : اربعا للدلالة على عاقبة المتقين (٢٤٥) ، واثنتين لعاقبة الكفار : مرة في الآخرة (٢٤٦) ، ومرة في الدنيا (٢٤٧) • وأما" عاقبة " فقد تكرر استعمالها اثنتين وثلاثين مرة : مرتين في الاشارة الى أن مرجع الأمور الى الله سبحانه :" ولله عاقبة الأمور " ، وست مرات في " عاقبة المؤمنين " ، مقابل أربع وعشرين في عاقبة الكفار ، في الدنيا في معظم الأحوال • ومع ذلك فان " العاقبة " اذا ذكرت في القرآن الكريم مطلقة من غير اضافتها الى شيء أو احد كان معناها " الجنة " كما قال

الألوسي .

ومما يتعلق بهذه الكلمة أيضا أنها قد تكررت في السورة التي بين يدينا خمس مرات (٢٤٨) ، كما تكررت الألفاظ المشتقة من نفس المادة (مادة " ع ق ب ") أربع مرات (٢٤٩) .وتردد كلمة ما ومشتقاتها على هذا النحو في سورة من سور القرآن يحدث ، كما قلت سلفا ، مايشبه تجاوب الأصداء . كما أنه يضفي على السورة نوعا من التماسك يشترك مع العوامل الأخرى في خلع الوحدة عليها .

وقد فسر الزمخشري ، ومثله القرطبي في أحد الآراء التي أوردها ، وغيرهما " الدار" بأنها الدنيا ، يريدون أن يقولوا ان الجنة هي " عقبى الدنيا " بالنسبة للمؤمنين ، أي تعقبها . ولكني تقصيت استعمال كلمة " دار " في القرآن (وقد أتت فيه٣٢ مرة) ، فلم أجده استخدمها قط في معنى " الدنيا " . انما استخدمها بمعنى " الدار الآخرة " أحيانا ، وأحيانا بمعنى " الجنة " أو " النار " ، وأحيانا ثالثة بمعنى " البلاد " ، وفي أحيان أخرى يوردها ضمن هذا التعبير : " عقبى الدار " مما لا تحديد فيه ، وهو مايحتاج الى أن نبحث عن معناه : ونظرا لكون القرآن لم يستخدمها قط للدنيا على عكس استخدامه لها كثيرا للآخرة والجنة فاني لا أوافق على تفسيرها بالدنيا . بل التعبير كله يدل على الجنة .

وفي تركيب الجملة هنا ما يفيد أن " عقبى الدار " (وهي " جنات عدن " كما قلنا) مقصورة على المؤمنين ، الذين فصلت الآيات السابقة صفاتهم وأخلاقهم . ذلك أن الجملة مكونة من مبتدأ (هو " أولئك ") وخبر (هو جملة " لهم عقبى الدار " الاسمية) ، وقد تقدم الخبر في جملة الخبر الاسمية(وهو " لهم ") على مبتدئه (عقبى الدار) ، فهذا التقديم يدل على انحصار " عقبى الدار " فيهم واختصاصها بهم .

جنات عدن .

" عدن " هي الاقامة (الدائمة) ، فجنات عدن اذن على هذا التفسير هي جنات الخلد. كما جاء في بعض التفسيرات أنها جنات مخصوصة لها تميز على غيرها ، لايدخلها الا من نصت عليهم الآيات السابقة وأمثالهم .

والملاحظ أن كلمة " عدن " لم تأت في القرآن الا مع كلمة " جنات " (١١مرة) ، فلم تأت وحدها ، كما لم تأت مع المفرد " جنة " البتة . أما كلمة " جنات " فقد انفكت عنها في مواضع كثيرة ، موصوفة بجملة " تجري من تحتها الأنهار " في غالب الأحوال ، أو مضافة الى كلمة " النعيم " أو " الفردوس " أو " المأوى " ، وهو الأقل . أما حين تأتي غير موصوفة ولا مضافة (وقد تكرر ذلك عدة مرات) فيقصد بها أحيانا جنات الدنيا (الحدائق) ، وأحيانا جنات الآخرة .

يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .

ورد هذا المعنى أيضا في سورة "غافر" ، ولكن على هيئة دعاء من الملائكة للذين آمنوا :" ربنا ، وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم " (٢٥٠). أما في سورة " الطور " فقد اقتصر الكلام على " الذرية " فقط ، ولم يذكر الآباء ولا الأزواج : والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم " (٢٥١) . ولم يحدث أن ذكر " الاخوة " ضمن هذا الوعد ، كما ذكر الآباء والأزواج والذرية . وقد تساءلت : هل لأن العداوة قد تفسد مابين الاخوة من صلات الرحم كما حدث بين ابن آدم وأخيه من غيرة انتهت بأن قتله ، وكذلك ماكان بين يوسف واخوته وحسدهم اياه لما ظنوه من تفضيل أبيهم اياه عليهم وكيف ألقوه في الجب ... الخ ، على عكس ماقال تعالى في البنين :" المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (٢٥٢) ، و " وزين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة ..." ؟ (٢٥٣) .

ولكني تذكرت في الناحية المقابلة موقف والد ابراهيم عليه السلام ، وكراهيته له بسبب ثورته على الأصنام ، وتهديده اياه قائلا : " لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرني مليا" (٢٥٤) ، وكذلك قوله تعالى :" يا

ايها الذين آمنوا ، ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم " (٢٥٥) وألفيتنى أقف وأسلم الأمر لله تعالى فى الحكمة وراء ذكر الآباء والذرية والأزواج دون الاخوة فى الوعد والدعاء بادخالهم الجنة مع ذويهم ان صلحوا • واذا قلنا ان غريزة الأبوة تملى على الآباء المؤمنين الانشغال بمصير أبنائهم فى الآخرة ، فماذا نقول فى ادخال الأزواج والآباء فى هذا الوعد الالهى وليست هناك غريزة بنوة ولا غريزة زوجية ؟ مرة أخرى لا أجد أحسن من تفويض الأمر الى الله سبحانه •

وينبغى التنبيه الى أن القرآن لم يعد بادخال الذرية والأزواج والآباء الجنة بدون شرط ، وانما وعد أن يدخل الصالحين منهم • صحيح أنه تعالى غفور رحيم ، ورحمته سبقت غضبه ، بل رحمته وسعت كل شىء ، وانه يغفر الذنوب جميعا ، بيد أن النص فى الآية على الصلاح من شأنه تحفيز المؤمن الى بذل جهده فى تربية أبنائه وتوجيه زوجته وهدايتهم والحرص على نجاة أبيه ، الذى قد يمثل القديم البالى والاستمساك به استمساكا لايخلو من العناد والتصلب فى كثير من الأحيان ، وذلك كما فى حالة عبد الله ابن أبى سلول زعيم المنافقين وموقفه العدائى من الاسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ، على عكس ابنه ، الذى كان مثالا للاخلاص والتفانى فى النصح لله ولرسوله وللمؤمنين • ومثلهما فى ذلك أبو عامر الراهب ، أحد الأعداء الألداء لله ورسوله ، وابنه حنظلة ، الذى استشهد فى ذات الغزوة (غزوة أحد) التى كان أبوه فيها على رأس المحرضين ضد الاسلام ، والذى غسلته الملائكة بعد استشهاده ، اذ كان الخروج للجهاد فى سبيل الله فى تلك المعركة قد اعجله عن الاغتسال ، رضى الله عنه ، وسمى لذلك " غسيل الملائكة " ! واذا كان الأبوان فى هذين المثالين قد بقيا على كفرهما صراحة أو استتارا ، فان أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قد ظل وراء أبيه ، وكان شيخا كبيرا ، يدعوه الى الدخول فى الاسلام ، حتى نجح •

ونأتى الآن الى اعراب " الواو " فى " ومن صلح من آبائهم ••• " • وقد ذكر أبو البقاء العكبرى أنها واو عطف ، أى أن " من صلح " على هذا الاعراب معطوفة على الواو فى " يدخلون " ، وان كان قد جوز اعرابها أيضا واو معية (٢٥٦) • وهذا يعنى أنه ، وان جاز عنده أن تكون " الواو " للمعية ، كان يفضل اعرابها عاطفة • وبغض النظر عن أن النحويين يفضلون فى مثل التركيب الذى بين ايدينا والذى لم تؤكد فيه " واو الجماعة " (فى " يدخلون ") بضمير منفصل (فيكون الكلام : " يدخلونها هم ومن صلح من آبائهم ••• ") فاننا فى اعرابنا لهذه الواو ينبغى أن ننظر الى مايحقق المعنى الذى نعتقد أن الآية تريد توصيله الينا مما يتسق مع كرم الله ولطائفه واتجاه السياق وروح الاسلام • وعلى هذا فاننا نجعلها " واو معية " حتى يكون المعنى " يدخلونها مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم " ، لا أنهم "يدخلونها كما دخلها هؤلاء " من غير أن يكون الدخول معا صحبة ، مما من شأنه أن يضاعف مسرتهم بدخولها ، اذ ان " واو العطف" تفيد مطلق الجمع ، أى تفيد ان هؤلاء وأولئك يدخلونها ، ولكنها لاتحدد الوقت الذى يدخلها فيه كل فريق • أما " واو المعية " فانها كما قلت تفيد الصحبة ، اى أن هؤلاء جميعا يدخلون الجنة معا فى نفس الوقت •

والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . " سلام عليكم بما صبرتم ••• " .

لاحظ التكريم الذى خصتهم الألطاف الالهية به ، فهم يبقون حيث هم من الجنة ، والملائكة هم الذين يأتونهم • فأى تكريم هذا ! على أن هذا ليس كل شىء ، بل كلما دخلوا عليهم بدأوهم بالتحية ، وذكروهم باستحقاقهم المنزلة المكرمة التى صاروا اليها ، وهو ما يزيدهم سرورا وحبورا ورضا •

وقد ذكر المفسرون فى قوله تعالى : " من كل باب " أنه كل باب من أبواب الجنة ، أو أنه كل باب من أبواب القصور التى يسكنونها • ولكن مادامت الآية قد أطلقت القول ولم تعين ، وليس فى السياق مايدل على المقصود بهذه الأبواب ، فلنقل ان المراد هو كل باب هناك : يشمل ذلك أبواب الجنة وأبواب قصورها وغرفها وأى مكان يكون أهل الجنة فيه •

وجملة " سلام عليكم بما صبرتم " هى مفعول لمحذوف تقديره " قائلين لهم " أو نحوه• وكثيرا

مايحدث هذا الحذف في القرآن ، وفيه عدول عن الطرق المدوسة الى طرق أخرى لم تألفها النفس فتكون لذلك متنبهة لكل مافيها من معان ٠ وهذا شأن أسلوب القرآن في الكثير من المواطن ، فعبقة عبق خاص ٠

وقد تكررت التحية بـ " السلام " كثيرا في القرآن ، في الدنيا والآخرة ٠ كما وردت " سلام " مرفوعة ومنصوبة ٠ وقد لاحظت ملاحظتين أسلوبتين : الأولى ، أن شبه الجملة " عليكم " ((أو " على فلان") لم يأت البتة مع " سلام " اذا كانت منصوبة (وقد وردت منصوبة ثماني مرات) ٠ أما " سلام " المرفوعة فالأغلب أن يصحبها شبه الجملة هذا ، وأحيانا لايأتي معها ، وهو نادر ٠ والثانية ، أن كلمة " سلام " كتحية لم ترد في القرآن الا منكرة ، اللهم الا مرة واحدة ، وكان ذلك مع " سلام " المرفوعة لا المنصوبة ٠

و " السلام : " هو غاية الغايات البشرية الروحية ، اذ معه تنتفي المخاوف والقلق والحقد والضغينة والألم والتطلع الى مافي أيدي الآخرين والشعور بالنقص والهوان ، ويحل الاحساس بالأمن والرضا والسعادة وسكينة النفس والشبع ٠ وينبغي ألا ننسى أن من أسماء الجنة في القرآن " دار السلام " (٢٥٧) ، وأن من أسماء الله الحسنى أيضا " السلام " (٢٥٨) ، أي أن الملائكة تدخل ب " سلام " من عند " السلام" على المقيمين بـ " دار السلام " ، فالجو كله " سلام في سلام " !

واللافت للنظر أن الملائكة حين ذكرت استحقاق المؤمنين للسلام لم تذكر الا الصبر : " بما صبرتم " ، مما يدل على أن ملاك الأمر هو الصبر ، أي أنه حتى في الايمان نجد الأمر متوقفا على الصبر : الصبر على البحث عن الحقيقة وعلى مغالبة العادات والتقاليد وموروثات العقائد وتيار البيئة المعادي العارم ٠ وكذلك بعد حصول الايمان يظل الانسان محتاجا الى الصبر كما سبق أن وضحت في تفسير الآية الثانية والعشرين من السورة ٠

ولما كان القرآن لم يحدد الذي صبر هؤلاء المؤمنون عليه فينبغي أن نفهمه على اطلاقه ، كما فعلنا في تفسيرنا له في هذه الآية وفي الآية الثانية والعشرين ، ولا داعي لحصره في " الصبر على الفقر " أو " الصبر على فضول الدنيا " أو ما الى ذلك مما قصره عليه بعض من تصدروا لتفسير الآية (٢٥٩) ٠

... فنعم عقبى الدار " .

انتهت الآية قبل السابقة بـ " أولئك لهم عقبى الدار " ، وجاءت نهاية هذه الآية لتعقب على هذا الجزاء الذي هو " عقبى الدار " .

ولعل القارىء قد لاحظ من طريقة ترقيمي لعبارة " سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " ووضعها كلها بين علامتي تنصيص أنني قد جعلتها جميعا كلام الملائكة ، وهو ماوجدت المفسرين قد جروا عليه . ومع هذا فقد يكون هذا التعقيب هو كلام رب العزة ، بمعنى أنه سبحانه بعد أن حكى ما سيصير اليه الذين استجابوا لدعوة الحق من دخولهم جنات عدن ودخول الملائكة عليهم من كل باب بتحية السلام ، عقب عز وجل بأن هذه العاقبة هي " نعم عقبى الدار " ، وذلك كما يفعل الواحد منا حين يقص قصة وبعد ان يفرغ منها يعلق بعبارة تعكس رايه في القصة والعبرة منها .

" ونعم " مشتقة من نفس المادة المشتق منها " النعيم " و " النعمة " ، ومن هنا استخدامها في الثناء على الشخص او الشيء والاعجاب به والتعبير عن الرضا عنه وحبه . وعكسها " بئس " المشتقة من " البؤس " و " البأس " أى الحرمان والشدة والتضييق . وكلتاهما قد وردت غير مسبوقة بحرف ، أو مسبوقة بالواو ، أو الفاء ، أو الواو واللام معا ، أو بالفاء واللام كلتيهما (هكذا : " نعم - بئس / ونعم - وبئس / فنعم - فبئس / ولنعم - ولبئس/ فلنعم - فلبئس "). ولكنهما تختلفان فيما يعقبهما من كلمات ، فمثلا كلمة "المصير " أو " المهاد " أو " مثوى " أو " قرار " أو " دار " لم تعقب قط " نعم " ، على حين جاءت كل منها بعد " بئس " عدة مرات . أما كلمة " أجر " فلم تأت الا بعد " نعم " ، وهو منطقي ، لان الأجر من الله سبحانه ، ولا يمكن أن يذم ، لانه سبحانه ان لم يرحم ويعف ويضاعف الأجر فانه لن يبخس احدا من خلقه حقه ، وبالتالي فلا يمكن أن يعاب مايعطيه لهم من أجر . ومثلها كلمة "الثواب "وان كانت لم تأت بعد " نعم " الا مرة واحدة . ومن الكلمات التي لم تأت الا بعد " نعم " كلمة " العبد " . وقد وردت بعدها مرتين : الأولى في الثناء على داود عليه السلام (٢٦٠) ، والثانية في أيوب عليه السلام (٢٦١) . وفي كل مرة تقريبا من المرات التي استخدم القرآن فيها " نعم " و " بئس " حذف المبتدأ . مثال ذلك قوله تعالى :" ولقد نادانا نوح ، فلنعم المجيبون " (٢٦٢) ، اذ لم يقل : " فلنعم المجيبون نحن " ، كذلك قوله :" جهنم يصلونها ، وبئس القرار " (٢٦٣) ، ولو لم يحذف المبتدأ لقيل : " وبئس القرار هي " . وهذه من اختصارات القرآن التي كثيرا مايجرى عليها تحاشيا للفضول . وللحذف هنا ، الى جانب ذلك ، غرض موسيقي ، لأن الآيات لو انتهت بضمير لكانت الفاصلة لا تتمشى مع بقية الفواصل ، فضلا عن أنه ليس في القرآن فاصلة من ضمير منفصل .

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماامر الله به ان يوصل ويفسدون في الأرض اولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار .

ذكر هنا عكس بعض الصفات التي ذكرها لأولي الالباب . لقد ذكر في مقابل " الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق " : " الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه " ، وان كان قد غير تركيب الكلام بالحذف والزيادة والتقديم والتأخير ...الخ لينعش الذهن ، اذ فاجأه بغير ماكان يتوقع واستنام اليه . وذكر في مقابل " الذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل " : " يقطعون ماأمر الله به أن يوصل ". وقد احتفظت الجملة هنا بنفس تركيب الجملة هناك ، ماعدا أن الاسم الموصول قد حذف . ثم ذكر " ويفسدون في الأرض" ، وليس لها مقابل هناك . كما انه ذكر هناك " ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، واقاموا الصلاة ، وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدراون بالحسنة السيئة " وليس لذلك مقابل هنا . ومع ذلك فان وصف " اولى الألباب " بأنهم " يدراون بالحسنة السيئة " يقابل وصف الكافرين في أوائل السورة بأنهم " يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ". ان المؤمنين يردون على من يسيء اليهم بالاحسان (واذا أساوا أتبعوا السيئة بالحسنة) ، اما الكافرون فانهم لايسيئون فحسب الى المؤمنين الذين لايسيئون اليهم ،

بل يستعجلون السيئة لأنفسهم ، اذ بدلا من أن ينظروا فيما آتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ويحكموا عقولهم فيه نراهم يستعجلون العذاب الذى هدد الله به كل كافر عنيد • انهم يسيئون الى انفسهم والى الآخرين •

ونقض الكافرين أى عهد يقطعونه على أنفسهم بعد أن أشهدوا الله عليه هو نتيجة كفرهم وسفاهتهم ، فهم لايبالون بحرمة العهد ، لأن كفرهم وكراهيتهم للاسلام ونبيه يفقدانهم عقلهم ويسهيهم عما تقضى به المروءة • وربما كان فى الآية اشارة الى أفراد ارتدوا فى مكة ، ونقضوا ماعاهدوا الله ورسوله عليه فى دخولهم الاسلام •وهناك من يرى أن هذه الآية فى أهل الكتاب (اليهود ؟) (٢٦٤) •

كذلك ففى قوله :" ويقطعون ماأمر الله به ان يوصل " عدم تحديد كما فى قوله " والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل " • وعلى هذا فلا داعى لحصرها فى شىء بعينه • ويدخل فى ذلك انتهاكهم لما كان يربط بينهم وبين الرسول عليه السلام من صلات الرحم ، مما أشار اليه القرآن فى أمره سبحانه رسوله عليه السلام أن يقول لهم : " لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى " (٢٦٥) ، وكذلك انتهاكهم كل صلة من صلات القربى الأسرية والانسانية فى تعذيبهم للمسلمين لدرجة القتل احيانا وحصارهم اياهم فى شعب أبى طالب بغية تجويعهم وتحطيم معنوياتهم وتركيعهم أو افنائهم •

و " الافساد فى الأرض " هو أيضا لم تحدده الآية ، وبالتالى فكل عمل من شأنه الاساءة الى النفس او الى الآخرين ، سواء من البشر أو العجماوات يدخل تحته • فالعناد وركوب الرأس بالباطل وعدم مراجعة العقائد الفاسدة التى ورثها الانسان عن مجتمعه افساد فى الأرض، ومحادة الرسول رغم تلألؤ دلائل صدقه وخيرية رسالته افساد فى الأرض ، والتآمر عليه وعلى اتباعه وتعذيبهم افساد فى الأرض، وتبتيك آذان الأنعام أوفقء عيونها أو تكتيفها عند قبر الميت وتركها تموت جوعا اتباعا لعقائد الوثنية وخرافاتها الفظة افساد فى الأرض• ومنه تبييت النية على قتل النبى عليه السلام واخراج المسلمين من ديارهم وأموالهم لا لذنب جنوه ، بل لمجرد اختلافهم عنهم فى الدين (وان كان هذا قد وقع فى أواخر العهد المكى ، أى بعد نزول السورة) •••وهكذا ، وهكذا •

و "اللعنة " هى الطرد من رحمة الله • و " سوء الدار " تقابل " عقبى الدار " ، التى رأينا أن أفضل تفسير لها هو الجنة ، فـ " سوا الدار " اذن هو النار •

ويلاحظ أنه فى الوقت الذى فصلت الآيات القول نسبيا فى صفات المؤمنين ومصيرهم نراها قد أوجزت ذلك بالنسبة للكافرين ، وبخاصة فى الحديث عن المصير •

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر •

تقديم لفظة الجلالة يدل على القصر ، أى هو لاغيره ، وهو وحده ، الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر • و " يقدر الرزق " معناه يضيقه •

وهذه العبارة لم ترد الا فى القرآن المكى (٢٦٦) ، مما يدل على أنها تصف حال المسلمين والكافرين ، فقد كان الأولون بعامة ضعفاء فقراء ، والآخرون هم كبار القوم ومشاهير تجارهم وأصحاب الأموال فيهم ، وكانت كثرة أموالهم تطغيهم وتساعدهم على الاساءة الى المسلمين • وقد تحدث القرآن أكثر من مرة عن هذا الوضع :

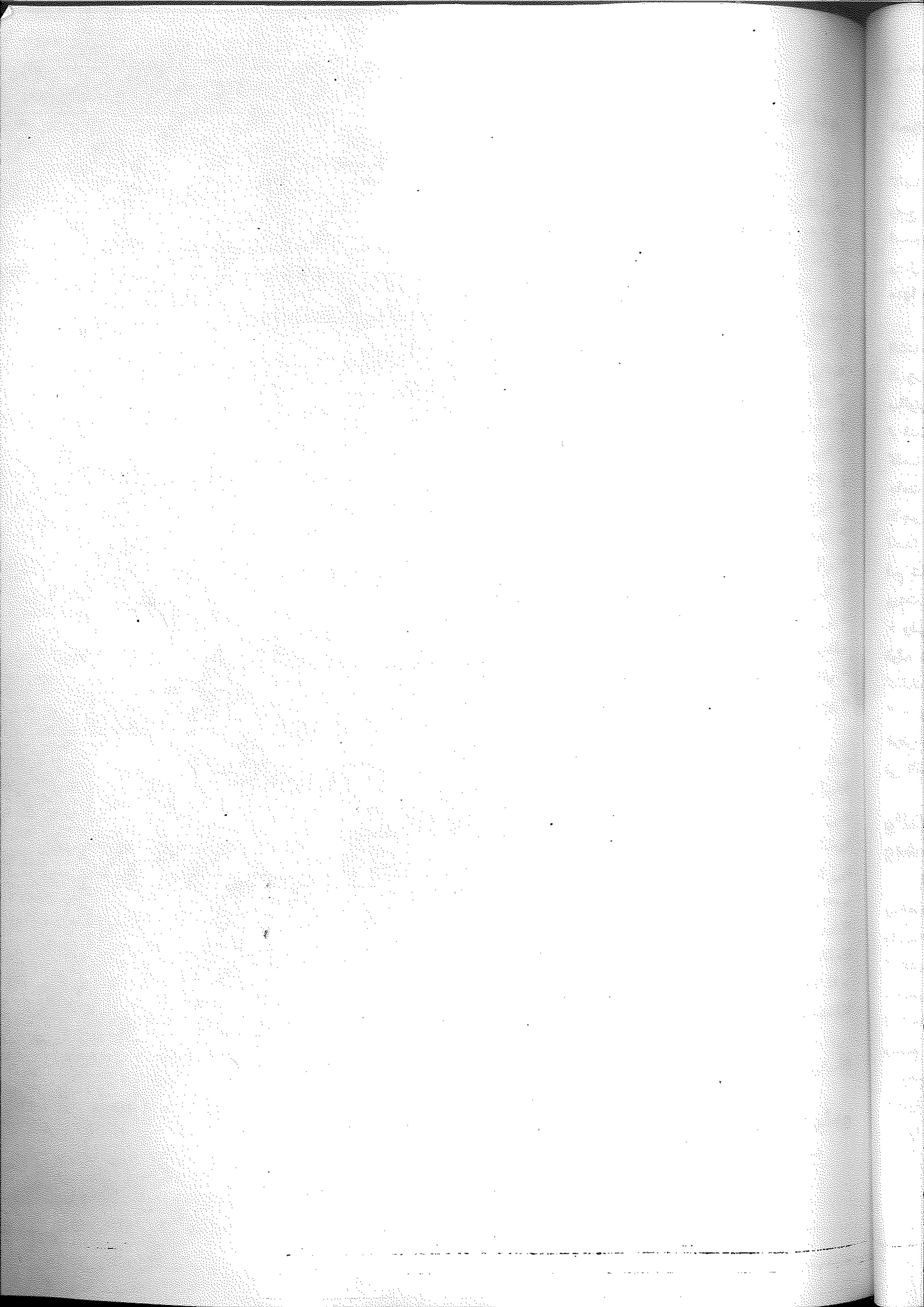
" كلا ، ان الانسان ليطغى * أن رآه استغنى " (٢٦٧) •

" وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " (٢٦٨) •

" وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين " (٢٦٩) •

" واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ " (٢٧٠) •

" فقال الملأ الذين كفروا من قومه (من قوم نوح) : مانراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم



أراذلنا بادى الرأى " (٢٧١)٠

" واذا قيل لهم : انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله اطعمه ؟ " (٢٧٢) ٠

والآية تقول ان الحياة متقلبة ، واتساع الرزق أو ضيقه ليس ضربة لازب ، بل غنى اليوم قد يكون فقير الغد ، والعكس بالعكس ٠ وعلى هذا فالمسلمون اذا كانوا فقراء ضعفاء الآن فان الذى رزق الكفار ووسع عليهم وأغناهم يمكن أن يخلع عنهم ثوب الغنى ويلبسهم أسمال الفقر ٠ وقد شهدت حياة المسلمين تحولا هائلا بعد الهجرة ، اذ أعزهم الله بعد ذل ، وكثرهم بعد قلة ، وقواهم وقدرهم بعد ضعف ، وأغناهم بعد حاجة وفقر ، وجرت الأموال أنهارا فى أيديهم ، وفتحت لهم الدنيا ودانت ، وأضحوا سادة امبراطورية منبسطة الأطراف ٠ والآية اذن طمأنة للمسلمين وتسكين لفؤادهم ، وتهديد خفى للكافرين ٠

وفرحوا بالحياة الدنيا .

" الدنيا " مؤنث " الأدنى " بمعنى " الأقل " ٠ قال تعالى :

" أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ " (٢٧٣) ٠

" ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر " (٢٧٤) ٠

" ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو معهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا ادنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم اينما كانوا " (٢٧٥)٠

" ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه " (٢٧٦) ٠

ومما قال القرآن فى تقليل قيمة الدنيا والتهوين من شأنها :

" وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور " (٢٧٧) ٠

" قل : متاع الدنيا قليل ٠ والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا " (٢٧٨)٠

" وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو " (٢٧٩) ٠

" فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل " (٢٨٠) ٠

" واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذره الرياح " (٢٨١) ٠

" ياقوم ، انما هذه الحياة الدنيا متاع " (٢٨٢) ٠

" بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى " (٢٨٣) ٠

واذا كانت الدنيا فى جنب الآخرة بهذه القلة والضآلة فالفرح بها مذموم ، وهو دليل على قصر النظر ٠ ومن ثم نرى بقية الآية تقول :" وما الحياة الدنيا فى الآخرة الامتاع " ٠

هذا عن " الدنيا " ٠ أما عن " الفرح " فالملاحظ أنه فى معظم المرات الاثنتين والعشرين التى ورد فيها هو أو أى مشتق من مشتقاته فى القرآن كان وروده فى معرض الذم والسخرية من الفرح والفرحين ، لأنه دليل على عماهم وانطماس بصائرهم ٠ وهذه بعض الشواهد :

" فرح المخلفون (فى غزوة " العسرة ") بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ٠ وقالوا : لاتنفروا فى الحر ٠ قل : نار جهنم اشد حرا ، لو كانوا يفقهون " (٢٨٤) ٠

" حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف " (٢٨٥) ٠

" اذ قال له (أى " لقارون ") قومه : لاتفرح ٠ ان الله لايحب الفرحين " (٢٨٦) ٠

" لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب " (٢٨٧) ٠

" فتقطعوا أمرهم بينهم زمرا ، كل حزب بما لديهم فرحون " (٢٨٨) ٠

وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع .

" متاع " معناها :" متاع قليل سرعان مايزول " ، أى أن الأمر ليس مقصورا على تقلبات الحياة الدنيا وامكان اغتناء المسلمين بعد فقر وعزهم بعد ضعف وذل ، بل حتى لو ظل الكفار ، افتراضا ، موسعا عليهم فى الرزق ، وبقى المسلمون بعامة فقراء ، فينبغى الا يحزن هؤلاء أو يطغى أولئك ، فان الدنيا عرض زائل لابقاء لها ، وهى فى جنب الآخرة لاشىء ، تلك الآخرة التى كتبها الله للمؤمنين المطيعين ، وحرم نعيمها وراحتها على الكافرين .

وقد وردت مشتقات مادة " م ت ع " فى القرآن (متع ، يمتع ، تمتع ، يتمتع ، تمتع ، استمتع ، متاع ، أمتعة) سبعين مرة . وفى معظم هذه المرات السبعين نجده قد استخدمها فى معرض التهوين والتحقير ، مع الاشارة فى كثير من الحالات الى أن ذلك زائل ، ثم يعقبها التهديد بالعذاب ، من مثل قوله تعالى :

" ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى " (٢٨٩) .

" افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ، ثم هو يوم القيامة من المحضرين " (٢٩٠) .

" افرايت ان متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما اغنى عنهم ماكانوا يمتعون ؟ " (٢٩١) .

" نمتعهم متاعا قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ " (٢٩٢) .

" والذين كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الأنعام ، والنار مثوى لهم "(٢٩٣) .

" كلوا وتمتعوا قليلا ، انكم مجرمون " (٢٩٤) .

" ويوم يعرضوا الذين كفروا على النار : اذهبتهم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون " (٢٩٥) .

" ياقوم ، انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار " (٢٩٦) .

" وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور " (٢٩٧) .

من هذا كله نخلص الى أن القرآن باشارته الى " فرح " الكفار بـ " متاع " الحياة " الدنيا " مستخدما هذه الألفاظ الثلاثة :" فرحوا ، متاع ، الدنيا " ، التى رأينا من واقع استقصاء المواضع التى وردت فيها فى القرآن والسياقات التى استخدمت فيها مدى هوانها فى نظره ، انما يريد تحقير مافى أيديهم مما يظنونه كل شىء ، وتأكيد أن الحسرة والعذاب فى انتظارهم . فاذا اضفنا الى هذا أسلوب القصر الذى عبرت به الآية عن قيمة الحياة الدنيا : " ما ... الا " ، وكذلك استعمال حرف الجر " فى " (فى قوله " ... الحياة الدنيا فى الآخرة ...") للمقارنة بين الدنيا والآخرة ، هذا الحرف الذى يدل على الظرفية ، بمعنى أن مابعده يحتوى على ما قبله احتواء المكان لمايحل فيه ، تبين لنا مدى تفاهة الدنيا بالنسبة للآخرة . أما محيى الدين الدرويش فقد نفى أن تكون " فى " هنا للظرفية ، وحجته أن الدنيا لاتكون " فى " الآخرة ، وقال انها للمقايسة ، أى المقارنة (٢٩٨) . اننا لا ننفى أنها للمقارنة ، ولكن المقارنة قد تحققت من خلال ظرفيتها ، اذ ان اعرابها ظرفا يعطينا هذه النكتة البلاغية الأسلوبية التى أشرت اليها ، والتى لو رفضنا ظرفية " فى " لفاتتنا ، وأصبح الكلام عندئذ كلاما عاديا مسطحا .

وغنى عن البيان أن " الظرفية " التى نقول بها ليست حقيقية بل مجازية . أما تحكيم قواعد النحو فى الأساليب الأدبية فقد يقتلها ، وبخاصة مع أسلوب القرآن الحى النضر الذى هو أكبر من قواعد النحو الجامدة .

ويقول الذين كفروا . " لولا انزل عليه آية من ربه ".

سبق أن قال تعالى فى نفس السورة (الآية /٧) هذه العبارة بنصها ، وها نحن أولاء فى الآية السابعة

والعشرين • فلو نظرنا الى الوراء لنرى ما الذى تناولته الآيات السابقة لرأينا أنها أكدت أن النبى ليس الا منذرا للكفار بما ينتظرهم من عقاب صارم ان أصروا على عنادهم وكفرهم وطغيانهم ، وان كان الأنضل لهم أن يهتدوا بالهداية التى أتاهم عليه الصلاة والسلام بها ، وأنه سبحانه محيط بكل شيء علما ، وأنهم اذا كانوا محفوظين الآن من العقاب فانما ذلك بحفظ الله وامره ، وان الرعد الذى يجلجل فيالآفاق ويلقى الرعب فى القلوب يسبحه تعالى ويحمده ، وان الملائكة المقربين يسبحونه خوفا ، وأن الصواعق هى خلق من خلقه يسلطها على من يشاء ، وأن الذين يكفرون بدعوة الحق التى أرسل بها رسوله ويستمسكون بعبادة الأحجار والأخشاب انما هم حمقى ينتظرون العون ممن لا عون عنده بل لايستطيع أن يعين نفسه ، وأن الكائنات كلها تسجد له ، ان لم يكن بلسان الحال والمقال فبلسان الحال ، وان الكافر والمؤمن انما هما كالأعمى والبصير ، وكالزبد التافه والماء النافع الذى هو أصل الحياة وسرها ، وان المؤمنين ينتظرهم الثواب الجزيل والوان التكريمات الالهية ، أما الكفار فليس لهم الا اللعنة وسوء الدار • وهم اذا كانوا يفرحون بما بسطه الله عليهم فى هذه الدنيا من رزق فليعلموا أن ذلك ليس الاعرضا زائلا ومتاعا قليلا ، وأن الله الذى بسطه عليهم قادر ان شاء أن يقلص ظله عنهم ويتركهم فى عراء الفقر والضعف والعجز والخزى والهوان• ثم بعد هذا يذكر القرآن ثانية طلب الكفار من الرسول عليه السلام استهزاء وعنادا الاتيان بمعجزة ، فما معنى هذا التكرار ؟ ان هذا يشبه فى رأيى أبا طلب ابنه منه شيئا وذهب يلح فى طلبه ، والأب يشرح له ويطيل فى الشرح مبينا له مضار هذا الشيء ، وان الأفضل له أن يفعل كذا وكذا مما ينفعه نفعا حقيقيا ، واذا بالابن فى نهاية الكلام يكرر طلبه بنفس عبارته الأولى كأن الأب لم يقل شيئا وكأنه هو لم يسمع شيئا ، فيرد الأب قائلا لمن حولهما :" انظروا كيف بعد كل هذا الشرح والتوضيح والتنبيه والتحذير يعود ابنى فيطلب ماطلب • أليس هو ولدا أحمق قد ركب رأسه ولج فى العناد؟ لقد نورته وحذرته ، وليتحمل اذن نتيجة عناده وتصلب رأسه " •

قل . ان الله يضل من يشاء .

معنى الكلام : لا تبال بهم أيها الرسول ، فقد أديت ما عليك ، وبلغتهم الوحى ، وانذرتهم وحاولت هدايتهم ، ولكنهم رفضوا الانصات لدعوة الحق ، وعاندوا ، وأصروا على كفرهم ، فاتركهم وشأنهم ، فالله لم يشأ هدايتهم • فالكلام هنا تسلية لقلب الرسول وتسكين لخواطره من جراء عناد هؤلاء الجاحدين المستهزئين •

وموضوع المشيئة من الموضوعات التى يطول الكلام فيها • وأسلم شيء أن نجرى على منهجنا فنرجع الى القرآن ونرى ماذا قال بشأنها •

لقد وردت أفعال المشيئة فى القرآن مائتين وستا وثلاثين مرة • وهذا يدل على أهمية هذه القضية واعتناء القرآن بها •

وقد لاحظت من استقصائي لآيات المشيئة أن فاعل المشيئة فى الأغلبية منها هو الله سبحانه وتعالى ، سواء بلفظ الماضى (وحينئذ يكثر مجيء الفعل بعد أداة الشرط " لو " ، أو " ان " فى القليل) أو بلفظ المضارع (والغالب أن تسبقه " من " الموصولة مفعولا به) • وفى الآيات التى لم يكن لفظ الجلالة هو الفاعل للمشيئة كان الفاعل هو البشر أو احدهم • ولم يحدث أن اسند القرآن المشيئة ، من دون الله ، لغير البشر • وهذه نقطة على قدر جد عظيم من الأهمية • وهذه هى الآيات التى نسبت المشيئة فيها للانسان ، أفرادا بأعيانهم أو جنسه كله :

" وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر " (٢٩٩) •

" ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا " (٣٠٠) •

" نذيرا للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتاخر " (٣٠١) •

" كلا ، انه تذكرة * فمن شاء ذكره " (٣٠٢) •

" ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا " (٣٠٣) •

" ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا "(٣٠٤) .

" كلا ، انها تذكرة * فمن شاء ذكره " (٣٠٥) .

" ان هو الا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم " (٣٠٦) .

" قال (أى موسى للعبد الصالح حين أقام الجدار للغلامين اليتيمين بلا أجر) : لو شئت لاتخذت عليه أجرا " (٣٠٧) .

" فاذا استأذنوك (يا أيها الرسول) لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم " (٣٠٨) .

" واذ قلنا (أى لبنى اسرائيل) : ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا " (٣٠٩) .

" نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم " (٣١٠) .

" واذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم " (٣١١) .

" فاعبدوا (أيها الكفار) ماشئتم من دونه (أى من دون الله) " (٣١٢) .

" اعملوا ماشئتم ، انه بما تعملون بصير " (٣١٣) .

" اسكن (ياآدم) أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما " (٣١٤) .

" وياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما " (٣١٥) .

" ترجى (يا أيها النبى) من تشاء منهن (أى من زوجاتك) وتؤوى اليك من تشاء " (٣١٦) .

" وقالوا: هذه انعام وحرث حجر ، لايطعمها الا من نشاء " (٣١٧) .

" واذا تتلى عليهم (أى على الكفار) آياتنا قالوا : قد سمعنا . لو نشاء لقلنا مثل هذا " (٣١٨) .

" قالوا : ياشعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ؟ " (٣١٩) .

" وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء " (٣٢٠) .

" يعملون (أى الجن لسليمان عليه السلام) مايشاء من محاريب وتماثيل ..." (٣٢١) .

" تجرى من تحتها (من تحت الجنات) الأنهار ، لهم فيها مايشاءون " (٣٢٢) .

" لهم فيها (أى فى الجنة) مايشاؤون " (٣٢٣) .

" لهم مايشاءون عند ربك . ذلك جزاء المحسنين " (٣٢٤)

" لهم مايشاءون عند ربهم . ذلك هو الفضل الكبير " (٣٢٥) .

" لهم مايشاءون فيها (أى فى الجنة) ، ولدينا مزيد " (٣٢٦) .

ومن هذه الآيات يتبن الآتى :

١- أن القرآن قد أسند المشيئة الى البشر ، أفرادا أو جنسا ، ثمانى وعشرين مرة (زائد مرتين سنذكرهما بعد قليل) وليس هذا فى حد ذاته بالشىء القليل .

٢- أن معظم هذه الآيات تنتمى الى العهد المكى ، وبعضها الى أوائل الوحى ، مما يدل على أن القرآن قد جلى هذه النقطة منذ أوائل الدعوة ، وهذا يدل على اهتمامه بها وانه لم يشأ أن يتركها غامضة ، بل حسمها من البداية .

٣- أن الله سبحانه وتعالى قد عزا المشيئة فى أكثر من موضع الى آدم وزوجه ، وهما أصل البشرية . ومعنى ذلك أن المشيئة مقررة للبشر منذ أول الخلق ، وليست شيئا طرأ على الانسانية من بعد . أكثر من هذا أن اسناد المشيئة الى آدم وحواء كان وهما لايزالان فى الجنة لم يهبطا منها الى الأرض بعد ، وهذا له دلالته ومغزاه .

٤- أن القرآن ينسب المشيئة لبنى آدم أيضا فى جنة الآخرة ، أى أن المشيئة لن تفارق المؤمنين حتى فى العالم الآخر . فهى اذن ليست شيئا مؤقتا ، بل أصيل فيهم منذ أن كانوا فى الجنة الأولى (جنة ماقبل الأرض) ، وستظل معهم فى الجنة الثانية (جنة مابعد الموت)

٥- فاذا أضفنا الآتيين التاليتين من آيات المشيئة الانسانية ، و هما :

" وما تشاءون الا أن يشاء الله " (٣٢٧) .

" وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين " (٣٢٨) .

اتضح لنا أن مشيئة الانسان ليست من عنده ، بل من عند الله سبحانه وتعالى ، اى أن الله عز وجل شاء لنا أن نشاء . فهى اذن ليست مشيئة مستقلة . كما انها ليست مطلقة .وهذا مايفرق بيننا وبين مشيئة رب العالمين : فمشيئة الله هى من عنده ، وهى مشيئة مطلقة غير محدودة . أما مشيئتنا فهى هبة من الله وتكريم منه لنا ، وهى ايضا لا تستطيع أن تحقق كل شىء .

واذا تتبعنا آيات المشيئة الالهية فى القرآن الكريم فاننا نجدها تتعلق بكل شىء ، فهو يبسط الرزق على من يشاء ويضيقة على من يشاء ، سواء كان الرزق مالا أو ذرية أو حكمة أو سلطانا ، وهو يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وهو ينصر من يشاء ويهلك من يشاء ، وهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو يضع رسالته حيث يشاء . وهو ان شاء حرك الريح وان شاء اسكنها ، وهو يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويجنبها من يشاء ،وهو ينزل المطر على من يشاء ويصرفه عمن يشاء ... وهكذا وهكذا .

ومشيئة الله سبحانه ليست شيئا غير منضبط ، بل تأخذ طريقها من خلال السنن الكونية التى أجرى الله سبحانه عالمه على أساسها . وقد اقتضت مشيئته ، كما رأينا من آيات القرآن الكريم ، أن يكون للانسان أيضا مشيئة ، ولكنها كما قلنا مشيئة مقيدة وغير مستقلة . وبهذه المشيئة يحاول الانسان أن يشق طريقه ، بعون الله وفضله ،خلال السنن (أو ما نسميه اليوم " القوانين ") الالهية . وبقدر مايكتسبه الانسان من العلم ويكتشفه من هذه القوانين تصبح حركته أكثر حرية . ولنضرب مثلا على ذلك : فالانسان منذ دهور سحيقة يحلم بأن يطير . ولكن مشيئته هذه كانت تصطدم بقانون الجاذبية ، الذى لم يكن يفهمه ولا يستطيع أن يتعامل معه . وقد حاول تعويض ذلك باختراع الأساطير التى يصور فيها طيران بعض البشر فى الهواء . أما بعد تقدم العلم وانكشاف قانون الجاذبية وغيره القوانين التى تحكم ظاهرة الطيران استطاع الانسان ، بفضل خالقه ورعايته ، أن يخترع المناطيد والبالونات والأشرعة والطائرات وسفن الفضاء، التى مكنه أن يحول حلمه القديم الى واقع ، وبهذا يكون قد نفذ مشيئته . ومع ذلك فان حياة الانسان لاتزال وستظل مملوءة بألوان النقص والعجز . ومهما حقق الانسان من آمال وأحلام فستبقى آماله وأحلامه التى لم تتحقق أكثر ، ذلك ان مشيئته ، كما قلناونكرر ، هى مشيئة محدودة وغير مستقلة .

ونختم هذا المبحث بهذه الآيات التى تؤكد وجود المشيئة الانسانية وانها مستمدة من مشيئة الله سبحانه ، وان لم يستخدم القرآن فيها لفظ " المشيئة " :

" ذلك بأن الله لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٣٢٩) .

" ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٣٣٠) .

" ويهدى اليه من أناب " (٣٣١) .

" قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم " (٣٣٢) .

" يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم " (٣٣٣) .

ويهدى اليه من اناب .

" أناب " : رجع الى الحق اذا ما تبين له ، ولم يركب راسه .

وهذا الجزء من الآية يؤكد ماقلناه من أن للانسان مشيئة وارادة ، فالله سبحانه كما تقول الآية هنا يهدى اليه من يرون الحق فيتبعونه ، اى يهدى من يشاءون أن يهتدوا. أما أولئك الذين آثروا العمى واستحبوه على الهداية وعاندوا وجحدوا فقد اقتضت مشيئته أن يتركم وما شاءوه لانفسهم ، وهو الضلال .

الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . الا بذكر الله تطمئن القلوب .

ما اعراب " الذين آمنوا ... " ؟ هناك من يعربها ، ضمن اعرابات أخرى ، على أنها مبتدأ ، وخبره " طوبى لهم وحسن مآب " فى الآية التالية . وهو اعراب جائز ، وان كان من المفسرين من يصر على أنه لا

يصح غيره (٣٣٤) ٠ وهناك من يعربها ، مع اعرابات أخرى ، بدلا من " من أناب " ، بل ان من المفسرين من لايذكر غيره (٣٣٥) ٠

وفي رأيي أن هذا الاعراب لايصح ، لمايؤدى اليه من جعل الكلام متناقضا ٠ وتفصيل ذلك أن اعراب " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " بدلا من " من أناب " يجعل معنى الكلام هكذا :" ويهدى اليه الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " ٠ ومعروف أن الهداية هنا هي الهداية الى الايمان ، وهذه الهداية تستلزم أن يكون المهدى غير مؤمن ، والا فكيف يمكن هداية المؤمن الذى يطمئن قلبه بذكر الله ، الى الايمان ، وهو قد آمن وانتهى الأمر ، بل وتغلغل الايمان في قلبه ؟

وهناك اعراب ثالث ذكره المفسرون ، وهو أن تكون " الذين آمنوا ٠٠٠" خبر مبتدا محذوف تقديره " هم " ، ومعنى الكلام على ذلك التوجيه هو ان الله يهدى اليه من أناب ، وهؤلاء المنيبون هم ، " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " ٠

وهذان الاعرابان الآخيران هما والاعراب الأول كلها جائزة ومقبولة ٠ لكن ثمة اعرابا يتلجلج في صدرى ، وهو أن تكون " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " مبتدأ ، وخبرها ليس هو " طوبى لهم وحسن مآب " (على أساس أن " الا بذكر الله تطمئن القلوب " جملة اعتراضية ، و " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " بدل من " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ") بل هو المفهوم من قوله تعالى :" الا بذكر الله تطمئن القلوب " ، وهو أنهم " قد سلكوا الطريق الصحيح الذى لاطريق غيره الى اطمئنان القلب " ٠ ذلك لان تقديم " بذكر الله " على " تطمئن القلوب " يفيد القصر ، بمعنى أن اطمئنان القلوب لايمكن أن يتحقق لاحد الا من خلال ذكر الله ٠ والذى جعلني أقترح هذا الاعراب هو أن ذلك أسلوب يجرى عليه القرآن كثيرا ، اذ يحذف الخبر أو جواب شرط " من " وينشيء جملة جديدة توحي بالخبر أو جواب شرط " من " المحذوف ايحاء (والخبر وجواب الشرط اذا كان اسم الشرط هو " من " قريب من قريب) ٠ ومن ذلك قوله تعالى :

" من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله " (٣٣٦) ٠

" من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين " (٣٣٧) ٠

" ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم " (٣٣٨) ٠

" ومن كفر فان الله غني عن العالمين " (٣٣٩) ٠

" فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم " (٣٤٠) ٠

" أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به " (٣٤١) ٠

" انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين " (٣٤٢) ٠

" أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء ٠ قل سموهم ٠ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول ؟ " (٣٤٣) ٠

" ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ٠ ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم " (٣٤٤) ٠

" ذلك ، ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب " (٣٤٥) ٠

" ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر " (٣٤٦) ٠

" ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين "(٣٤٧) ٠

" أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا؟ فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " (٣٤٨) ٠

" أفمن حق عليه كلمة العذاب ؟ أفأنت تنقذ من في النار ؟ " (٣٤٩) ٠

" أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله" (٣٥٠) ٠

" أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ وقيل للظالمين : ذوقوا ما كنتم تكسبون " (٣٥١) ٠

" ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم • وانه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه • تنزيل من حكيم حميد " (٣٥٢) •

" أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ * وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا • أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون " (٣٥٣) •

" الحاقة * ما الحاقة ؟ " (٣٥٤) •

" القارعة * ما القارعة ؟ " (٣٥٥) •

و " ذكر الله " فسره المفسرون بأنه "القرآن " ، وبأنه اجراء اسمه على اللسان ،وبأنه خشيته واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وبأنه استحضار رحمته ومغفرته • وكل هذا تقبله الآية ، وينبغى الا يقصر على واحد منها دون غيره • فالمؤمن يطمئن قلبه بذكر الله ، سواء كان هذا الذكر باللسان ، أو كان فكرة فى العقل أو شعورا فى القلب ، أو كان قرآنا يتلوه أو ينصت اليه •

ويلاحظ أن الآية قد استخدمت الماضى فى " آمنوا " والمضارع فى " تطمئن قلوبهم بذكر الله " • وهو أسلوب اتبعته السورة من قبل مرتين ، هما :

" وهو الذى مد الأرض، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين • يغشى الليل النهار " (٣٥٦) •

" والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة " (٣٥٧) •

فأما استخدام الزمن الماضى فى " آمنوا " فلأنهم آمنوا وانتهى الأمر ، ولا رجعة فى هذا ، ولا يتصور ارتدادهم • وأما استخدام المضارع الدال على تجدد الحدث واستمراره فى " تطمئن قلوبهم " فلأنهم كلما تذكروا الله اطمأنت قلوبهم من قلق •

وقد أشار الألوسى مسألة هى : كيف يقول القرآن فى موضع : " تطمئن قلوبهم بذكر الله " وفى موضع آخر :" اذا ذكر الله وجلت قلوبهم "؟ (٣٥٨) وأجاب بأن هذه الآية انما تتحدث عن وجلهم من هيبته تعالى واستعظامه ، وتلك تتحدث عن النور الذى يفيضه الله تعالى على قلوب المؤمنين فيذهب مافيها من القلق والوحشة (٣٥٩) •والحق أننا ينبغى أن ننتبه الى أن الأثر الذى يتركه ذكر الله فى قلب المؤمن انما يتغير من سياق الى سياق • فاذا فرط من المؤمن ما لا يصح ثم ذكر الله فانه فى هذه الحالة يوجل من ربه• وقد نزلت آية سورة " الأنفال " مثلا (وهى احدى الآيتين اللتين تحدثتا عن وجل قلوب المؤمنين عند ذكر ربهم) حينما تعجل بعضالمسلمين توزيع أنفال " بدر " وأخذوا يقترحون الطرق لتقسيمها ، فلم يحب الله منهم ذلك ، ونزلت آيات صدر " الأنفال " (ومنها الآية التى معنا الآن) لتنبههم الى انهم ينبغى أن يوجلوا من غضب الله • أما آية سورة " الرعد " فتتحدث عن المؤمنين الذين لا يعاندون دعوة الحق ، بل يفتحون لها قلوبهم لأنهم ينشدون اليقين • ومن ثمة فاذا ذكروا الله أو سمعوا قرآنه ، أو طاف بهم طائف من القلق على أموالهم أو حياتهم أو ذرياتهم ثم تذكروا الله اطمأنت قلوبهم • بل ان آية سورة " الأنفال " ، التى تتحدث عن وجل قلوب المؤمنين اذا ذكروا الله تعود فتقول : " واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا " • فهم يوجلون حينما يتنبهون لخطئهم ، ثم تزيدهم ايمانا آيات القرآن التى تنزل على الرسول فى أمرهم ، بمعنى انهم يفيقون مما بدر منهم ويعودون سريعا الى مايرضى الله عنهم ، وعندئذ ترتاح نفوسهم ويداخلها الاطمئنان •

الابذكر الله تطمئن القلوب .

بذكر الله لابغيره ، وبذكره وحده ، تطمئن القلوب النقية الصافية • وذلك أن الايمان بالله القوى القادر القاهر الرحيم الكريم العليم السميع البصير من شأنه أن يشعر الانسان بأنه سبحانه لن يخذله ، لأنه كريم رحيم ، وأن نصره هو النصر ، لأنه قوى قادر قهار ، وأنه لايمكن أن ينساه ، فهو العليم الخبير والسميع البصير

هذا وجه فى معنى الآيـة • ووجه آخر تقبله الآية أيضا هو أنهم لحبهم الحق اذا ماذكر الله امامهم أو تلى القرآن عليهم ارتاحوا لعلمهم أنه هو الحق ، وان مايعبده المشركون من أصنام وأوثان باطل • والعقول السليمة والقلوب والضمائر البريئة من عقد العناد وشذوذ العصيان تهفو الى الحق وتسارع اليه متى ظهر •

وفى الكلام حذف ، والتقدير : " الا بذكر الله تطمئن القلوب الصافية النقية " ، وهى قلوب المؤمنين ، فان الكفار لم يكونوا يذكرون الله ، واذا ذكر أمامهم لم يرتاحوا لذكره سبحانه :

" واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا " (٣٦٠) •

" فهم عن ذكر ربهم معرضون " (٣٦١) •

" واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة • واذا ذكر الذين من دونه اذاهم يستبشرون " (٣٦٢) •

" فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله " (٣٦٣) •

" ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه " (٣٦٤) •

" فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا " (٣٦٥) •

" استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله " (٣٦٦) •

كما كانوا يهزأون بالذكر (أى القرآن) وينكرونه ويعرضون عنه :

" ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون * لا هية قلوبهم " (٣٦٧) •

" وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون ؟" (٣٦٨) •

" وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين " (٣٦٩) •

الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .

على الاعراب الذى اقترحته (وكذلك على الاعراب الذى رددته) تكون " الذين آمنوا هذه " مبتدأ ، خبره " طوبى لهم وحسن مآب " • وعلى الاعرابات الأخرى تكون بدلا من " الذين آمنوا " التى فى الآية السابقة ، وتكون " طوبى لهم وحسن مآب " خبر لـ " الذين آمنوا " الأولى •

وهناك من يقول مامعناه أن فى الكلام حذفا ، والتقدير على رأيهم هذا هو الآتى : "الذين آمنوا وعملوا الصالحات يقال لهم : طوبى وحسن مآب " (٣٧٠) • ولكن المعروف أن القرآن عندما يحذف القول فانه يذكر مقول القول بنصه المباشر ، أى من غير قلب الضمائر من الخطاب الى الغيبة ، على عكس ماهو فى الآية ، مما يجعلنى أرفض هذا التوجيه الاعرابى • وهذه بعض الشواهد على ما أقول :

" والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * : سلام عليكم بما صبرتم " (٣٧١) •

" الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون " (٣٧٢) •

" ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * : ذق ، انك أنت العزيز الكريم " (٣٧٣) •

" ويوم يعرض الذين كفروا على النار : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا " (٣٧٤) •

و " الطوبى " مؤنث " الأطيب " ، كما أن " الحسنى " مؤنث " الأحسن " • والمعنى كما ترى قريب من قريب ، أى أن الكلمتين متفقتان صيغة ، مترادفتان معنى • وقد فسرت هذه الكلمة بـ " الفرح " وبـ " الغبطة " ، وبـ " الحسنى " و بـ " الخير (الكثير)" وبـ " الكرامة " وبـ " العيش الطيب " • كما قيل انها اسم للجنة ، والجنة هى المثال الأعلى لأمانى البشر وتطلعاتهم ، ففيها الكرامة والخير والفرح والحبور ، وفيها العيش الطيب الهنى الذى لايكدره مكدر فلا نقص ولا سوء ولا موت ولا هرم • ومن ثم فاطلاق معنى الكلمة ليشمل كل مايفوق غيره طيبا وحسنا هو الأليق والأفضل ، وبخاصة أن القرآن الكريم لم يحددها •

قلنا ان " طوبى لهم وحسن مآب " خبر ، وهو خبر جملة تفصيله أن " طوبى " مبتدأ ثان ، و " حسن " معطوف عليها • وخبر المبتدأ الثانى هو " لهم " • ويذكر الألوسى قراءة بفتح " حسن " (على أساس

أنها فعل ماض تحول من " حسن " بضم السين) وضم " مآب " فاعلا لـ " حسن " ٠ وقد جوز الألوسى هذا التوجيه قائلا ان تحويل الفعل الماضى على هذا النحو جائز اذا كان للمدح أو الذم ٠ واستشهد على ذلك بقولهم : " حسن ذا أدبا " (٣٧٥) ٠ ولكن فاته وفات من قراوا بهذه القراءة أن القرآن الكريم لم يات لفعل المدح او الذم بفاعل نكرة البتة ٠ وانما فى حالة النكرة ياتى به منصوبا (على التمييز) ، مثل :

" انه كان فاحشة ومقتا ، وساء سبيلا " (٣٧٦) ٠

" ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا " (٣٧٧) ٠

" ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا " (٣٧٨) ٠

" بئس الشراب ، وساءت مرتفقا " (٣٧٩) ٠

" نعم الثواب ، وحسنت مرتفقا " (٣٨٠) ٠

" بئس للظالمين بدلا " (٣٨١) ٠

" وساء لهم يوم القيامة حملا " (٣٨٢) ٠

" خالدين فيها ، حسنت مستقرا ومقاما " (٣٨٣) ٠

" واعد لهم جهنم ، وساءت مصيرا " (١٣٨٤)٠

كذلك فان الفعل " حسن " لم يأت فى القرآن الا على وضعه الطبيعى ، أى بفتح الحاء وضم السين ٠

كذلك ارسلناك فى امة قد خلت من قبلها امم لتتلو عليهم الذى اوحينا اليك .

المعنى اننا ارسلناك فى أمة لتتلو عليهم الذى اوحينا اليك ، مثلما ارسلنا الى امم خلت من قبل رسلا ليتلوا عليهم ما أوحينا اليهم ، فلتحذر امتك ان يصيبها ما اصاب هذه الأمم الخالية حينما كذبت رسلها ، " فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من اغرقنا " ٠

وقد ورد فى أوائل السورة تعبير مقارب لقوله تعالى هنا : " قد خلت من قبلها أمم " ، وهو : " وقد خلت من قبلهم المثلات " . ويبدو لى أن تقارب التعبيرين يوحى بأن قوله تعالى هنا : " قد خلت من قبلها أمم " لا يقصد به أن أمما أخرى سبقتها فى التاريخ ، فذلك معنى بديهى لايحتاج الى النص عليه ، ولامغزى من ورائه ، بل يعنى : " قد هلكت أمم من قبلها لعصيانها أمر ربها ورسله ، وعذبها الله عذابا نكرا " .
وقد غلب ورود الفعل "خلا" فى سياق هذا المعنى فى القرآن الكريم ، وهاهى ذى الشواهد :
" قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين " (٣٨٥) .
" قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار " (٣٨٦) .
" فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التى قد خلت فى عباده . وخسر هنالك الكافرون " (٣٨٧) .
" وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم " (٣٨٨) .
" اولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم " (٣٨٩) .
" فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم " (٣٩٠) .
" ملعونين ، اينما ثقفوا أخذوا وقتلو تقتيلا * سنة الله فى الذين خلوا من قبل " (٣٩١) .
وقد وقف المفسرون عند كلمة " كذلك " متسائلين عما يشير اليه اسم الاشارة ، فقال البقاعى مثلا ان معناها : " مثل ارسال الرسل الذى قدمنا الاشارة اليه فى آخر سورة يوسف عليه الصلاة والسلام فى قولنا " وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم " ، وفى هذه السورة فى قولنا " ولكل قوم هاد " ، ومثل هذا الارسال البديع الأمر البعيد الشأن ، والذى دربناك عليه غير مرة من أن المرجع الى الله والكل بيده ، فلا قدرة لغيره على هدى ولا ضلال ، لا بانزال الآيه ولا غيره ، ارسلناك ... " (٣٩٢) .
لقد سبق أن رفضت اعادة اسم الاشاره " تلك " الذى ورد أول شىء فى السوره (بعد حروف التهجى) على آيات سورة "يوسف " ، فمن باب أولى أرفض أن يكون اسم الاشارة فى " كذلك " الذى ورد قرب أواخر السورة (لا أول شىء فيها) عائدا على شىء فى تلك السورة . ان هذا للأسف يسىء الى القرآن ، اذ يظهره بمظهر الكلام الذى لاتماسك له ولا منطق فيه . أما أن معنى " كذلك " هو مثل " هذا الارسال البديع ... الذى دربناك عليه غير مرة ... الخ " فلا ادرى كيف يكون ولم يسبق فى الكلام شىء يسوغ تقديره .
ويرى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن " كذلك " تشير الى ما يأتى بعدها ضمنا ، وهو ارسال الرسل (٣٩٣) . ولكن دون قبول هذا التأويل أن اسم الاشارة فى " كذلك " ينبغى أن يشير الى شىء خارج عما تتعلق به لا الى شىء داخل فيه .
وبعضهم يقول ان المعنى هو : " كما أجرينا العادة بأن الله يضل من يشاء ويهدى بالآيات المقترحة فكذلك فعلنا فى هذه الأمة : أرسلناك اليهم بوحى لا بالآيات المقترحة ، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء (٣٩٤) . لكن فى هذا التأويل تكلفا وليا للكلام ، وهيهات أن يستقيم تفسيره على هذا النحو !
ويرى الطبرسى أنه " لما ذكر سبحانه النعمة على من تقدم ذكره بالثواب وحسن المآب عقبه بذكر النعمة على من أرسل اليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال " كذلك ارسلناك " أى كما انعمنا على المذكورين بالثواب فى الجنه انعمنا على المرسل اليهم بارسالك " (٣٩٥) . لكن المقام هنا مقام تهديد للمشركين ، وفى الآية (كما رأينا) تحذير لهم ان يمضوا على سنة الأمم الخالية فيصيبهم ما أصابها ، وهذا لايتسق مع التذكير بالنعمة . ان السياق سياق تحذير من النقمة لاسياق تذكير بالنعمة .
ويظهر أن الذى جعلهم يتكلفون هذا التكلف فى العثور على المشار اليه فى " كذلك " هو نظرهم الى هذه الكلمة نظرة حرفية .
انى أتخيلهم يقولون ان " الكاف " للتشبيه و " ذلك " للاشارة ، اذن فمعنى الكلام هو " مثل ذلك " ، فأين فى الكلام " ذلك " هذه ؟ ثم يذهبون فى التأويل . ويبدو لى أن " كذلك " مستخدمة هنا بمعنى " أيضا " . وسوف أورد توا من القرآن شواهد متعددة على هذا الاستخدام . والمعنى على هذا هو : " وثمة

شيء أيضا نقوله لك ، وهو أننا أرسلناك فيهم كما أرسلنا من قبلك رسلا الى أممهم ، وكما أننا قد اسحتنا تلك الأمم بالعذاب فكذلك سيكون مصيرهم ان لم يرعووا ويسلكوا غير مسلكهم " . أما الشواهد القرآنية على هذا الاستعمال فها هي هذه :

١-" وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب . كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم " (٣٩٦) . والدليل على أنها ليست للتشبيه أن التشبيه موجود فعلا فى عبارة " مثل قولهم " .

٢-" وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله (بزعمهم) ، وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم . ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم " (٣٩٧) . والمعنى وايضا ، وعلاوة على هذا فقد زين ... الخ " .

٣-" حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا * كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا " (٣٩٨) .

٤ - " قال : رب ، لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ * قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها " . وتأويل الكلام : " وأنت أيضا قد أتتك آياتنا فنسيتها " (٣٩٩) .

وهم يكفرون بالرحمن .

. كان مما لجأ اليه الكافرون من عناد وسخرية وسخف ، تمييعا للأمر وتضيعا للوقت فيما لايقدم ولا يؤخر ، أنهم كانوا يرفضون الاعتراف بـ " الرحمن " اسما لله سبحانه وتعالى . وقد وردت فى هذا المعنى الآيتان التاليتان :

" قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . أياما تدعو فله الأسماء الحسنى " (٤٠٠).

" واذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا " (٤٠١) .

على أن هناك آية أخرى أخرى يرد فيها اسم " الرحمن " على ألسنة الكفار ، وهي قوله تعالى :

" وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم (أى الأصنام) " (٤٠٢) .

فهل هذه الآيه نزلت قبل آية سورة " الرعد " والآيات الأخرى التى تجرى مجراها ؟ أم هل نزلت بعدها ؟ ذلك لأنها اذا كانت قد نزلت قبلها فليس أمامنا أن نفهم جرى اسم " الرحمن " على ألسنتهم الا على أساس أنهم يسخرون من " الرحمن " ، هذا الاسم الذى يثيرون من حوله الضجة ويفتعلون المشكلات ، أو أن القرآن لاينقل كلامهم بنصه ، وانما يحكيه بأسلوبه هو ، مناقضة منه لانكارهم تسمية الله سبحانه بهذا الاسم الجميل من اسمائه الحسنى . أما ان كانت قد نزلت بعد تلك الآيات فعندئذ يضاف تفسير ثالث للمسألة ، وهو أنهم بمرور الايام قد كفوا عن افتعال تلك الخصومة السخيفة التى لا معنى لها .

ولعل فى ايراد القرآن الكريم لاسم (الرحمن) هنا سخرية بهم وتبكيتا وتهديدا لهم ، وكأنه يقول : (انهم يكفرون بالرحمن . حسن اذن فهم لايستحقون أن يعاملهم الله بمايقتضيه هذا الاسم الكريم من أسمائه تعالى ، وهو الرحمة . ولسوف نريهم من المنتقم الجبار انتقامه وجبروته ، اللذين رأت منهما الأمم الخالية مارأت . أليسوا قداستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة ؟ " .

قل . هو ربى . لا اله الا هو . عليه توكلت واليه متاب .

يبدو أن معنى هذا الكلام هو كما يقول الواحد منا حين يسمع مايراه ماسا بالمقدسات : " أعوذ بالله وأستغفره مما قلت . أما أنا فلا أشاركك رأيك ، بل على العكس أقدس هذا الذى تجرأت عليه وذكرته بالسوء ... الخ " . أمر الرسول أن يقول :ان الرحمن الذى تكفرون به انما هو ربى ، لا أعرف الها سواه . وهو وحده الذى عليه أتوكل ، كما انه هو وحده الذى يحاسب ويثيب ويعاقب ، واليه من ثم مثابى ومآبى .

وبالنسبة لمتاب الرسول عليه الصلاة والسلام فقد جاءت في القرآن الآيات الكريمة التالية عنه وعن بعض اخوانه من الأنبياء :

" لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة " (٤٠٣) .

" فلما أفاق (موسى) قال : سبحانك ! تبت اليك " (٤٠٤) .

" وأرنا (المتكلمان هنا هما ابراهيم واسماعيل عليهما السلام) مناسكنا ، وتب علينا " (٤٠٥) .

" فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه " (٤٠٦) .

" فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا " (٤٠٧) .

ودون الدخول في التفاصيل نسأل : هل هناك من أحد يستغني عن أن يعود الله سبحانه عليه بالرحمة والاكرام ، والانسان كما قال مولاه عنه قد خلق ضعيفا ؟ وهل هناك انسان يعلو فوق أن يرجع الى الله دائما مسترحما منيبا ؟

ان العبد عبد ، والرب رب . ولكن للأنبياء والرسل مع ذلك مكانهم المحفوظ ومكانتهم السامية التي لها أنق فوق كل الآفاق .

ذلك ، وكل تراكيب الآية تدل على القصر : ثلاثة منها بالتقديم ، وواحد (هو الثاني) بالنفي مع الاستثناء .

ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى ... .

روى في نزول هذه الآية أن بعض كفار قريش أرسلوا الى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون منه اذا أراد أن يؤمنوا به ان يبعد عن مكة جبالها فتتسع أرضهم فيزرعوها ، أو يقرب اليهم الشام حيث يذهبون للتجارة فييسر بذلك عليهم السفر ، أو يخرج لهم بعض موتاهم فيكلموهم . فتسيير الجبال هو طلبهم منه عليه السلام ان يوسع جبال مكة ، وتقطيع الأرض تقريب مسافاتها البعيدة أو هو تشقيقها وجعلها انهارا وعيونا (وهو أيضا مما طلبوه) ، وتكليم الموتى هو احياء بعض من اقترحوا عليه أن يحييه من موتاهم ليكلموه .

وجملة " لو أن ... " هي جملة شرطية حذف جوابها . وهذا الجواب المحذوف قد ذهبت فيه المفسرون ثلاثة مذاهب ، أشهرها أن تقديره : " لو أن قرآنا سيرت به الجبال ... لكان هذا القرآن " . ومع اشهرية هذا التفسير فاني لم أكن أطمئن اليه ، وأخذت انكر فيما يمكن أن يكون التفسير الصحيح للآية ، ورأيت ان الأفضل القول بأن تقدير الجواب هو " لما آمنوا " . وكنت اظن أن احدا من المفسرين لم يقل به ، ولكني وجدت بعض كتب التفسير كالزمخشري والطبرسي والألوسي قد أوردته (٤٠٨) ، فاطمأنت نفسي لموافقة خاطري لرأي بعض المفسرين السابقين ، وان كان هذا الرأي قد قدم له بصيغة " قيل " ، وأورد على استحياء بعد الفراغ من بسط الكلام في التفسير الأول .

والسر في عدم اطمئناني للتفسير المشهور هو ان من الممكن أن يقول من لايؤمن بالقرآن : " وما الذي كان يمنع أن يجعل الله في القرآن المقدرة على تسيير الجبال وتقطيع الأرض واحياء الموتى لتكليمهم ؟ " ، أو يقول : " ولم لم يستجب الله لطلب الكفار بآية وسيلة أخرى غير القرآن ؟ " . ثم ان استخدام " لو " الشرطية في مثل هذا الموقف قد تكرر في القرآن ، لافي المعنى الذي فسرت به هذه الآية التفسير المشهور ، وانما في المعنى الذي وفد على خاطري ووجدت بعض المفسرين قال به وهذه . هي الآيات التي ورد فيها هذا الاستخدام :

" ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين " (٤٠٩) .

" ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ماكانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله " (٤١٠) .

" ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا : انما سكرت ابصارنا ، بل نحن قوم مسحورون " (٤١١) .

ثم ان هذا يتمشى مع قوله تعالى حسما لهذه المسألة : " ومامنعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . ومانرسل بالآيات الا تخويفا " (٤١٢) . فليست المسألة أن هذه المعجزات لاتتحقق بواسطة القرآن ، وانما هي أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب للأمم السابقة مثل هذه المطالب قطعا لحجتها وعذرها، فلم تؤمن ، وأن ذلك قد تكرر بمااستبان معه لكل ذى عقل بصير أن المعجزات لاتؤدى الى هداية ، وانما سبيل الهداية هو فتح نوافذ العقل لنور الحق ، والانتصار على نزوات النفس وعنادها الباطل ، والاذعان للدليل متى ما أشرق على القلب .

أما التفسير الثالث فقد ذكره الامام البقاعي . قال " ويجوز أن يكون التقدير : " لو وجد شيء من هذا بقرآن يوما ما لكان بهذا القران ، فكان حينئذ يصير كل من حفظ منه شيئا فعل ماشاء من ذلك فسير به ماشاء من الجبال الى ما أراد من الأراضى لما رام من الأغراض ، وقطع به ماطلب من الأرض أنهارا وجنانا وغيرها ، وكلم به من اشتهى من الموتى . ثم اذا فتح هذا الباب فلا فرق بين القدرة على هذا والقدرة على غيره ، فيصير من حفظ منه شيئا قادرا على أى شيء ، فبطلت حينئذ حكمة اختصاص الله سبحانه بذلك من أراد من خلص عباده ، وأدى ذلك الى أن يدعى من أراد من الفجرة أن أمر ذلك بيده يفعل فيه مايشاء متى شاء ، فيصير ادعاؤه مقرونا بالفعل شبهة فى الشرك " (٤١٣) .

وهو تفسير فى الغاية من التعسف والشطط ، اذ انه يمتلخ الآية من سياقها ويذهب بها جد بعيد عما قصد منها . لقد طلب مشركو مكة منه صلى الله عليه وسلم أن يصنع لهم بعض المعجزات ، فماعلاقة هذا بما افترضه الامام البقاعي من أن بعض الناس فى المستقبل قد يتوسعون فى استغلال هذه الخاصية فى القرآن ، خاصة استخدامه فى تسيير الجبال وغيره ، مما ينتج عنه أن يعتقد الناس فيهم الألوهيه ويشركوهم بالله ؟ ثم انه قد يقال : ولم لم يختص الله بذلك نبيه وحده فلايكون ثمة خوف مما افترضه البقاعي ؟ وذلك الى جانب ماقلناه فى رد التفسير الأول من أن الكافر قد يقول : ولم لم يستجب الله لطلب الكفار بآية وسيلة أخرى غير القرآن ؟

بل لله الأمر جميعا .

وردت كلمة " الأمر " فى القرآن عشرات المرات وقد نسبت فى كثير من المواضع الى الله سبحانه . و " الأمر " بالنسبة لله تعالى فى القرآن على عدة معان . فقد يقصد به قضاؤه سبحانه وقدره ، وقد يقصد به سلطانه ، وقد يقصد به مشيئته ، وقد يقصد به حكمه ، وقد يقصد به نظام الكون وتدبيره ، وقد يقصد به ما أمر عباده به ... وهكذا .

ويبدو من سياق الآية أن المعنى أن ايمان الكافرين أو بقاءهم على كفرهم انما يجرى على ماقضاه الله وقدره ، ولايخرج عن مشيئته . وهو ربهم وهم عبيده خاضعون لسلطانه ، آمنوا به أو كفروا ، فلاتشغل نفسك بهم أيها النبى فهو قادر على هدايتهم ان شاء ، واجعل همك تبليغ الرسالة وانذار الجاحدين وتبشير المؤمنين ، وماعليك بعد ذلك ان آمنوا أو كفروا . وهذه بعض الآيات التى ورد فيها " الأمر " بمعنى من هذه المعانى :

" ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم " (٤١٤) .

" وكان أمر الله مفعولا " (٤١٥) .

" الا له الخلق والأمر " (٤١٦) .

" ولله غيب السماوات والأرض. واليه يرجع الأمر كله " (٤١٧) .

" لله الأمر من قبل ومن بعد " (٤١٨) .

" وكان أمر الله قدرا مقدورا " (٤١٩) .

" تدمر كل شيء بأمر ربها " (٤٢٠) .

" فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله " (٤٢١) .

" فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون " (٤٢٢) .

" يوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله " (١٤٢٣) .

افلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا .

قال بعض المفسرين وعلماء اللغة ان " ييأس " هنا بمعنى " يعلم " (وهى لغة بعض القبائل العربية) ، والمعنى على هذا التفسير : " افلم يعلم الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا " . وقد ترجمها عبدالله يوسف على الى الانجليزية بهذا المعنى . ويبدو أن لم يكن يرى اى شك فى هذا ، اذ لم يخصص لتلك العبارة (على غير عادته) هامشا يورد فيه الآراء التى قيلت فيها . ونص ترجمته هو :

" Do not the believers know that , had God (so) willed He could have guided all mankind (to the Right) ? "

وهو تفسير مباشر لايحتاج الى تأويلات وتقديرات . وهو فى نظرى أحسن التفاسير التى قابلتنى ، وبخاصة ان هناك قراءة بـ " افلم يتبين ... ؟ " بدلا من " افلم ييأس ... ؟ " (٤٢٤) .

وقد نسب لابن عباس ، زورا وبهتانا ، أن أصل الكلام " افلم يتبين ... ؟ " الا أن الكاتب قد كتبها وهو ناعس ، فتحولت " يتبين " فى الكتابة الى " ييأس " (٤٢٥) .

وقد أحسن ابن حيان اذ حكم على قائل هذه الفرية بانه " زنديق ملحد " (٤٢٦) ، كما صدق الزمخشرى فى وصفه لهذا السخف بانه " فرية مافيها مرية " (٤٢٧) . وقد أحسن الاثنان صنعا ، اذ لم يشيرا الى أنها منسوبة لابن عباس ، فان طابع الاستهتار والسخرية وعدم التوقير لوحى الله وماتكفل به من حفظه باد على هذا الكلام ، ولايمكن ان يقوله صحابى كابن عباس ، الذى كان من آل البيت وكان مقربا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان النبى يتعهده بالرعاية والتوجيه ، ويدعو له بحسن فهم الوحى وتأويله .

وهناك من ينفى أن تكون " ييأس " بمعنى " يعلم " ، مؤكدا أنها على معناها المعروف ، وهو القنوط " (٤٢٨) . وهؤلاء يتأولون الآية على معنى : " افلم ييأس الذين آمنوا من ايمان الكفار من قريش المعاندين لله ورسوله ؟ " ، وبعضهم يقول ان المعنى هو : " افلم ييأسوا بعلمهم الا هداية الا بالمشيئة " ، وفريق آخر قال ان الكلام قد انتهى عند " الذين آمنوا " (هكذا : افلم ييأس الذين آمنوا ؟ ") ، والمعنى : " لقد يئس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء المعاندين " . وتقدير بقية الكلام هو : " واقسم لو شاء الله لهدى الناس جميعا " (٤٢٩) . وهو كلام كما ترى كله اعتساف واضطراب ، ويخالف روح القرآن وأسلوبه وكذلك الوقائع التاريخية . وتفصيل ذلك أن القرآن يذم اليأس ويحذر منه :

" ولاتيأسوا من روح الله . انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون " (٤٣٠) .

" ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور " (٤٣١) .

" لايسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط " (٤٣٢) .

" واذا مسه الشر كان يئوسا " (٤٣٣) .

" قال : ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ؟ " (٤٣٤) .

" لاتقنطوا من رحمة الله " (٤٣٥) .

وينبغى الا ننسى قصة يونس عليه السلام وكيف وصفه القرآن عندما أبق يأسا من ايمان قومه بانه " مليم " (٤٣٦) . كما تكرر فى القرآن أن من البشر من قنط من شىء أو استيأس منه ، ثم اذا برحمة الله تتجلى ، واذا الميئوس منه يقع :

" حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا " (٤٣٧) .

" وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته " (٤٣٨) .

فاذا كانت هذه نظرة القرآن الى اليأس فكيف يمكن ان يدعو المؤمنين (فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها من سورة " الرعد ") الى اليأس من ايمان كفار قريش أو حتى يوافقهم عليه ؟ من هنا فلسنا نوافق المرحوم سيد قطب ، الذى يرى أن القرآن يدعو المؤمنين الى اليأس من القوم وأن يدعوا امرهم لله . وهذا

نص عبارته : " فاذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم ، فما أجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم ، وأن يدعوا الأمر لله ، فلو شاء لخلق الناس جميعا على نحو خلقه الملائكة لو كان يريد ، أو لقهرهم على الهدى بأمر قدرى منه " (٤٣٩) .

ثم ان كفار مكة قد أسلموا جميعا عند فتح مكة ، اللهم الا من هلك منهم قبل ذلك بطبيعة الحال ، فكيف ييئس القرآن المؤمنين أو يوافقهم على اليأس من ايمان هؤلاء وقد دخلوا فى الاسلام بعد ذلك بعدة سوات عن بكرة أبيهم ؟

أما من ناحية الأسلوب القرآنى ، فقد ورد الفعل " يئس" ومضارعه بمعنى " قنط "فى القرآن الكريم سبع مرات ، ولم يحدث فى أى من هذه المرات حذف الميئوس فيه ، وذلك على عكس التفسير الذى يقول ان فى الكلام حذفا تقديره : أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء ؟ " ثم كيف يمكن أن يكون قوله : " أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا" جملة مستأنفة على تقدير " اقسم أن لو يشاء ... " ، وماعهدنا القسم يحذف على هذا النحو الذى يترك الجملة مبتدئة بـ " أن لو " . ان هذا كلام ركيك نربأ أن ينسب الى القرآن . ومتى أقسم الله فى قرآنه لتأكيد مشيئته ؟ فانفراد الفعل " ييأس" فى هذه الآية بمجيئه من غير حرف جر ، وكذلك انفراد مجرور " من " بكونه مصدرا مؤولا بالصريح (وهذا وذاك مما لم يحدث ، كما قلت ، فى أى من المرات السبع الأخرى) يعضدان انفراد هذا الفعل فى الآية بمعنى " العلم " .

ولايزال الذين كفروا تصيبهم بماصنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله .

" القارعـة " هـى الكارثـة والداهيـة • ولكـن ماتلـك القوارع التى يتحدث عنها القرآن ويذكر أنها لاتزال تصيب الكافرين أو تحل قريبا من دارهم ؟ وهل هى شيء كانت بوادره قد وقعت ؟ أم هل هى شيء لم يكن قد وقع بعد ولكنه سيقع فى المستقبل ؟

الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مثلا يرى أن الآية اذا كانت مكية (وهو مايعتقده لا فى الآية فقط ، بل فى السورة كلها) فان الاشارة فيها الى وقوع بعض الحوادث المؤلمة بقريش من جوع ومرض• ثم يعرض تفسير من قالوا بمدنيتها ، وهى أن الاشارة فيها الى سرايا المسلمين التى كانت تخرج لتهديد قريش ومن حولهم • وهو يرفض هـذا التفسير ، بحجة انه لم يتعارف على اطلاق اسم القارعة على موقعة القتال (٤٤٠)• وانا ، وان كنت أميل الى أن هـذه الآية ، كبقية السورة ، قد نزلت بمكة ، لا أوافق على هذا الاعتراض اللغوى ، اذ ليس المقصود بالقارعة على هذا التفسير ، فيما أرى ، هو موقعة القتال ذاتها ، بل الهزيمة اذا كانت ساحقة وغير متوقعة ، كتلك التى انقضت على الكفار فى بدر ، بل لااستبعد أن تكون الاشارة فعلا هنا الى الهزائم التى أخذت تتلاحق على قريش وحلفائها منذ موقعة بدر ، والتى لم يشذ عنها الا انتكاسة المسلمين فى " أحد " بعد أن كانوا قد أحرزوا نصرا مؤزرا فى بدايتها • ومع هذا فانى ارى أن الآية مكية • كل مافى الأمر انها نبوءة بماسيحدث فى المستقبل • واستخدام " المضارع فى القرآن لوصف الأحداث المقبلة ، حتى لو كان الفاصل الزمنى بينها وبين وقت نزول الوحى بشأنها بعيدا بعد يوم القيامة ومابعده من جنة ونار ، مما هو متعارف مشهور لايحتاج الى أن أسوق له الشواهد •

وانما قلت اننى أميل الى مكية الآية ، لما ورد فيها من كلمة " قارعة " ، التى راينا انها لم تات ، خارج سورة " الرعد " فى أى نص مدنى ، وكذلك لأنه ليس فيها اية اشارة الى أية غزوة من الغزوات ولا أية حادثة من حوادثها أو بقعة من البقع التى دارت عندها ••• الخ ، كما هو شأن الآيات التى نزلت فى تلك المواقع الحربية • وشيء ثالث ، وهو أن صدر الآية لايمكن أن يكون الا مكيا ، فهو يتحدث عن مطالبة الكفار فى مكة للرسول عليه السلام أن يأتيهم بمعجزة من السماء ، فهل يمكن أن تظل الآية بلا فاصلة تتسق مع بقية فواصل السورة الى أن تنزل بقيتها فى المدينة بعد لا ادرى كم من السنين ؟ استبعد هذا •

هذا عن " القارعة " ، فماذا عن " وعدالله " ؟

بعضهم يقول انه " فتح مكة " (٤٤١) ، وبعضهم يقول انه " يوم القيامة " (٤٤٢) • على أن الامام البقاعى يرى أن " وعد الله " هنا يمكن أن يكون هو النصر على جميع الكفرة ، فى زمن عيسى عليه السلام (٤٤٣) • ولا ادرى على أى مرتكز اعتمد البقاعى رحمه الله فى هذا التفسير ، فلايوجد فى القرآن وعد بهذا • على الأقل لايوجد وعد واضح • وهناك من يرى أن " وعد الله " هو موتهم • لكن هل ورد فى القرآن " وعد الله " بهذا المعنى ؟ الجواب : لم يحدث •

قد تتبعت المواضع التى وردت فيها فى القرآن عبارة " وعد الله " ، فوجدت انها لاتطرد فى معنى واحد : فتارة يقصد بها يوم القيامة وتصلية الكفار الجحيم • وتارة يقصد بها وعد الله رسوله بانزال العذاب بالكافرين ، ولكن من غير تحديد لنوع هذا العذاب • وتارة تكون اشارة الى وعد لم يرد فى القرآن ، كما فى قوله تعالى اثر انتكاسة " أحد " : " ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما اراكم ماتحبون " (٤٤٤) ، اذ لم يرد فى القرآن قبل ذلك وعد للؤمنين بأنهم سيحسون الكافرين (أى يقتلونهم) فى أحد •

اننا لو اخذنا بتفسير " وعد الله " بالقيامة ومابعدها لكان السؤال هو : " وهل سيظل فى مكة كفار منذ نزول هذه الآية الى يوم القيامة ، وهو مايقتضيه ظاهر الآية ؟ " لقد انقشع الكفر من مكة منذ الفتح ، ونرجو الا يعود اليها الى ابد الابدين •

اللهم الا اذا كان المقصود هم الكفار بوجه عام وليس كفار مكة أو الجزيرة • لكن سياق الآية لايساعد على هذا

التفسير • ومثل هذا الاعتراض يوجه الى تفسير " وعد الله " بنزول عيسى والقضاء على الكفار حينذاك •

كذلك لايمكن تفسير " وعد الله " هنا بأنه العذاب الذى وعد الله به الكفار واستعجلوه أكثر من مرة ، لأننا سواء فسرنا " القارعة " فى الآية بأنها الآلام التى كانت تحل بقريش من قحط او امراض (كما فى حالة السنين السبع الشداد التى مرت بهم) أو بالهزائم الثقيلة التى كانت تنزل بهم فى صدامهم مع المسلمين فمعنى ذلك أن العذاب قد شرع يقع بهم فعلا ، فكيف يكون ذلك وفى نفس الوقت يقال ان هذا العذاب لن يزال يصيبهم حتى يأتيهم العذاب ؟

يبدو لى أن أفضل شىء فى تفسير " وعد الله " فى الآية هو القضاء على الكفر فى مكة (بل وبلاد العرب كلها) فى عهد الرسول عليه السلام • ان الآية التى تلى هذه الآية تقول : ولقد استهزىء برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ؟ " ، وهذا معناه أن نهاية استهزاء كفار العرب بالرسول عليه السلام تشبه نهاية استهزاء الأمم الخالية برسلها • ونحن نعرف أن نهاية تلك الأمم كان باستئصالها وانتصار الرسل • واستئصالها يعنى استئصال الكفر ، الذى يمثلونه • ولما كان النبى عليه السلام قد أخبر فى أحاديثه أن الله لن يهلك قومه لم يبق أمامنا الا أن نقول ان التشابه بين مصير المستهزئين فى الحالتين هو فى القضاء على الكفر وانتصار رسالة السماء • وقد تكررت فى القرآن الاشارة الى الانتصار النهائى للرسول ودينه على كفر قومه منذ بواكير الوحى ، وبخاصة فيما قص من أخبار الرسل السابقين مع أممهم • وفى سورة " الرعد " نفسها اشارة الى " المثلات " التى خلت من قبل ، وهى تنكيل الله سبحانه بتلك الأمم الكافرة واهلاكها • وقد تحقق " وعد الله " بهذا المعنى ، وانمحق الكفر ، لامن قريش وحدها ، بل من الجزيرة كلها ، وسطع نور الاسلام متلألئا وهاجا على العالم كله ، وفتح البلاد ، واقام امبراطورية يرهب أعداؤها جانبها كل الرهبة • و " وعد الله " هنا هو الوعد الدنيوى الأعظم ، وليس الوعد بفتح مكة فقط ، فان فتح مكة ، على أهميته العظيمة ، انما كان خطوة على الطريق ، وان كانت خطوة قريبة من نهايته •هذا مابدا لى فى الآية ، والله أعلم •

ولقد استهزىء برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب ؟

هذه الآية تسلية للنبى عليه الصلاة والسلام مما كان يجده من عناد قومه وصلابة عقولهم وقسوة قلوبهم وانغلاقها دون دعوة الحق ونوره ، واستهزائهم بماجاءهم به • وقد تكررت الاشارة فى الوحى المكى الى استهزاء كفار مكة بالرسول عليه السلام • أما بعد الهجرة فقد ترك الرسول عليه السلام مكة ، ولم يعد ثمة احتكاك بالمشركين ، اللهم الا احتكاك القتال ، والقتال أمره أمر حياة أو موت ، فلا مجال فيه للاستهزاء ، وبخاصة أن صواعق الهزيمة والخزى كانت تنصب عليهم من كل جانب ، اللهم الا فى أحد مثلا (وحتى فى هذه الغزوة كادت الدائرة أن تدور على الكفار ، بل انهم فروا أمام جند الاسلام ، لولا مخالفة الرماة عن أمر الرسول عليه السلام رغم شدة تحذيره اياهم من ذلك وتنبه خالد بن الوليد لهذه الثغرة ومباغتته المسلمين وتحويله النصر الى نكسة مؤلمة) • الى جانب أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أصبح رئيس دولة له شوكة ومنعة ، وليس فردا مفردا فى وسط بحر من الكفر والأعداء السفهاء • لكن الأمر فى مكة كان مختلفا ، اذ كان المسلمون قلة ضعفاء ، ولم يكن لهم بين القبائل الأخرى عضد يحتمون به ، بل العكس هو الصحيح • وقد حاول الرسول عليه السلام أن يجرب مثلا حظه فى الطائف فرد ردا غير جميل ، وكان نصيبه القذف بالحجارة ومطاردته من قبل الصبيان والعبيد والسفهاء لايرعون لغربته ولا للجوئه اليهم حرمة ، لولا أنه لجأ الى بستان هناك • فكل هذا كان يغرى أهل مكة بأن يسخروا به ويستهزئوا • ولم لا وقد كانوا حمقى سفهاء ، ويرون ضعيفا عاجزا ، ولا احد يستطيع أن يردعهم عنه ردعا حاسما ؟ (٤٤٥)

ولكن السماء لمن تكن تتركه يعانى هذه الآلام والسفاهات السافلة ، بل كان الوحى يغاديه ويماسيه

مخففا عنه ، ومطمئنا له ، وواعدا اياه أن الأمر منته لامحالة بانتصاره وانتشار دينه وباندحار الشرك والطغيان واستسلام هؤلاء المستهزئين وذهاب ريحهم ، ولن ينفعهم حينئذ استهزاؤهم حين ينقلب الامر ويصبح المستهزىء هو المستهزأ به ويعلو وجهه قتام الخزى وهوان الهزيمة ، بالضبط كما حدث مع الرسل السابقين واممهم التى كانت تستهزىء بهم . وهذه هى بعض النصوص التى نزلت فى هذا الأمر :

" لقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزئون " (٤٤٦) .

" ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون" (٤٤٧).

" ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن : مايحبسه ؟ الا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون " (٤٤٨).

" ولقد ارسلنا من قبلك فى شيع الأولين * ومايأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون * كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين * لايؤمنون به وقد خلت سنه الأولين " (٤٤٩) .

" ... كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ماكانوا به يستزئون " (٤٥٠) .

وقد اتخذ استهزاء المشركين بالرسول الكريم صورا شتى ، فأحيانا ماكانوا يتحلقون حوله صلى الله عليه وسلم حين يقرأ القرآن فيحدثون ضجة وشوشرة بحيث لايسمعه أحد ، وذلك خوفا من أن يمس القرآن قلوب الناس فيؤمنوا به : " وقال الذين كفروا : لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون " (٤٥١) .

وأحيانا يتندرون بمايدعو اليه ، فاذا قال لهم : " اسجدوا للرحمن " قالوا فى استهزاء وسخرية : " وما الرحمن ؟ انسجد لما تأمرنا ؟ " (٤٥٢).

وأحيانا أخرى يتجاهلون اسمه ، وينادونه سفاهة بـ " يأيها الذى نزل عليه الذكر " ، ولا يكتفون بذلك بل يسبونه قائلين : " انك لمجنون " (٤٥٣) .

ومثله قولهم عنه متهكمين بمايقوله لهم عن البعث والقيامة : هل ننبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ؟ " (٤٥٤) .

وأحيانا يسمونه شاعرا ، يقصدون أن مايقوله لهم ليس وحيا سماويا ، ولكنه بنيات خيالات وأوهامه . ومثله وصفهم للقرآن بأنه اساطير الأولين .

وأحيانا يتهمونه بالكذب ، مع أنهم يعرفون جيدا مدى صدقه وأمانته ، ولكنها العداوة الجاهلة الحمقاء . وقد بين القرآن دافعهم الى هذا الاتهام ، اذ قال : " فانهم لايكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " (٤٥٥) .

وأحيانا مايطالبونه بأن يصعد مثلا الى السماء ثم ينزل ، مستدركين على ذلك كله بأنهم حتى لو فعل هذا فلن يؤمنوا به الا اذا جاء معه بكتاب يقراونه ، أو يطالبونه بأن يأتى لهم بالله والملائكة قبيلا ، أو يفجر الأرض ينبوعا ... الخ . وأحيانا يلحون عليه أن يأتيهم بالعذاب الذى توعدهم القرآن به . وأحيانا يقولون : ألم يجد الله الا هذا يجعله نبيا : " وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ " (٤٥٦) .

وأحيانا مايتصيدون كلمة من القرآن ويلوونها عن معناها ويجادلونه بها زاعمين أن القرآن يناقض بعضه بعضا : " ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون * وقالوا : آآلهتنا خير أم هوَ ؟ ماضربوه لك الا جدلا . بل هم قوم خصمون " (٤٥٧).

والاستهزاء ، كما يقول د. باجودة ، هو سلاح معنوى خطير (٤٥٨) . وهو لون من الدعاية يقصد به تحقير الخصم وتقليله فى نظر الجمهور حتى يفقدوا ثقتهم به وبدعوته وينفضوا عنه فلا يتأثروا بمايقول . والدول ، وبخاصة فى أوقات الحرب ، تنفق الأموال الطائلة الهائلة على أبواب الدعاية بغية تحطيم الروح المعنوية لدى العدو ، فيسهل بعد ذلك ضربه فى ميدان القتال . ان الثقة بالنفس هى أساس الصمود والنصر ، فاذا ضاعت فلا أمل . ومن هناك كان اهتمام القرآن بأن يواسى الرسول ويثبت قلبه فى مواجهة هذا الاستهزاء الفاجر الكافر الذى لم يكن يرجو لحرمة الحق الذى جاء به محمد عليه السلام ولا لامانته وصدقه ولا لماتربطهم به من صلة

الرحم والبلد الواحد وقارا ، ويبين له أن هذا كله فى ميزان التاريخ ليس الا فقاعة من هواء سرعان ماتنفجر ولايبقى لها من اثر ٠

وبعد أن سلى القرآن الرسول عليه السلام بان هذا الاستهزاء قد واجه الرسل اخوانه من قبل فلايبتئس ولايحزن ، مضى يعرفه صلى الله عليه وسلم أن سكوت العقاب عنهم ليس معناه ابدا انهم سيظلون مخلى سبيلهم هكذا بلا رادع ، بل ان لكل شيء حدا ونهاية ٠ ولوسوف ياتى الوقت الذى ينالون فيه جزاءهم ، ولسوف يكون جزاءا فظيعا يجعل منهم ، كالأمم التى خلت من قبلهم ، أمثولة فى العالمين : " فأمليت للكافرين ثم أخذتهم " ٠ وقد ورد " الأخذ فى القرآن الكريم كثيرا مرادا به الاهلاك ، وهو فى هذه الحالة ينسب عادة لله سبحانه أو للعذاب بصوره المختلفة من صيحة أو صاعقة أو رجفة :

" وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها بالباساء والضراء " (٤٥٩) ٠

" وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ٠ ان أخذه أليم شديد " (٤٦٠)٠

" وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها ، والى المصير " (٤٦١) ٠

" حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هو يجأرون " (٤٦٢) ٠

" ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ؟ " (٤٦٣) ٠

" وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ " (٤٦٤) ٠

" فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهم مليم " (٤٦٥) ٠

" فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا " (٤٦٦) ٠

" فقالوا : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم " (٤٦٧) ٠

" وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين " (٤٦٨) ٠

" فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين " (٤٦٩) ٠

" فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ٠ انه كان عذاب يوم عظيم " (٤٧٠) ٠

" فلبث فيه ألف سنة الا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " (٤٧١) ٠٠٠ الخ ٠

أما الاستفهام الذى عقب الأخذ واختتمت به الآية فهو استفهام تهويل وتقريع وتهديد وارهاب : " فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ " وليس استفهاما تعجبيا كما قال بعض المفسرين (٤٧٢) ، اذ لايعقل أن الله سبحانه يتعجب من فعله هو ٠ وقد قال بعض المفسرين الآخرين انه استفهام تعجيبى (٤٧٣) ، الا أن "التعجيب" هنا لايكفى، فالمسألة أنظع من أن يكون قصاراها اثارة التعجب عند السامعين ٠

ويلاحظ أن ختم الآية بمثل هذا السؤال قد تكرر فى القرآن عدة مرات ، وكان التركيب واحدا (الفاء + " كيف " الاستفهامية + كان + اسم كان (كلمة تدل على العذاب) + ياء المتكلم محذوفة) :

" فأمليت للكافرين ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير ؟ " (٤٧٤) ٠

" وكذب الذين من قبلهم ومابلغوا معشار ما آتيناهم ، فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير ؟" (٤٧٥) ٠

" ثم أخذت الذين كفروا ، فكيف كان نكير ؟ (٤٧٦) ٠

" وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ " (٤٧٧) ٠

" ولقد تركناها آية فهل من مذكر ؟ * فكيف كان عذابى ونذر ؟ " (٤٧٨) ٠

" كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ؟ " (٤٧٩) ٠

" انا أرسلنا ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابى ونذر ؟ " (٤٨٠) ٠

" فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر ؟ " (٤٨١) ٠

" ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟ " (٤٨٢) ٠

وكل هذه الآيات من المكي ماعدا آية سورة " الحج " ، التي لا أراها مع ذلك مدنية ، فهي ، كما سبق ان اشرت ، في تهديد أهل مكة بماجرى القرآن على تهديدهم به في الوحي ، رغم ان السورة نفسها في عمومها مدنية •

افمن هو قائم على كل نفس بماكسبت ... ؟ .

ورد هذا التركيب (المكون من " همزة الاستفهام + الفاء (او الواو) + من الموصولة مبتدأ + خبر ") في القرآن الكريم (كما قلنا من قبل في الفصل الاول من هذه الدراسة) في غير سورة " الرعد " خمس مرات ، وكلها من مكي القرآن ، وكلها في سياقات استنكارية وتقريعية • و " القائم على كل نفس بماكسبت " هو الله سبحانه وتعالى • ومعنى " القيام " هنا توليه لأمور خلقه واقداره اياهم على الكسب وحفظه لهم ومجازاتهم على عملهم (٤٨٣) ، لأن " القيام على الأمر " هو مراعاته وتدبيره والنهوض بعبئه • وقد وصف الله سبحانه ب " القيوم " في القرآن ثلاث مرات (٤٨٤) •

والآية هنا تقول ان قيوميته سبحانه غير مقتصرة على المخلوقات وحدهم بل تشمل اعمالهم ايضا ، فـ " الباء " في " بماكسبت " تفيد ماتفيده في قولنا مثلا : " اشتريت الدار بأثاثها " ، أي " واشتريت أثاثها ايضا " ، فلولا الله ماكانت المخلوقات ولا كانت أعمالهم ، اذ هو سبحانه الخالق لكل شيء والواهب المنان • اننا نحن البشر مثلا اذا كنا نتمتع ببعض القدرة والارادة فينبغي أن نوقن تماما أن ذلك ليس الا عطية منه عز وجل وعارية لو شاء لاستردت منا في التو واللحظة ، ولكنه ، فضلا منه وكرما ورحمة ، يرعانا نحن وأعمالنا ويحفظنا ويدبر امورنا •

وفي الكلام هنا حذف تقديره : " افمن هو قائم على كل نفس بماكسبت يصح الكفر والاشراك به ؟ " ، ولكن الآية لم تتم الجملة ، ربما اظهارا للاشمئزاز من عقيدتهم ومنطقهم ، وتحقيرا لأصنامهم ، فكأنها لم ترد أن تقرن ، فضلا عن أن تقارن ، بين الله والأصنام ، بل لم ترد أن تذكر الأصنام في هذا المقام أصلا •

ومن المفسرين من يظن أن المقصود ب " من هو قائم على كل نفس بماكسبت " هو الملائكة (٤٨٥) • وهو تفسير لايتسق مع سياق الكلام ، فالآيات هنا تتحدث عن الاشراك بالله سبحانه وعناد الكافرين واستهزائهم ورفضهم التسليم بوحدانية الله واخلاص العبادة له وحده ، واصرارهم على نزول المعجزات • ففي مثل هذا السياق لامدخل للملائكة• ثم ان الله سبحانه هو الذى يقوم على النفس، فهو القيوم • اما الملائكة فلم توصف في القرآن بالقيام على النفوس، بل ولا بالقيام أصلا ، اى انه لا السياق ولا أسلوب القرآن يقبل هذا التفسير •

وجعلوا لله شركاء .

جملة خبرية مقصودها هي أيضا الزراية والاستنكار • أى أنهم رغم ظهور الفرق جليا بين قيوم السماوات والأرض وبين هذه الحجارة والأخشاب قد جعلوا له عز شانه شركاء من هذه الأخشاب والحجارة • والمراد : فانظروا وتعجبوا من هؤلاء المطموسي العقول الذين لا يفقهون ولايستحون ؟ و " الواو " في " وجعلوا ... " استئنافية ، فقد توقفت الآية عن اكمال السؤال كما قلت احتقارا لعقيدتهم واشمئزازا منها ومنهم • ثم استأنفت الكلام بمعنى : " والعجب العاجب بعد ذلك كله أنهم جعلوا له عز شانه شركاء ! " أما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقد جعلها " واوا حالية " ، مع أن الجملة السابقة لها (وهي الجملة التي لم تتم) هي جملة استفهامية ، وليس قوله " وجعلوا لله شركاء " داخلا في الاستفهام ، وانما هو كلام مستأنف مقصود به التعجيب والاستنكار والزراية والتسخيف •

قل . سموهم .

معروف أن بعض الناس أحيانا مايقولون كلاما ويصدرون احكاما يتعمدون أن يجعلوها عامة غامضة ،

أملا منهم أن يقبلها السامع كما هى من غير تمحيص ولاتقليب ، فاذا سئلوا أن يوضحوا كلامهم بضرب أمثلة وتسمية من تصدق عليه هذه الأحكام تلجلجوا وتعثروا ، لانهم يعلمون أن مايقولونه باطل لايثبت على التوضيح وضرب الأمثلة • وكثير من الكتاب مثلا يذهبون فيطيلون القول ويشققون فى أفكار نظرية ، فاذا طلبت منهم أن ينزلوا الى دنيا الواقع ويدلوك على كيفية تطبيق هذه الأفكار لم يجدوا جوابا • ذلك أن الكلام النظرى ما أسهله ! والعبرة بالتطبيق وتسمية الأمثلة • فالآية هنا كأنها تقول : " من هؤلاء الذين تجعلونهم لله شركاء وتسوونهم به وهو الخالق الرازق القاهر فوق عباده ؟ أهى اللات ؟ أجيبوا • أهى العزى ؟ أهى مناة ؟ أهو هبل ؟ " ، اشارة الى أن هذه أحجار وأخشاب لاتعقل ولاتضر ولا تنفع ، ولايستطيع العقل ، لو سئل الحجة والبرهان ، أن يقدم من ذلك شيئا ، لأن هذه الشركاء ليست أكثر من أسماء لامضمون لها ولاحقيقة وراءها • يقول هود لقومه :" أتجادلوننى فى أسماء سميتموها انتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان " • (٤٨٦) •

ويقول يوسف عليه وعلى هود السلام : " ياصاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ * ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان " (٤٨٧) •

ويقول رب العزة مخاطبا قوم نبيه محمد ومشيرا فى تحقير وتهكم الى اللات والعزى ومناة ، تلك الأصنام التى كانوا يعبدونها ويشركونها بالله : " أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ * ألكم الذكر وله الأنثى ؟ * تلك اذن قسمة ضيزى * ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان • ان يتبعون الا الظن وماتهوى الأنفس" (٤٨٨) • والمعنى أنها مجرد كلام فى كلام ، وظنون وأوهام وأهواء ! فانيقوا أيها المشركون ان كنتم تعقلون !

أم تنبئونه بمالايعلم فى الأرض؟ .

المفسرون مختلفون فى الضمير الفاعل الذى فى " يعلم " : أهو عائد على الله سبحانه (٤٨٩) أم الى الاسم الموصول " ما " ، ومن ثم يكون المقصود به الصنم (والمعنى " الأصنام ") ؟ (٤٩٠) وقد وردت فى القرآن الكريم أيضا عبارة مشابهة لهذه ، وهى : " قل : أتنبئون الله بمالايعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟ (٤٩١) والملاحظ ، بعد استقراء المواضع التى استخدم القرآن فيها الفعل " نبأ " (فيما سوى هذين الموضعين محل الخلاف) أن " الباء " بعده لاتدخل على شخص أبدا بل على معنى من المعانى ، والأصنام ليست معنى حتى يقال : " تنبئون الله بها " ، بل هى أشياء مادية ، وفى نظر أصحابها آلهة • ونحن لانقول " نبأت فلانا بالآلهة " ولاحتى نبأته بالأصنام " • ثم مامعنى أن الأصنام لاتعلم فى الأرض ؟ ان هذا كلام ركيك لايعرفه الأسلوب العربى ولايحصل الانسان من ورائه شيئا الا بتعسف ، فان حذف مفعول العلم لايصح الا اذا قامت عليه قرينة ، كما فى الجواب عن مثل السؤال التالى : " هل تعلم شيئا عن الأمر ؟ " فاذا قال المسئول : " لا أعلم " كان التقدير مفهوما من السياق ومقبولا فى الذوق الأسلوبى كالعربى • أما أن يقال ابتداء : " أنا لا أعلم " من غير سياق يدلنا على المحذوف ، فضلا عن أن يقال : " لا أعلم فى الأرض" باثبات الجار والمجرور المتعلقين بالمفعول المحذوف فهذا ركيك مرفوض، تعالى أسلوب القرآن عن ذلك • وانما المعنى فى نظرى : ": أم تنبئون الله بمالاحقيقة له فى الأرض (ولا فى السماء أيضا) فيعلمه ، من زعمكم أن هذه الأصنام هى آلهة ؟ ومن ثم فان الضمير الفاعل لـ " يعلم " يعود الى رب العزة جل شانه • ويبدو لى أن الآية قد اقتصرت فى العبارة التى معنا الآن على نفى علم الله سبحانه بألوهية الأصنام على " الأرض" مضيا مع ماسبق من حذف بقية السؤال السابق اظهارا للتحقير • تريد أن تقول ان هذه الأصنام لاحقيقة لألوهيتها فى الأرض(تحت) ، فمابالكم بالسماوات (فوق ، فى العلا) ؟

أم بظاهر من القول .

أى " أم تنبئونه سبحانه وتعالى بظاهر من القول " ، والمعنى : أم تقولون مجرد كلام والسلام لامضمون

ل ولاحقيقة وراءه ؟ فـ " الظاهر" هو مانقول عنه اليوم : " سطحى " • وهذا أحد المعانى التى استخدمه فيها القرآن الكريم ، كما فى قوله تعالى :

" يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون " (٤٩٢) •

" نضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب " (٤٩٣) •

بل زين للذين كفروا مكرهم .

" بل " للاضراب ، والمعنى : " دعك من هذا كله فما فى حجاجهم طائل ، اذ ليس عندهم شىء ٠ وحقيقة الأمر أنهم قد زين لهم مكرهم " ٠ وقد ورد الفعل " زين " بالبناء للمفعول ، لأن الموقف ربما لايحتاج الى النص على من زين لهم مكرهم ، وكل مايهم هو ان نعرف أن ذلك هو الامر ٠

وعلى عادة المفسرين حين لايتركون صغيرة ولاكبيرة فى القرآن الا قلبوها ومحصوها على كل الأوجه نجد من يقول ان المزين هنا هو الله (٤٩٤) ، ومن يقول انه الشيطان (٤٩٥) ، ومن يقول انهم هم أنفسهم (٤٩٦) ، ومن يقول انهم أئمتهم فى الشرك (٤٩٧) ٠ ومنهم من ذكر (ولا أدرى كيف يستقيم الكلام ، وقد يكون ثم خطأ مطبعى) أن المزين هو الرسول والغواة (٤٩٨) ٠ وهناك من لم يتعرض لها (٤٩٩) ٠

وعلى عادتنا فى استفتاء منهج القرآن الاسلوبى فقد وجدنا أن الفاعل فى مثل هذه العبارة (فى حالة بنائها للمعلوم) هو الله سبحانه أو الشيطان ، والأخير هو الأكثر :

" ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون " (٥٠٠) ٠

" وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان اعمالهم " (٥٠١) ٠

" ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون " (٥٠٢) ٠

مرة واحدة أضيف " التزيين " الى شركاء المشركين ، ولكن يلاحظ أن التزيين لم يقع على " المكر " او " العمل " ، وهى معان عامة ، بل وقع على " قتل الأولاد " ، وهو شىء محدد ٠ ثم من شركاء المشركين ؟ الايمكن أن يكونوا هم الشياطين أيضا ؟ وهذا هو النص : " وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ؟ (٥٠٣) ٠

أما " النفس" فلم يرد فى القرآن أنها " تزين " لصاحبها شيئا ، بل ورد الآتى :

" ومأابرئ نفسى ٠ ان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى " (٥٠٤) ٠

" فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله " (٥٠٥) ٠

" وكذلك سولت لى نفسى " (٥٠٦) ٠

" قال : بل سولت لكم انفسكم أمرا " (٥٠٧) ٠

فالنفس فى القرآن " تسول " و " تطوع " و " تأمر " ، ولم يرد فيه انها " تزين " ، وانما يسند " التزيين " فيه الى الله سبحانه " أو الى " الشيطان " ٠ كما اسند التسويل " فى موضع الى الشيطان ، وذلك فى قوله تعالى : " ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم " (٥٠٨) ٠

وليس ثمة تعارض بين اسناد " التسويل " الى النفس فى مواضع واسناده الى الشيطان فى مواضع أخرى ، ولابين اسناد التزيين الى الله أحيانا واسناده هو ايضا فى أحيان أخرى الى الشيطان ، لأن ذلك راجع الى المستوى الذى نتحدث عنه أو الدائرة التى نقف داخلها ٠ فاذا حصرت نفسك فى أصغر الدوائر (أو وقفت على أدنى المستويات) نسبت التحريض الى النفس ، واذا ارتفعت قليلا وخرجت من هذه الدائرة الى دائرة أوسع قلت ان المحرض هو الشيطان ٠ أمااذا أردت أن ترجع بالأمر الى مصدره الأصلى قلت ان الله هو الذى زين عمل الكافرين أو مكرهم لهم ، فالله هو خالق كل شىء : خالق " الشيطان " و " النفس" و " المكر " و " العمل " و " التزيين " ٠ ولكنه سبحانه قد أعطى الشيطان المقدرة على التسويل والتزيين ، كما رزق النفس ذات الاستطاعة ٠ أو قل ان الله سبحانه خلق الشيطان ، والشيطان يزين للنفس المكر وعمل الشر ، فتسول النفس لصاحبها ذلك ٠ فان نسبت للنفس ذلك فأنت مصيب ، وان نسبته للشيطان فلامانع ، وان نسبته لله سبحانه فأنت على الحق المبين ٠ وقد فعل القرآن هذا وذاك وذلك ٠

فاذا سئلنا : " من فاعل التزيين ؟ " قلنا ان الأفضل تركه كما تركه القرآن ٠ أمااذا كان لابد من معرفته فالأفضل أن نقول انه هو الشيطان ، فقد لاحظت أنه فى المرتين اللتين اجتمع فيهما فى القرآن تزيين أعمال الكافرين وصدهم عن السبيل مع ظهور فاعل التزيين كان الشيطان هو المزين والصاد عن سبيل الله ٠ وهذه هى النصوص :

" وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل " (٥٠٩) .

" وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل " (٥١٠) .

و " المكر " هو ماكانوا يخططونه فى خبث ودناءة لواد الاسلام . وقد بين القرآن مرارا ان مكر الكافرين منته الى الاحباط والبوار ، وأنهم لايعرفون أن مكر الله هو المكر :

" وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، ومايمكرون الا بأنفسهم ومايشعرون " (٥١١) .

" أفأمنوا مكر الله ؟ فلايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون " (٥١٢).

" وقد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون " (٥١٣) .

" ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين " (٥١٤) .

" ومكر أولئك هو يبور " (٥١٥) .

" استكبارا فى الأرض ومكر السيء ، ولايحيق المكر السيء الا بأهله " (٥١٦) .

" فوقاه الله سيئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب " (٥١٧) .

بل ان السورة نفسها لتقول بعد عدة آيات قليلة ردا على مكرهم الذى زين لهم فظنوه مبلغهم أملهم :

" وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا " (٥١٨) .

وصدوا عن السبيل .

" السبيل " هنا هو " سبيل الله ، وذلك لسببين : أن فى المواضع التى قرن فيها القرآن الكريم بين " الصد " و " السبيل " عدة مرات ، وأضيفت فيها " السبيل " كانت اضافتها للفظ الجلالة دائما . والسبب الثانى أن الكفار لايمكن أن يصدوا عن سبيل الا سبيل الله . وقد أطلق " السبيل " هنا فلم يحدد بوصف أو اضافة على اعتبار أنه هوالسبيل الأوحد الذى لاسبيل غيره ، أو على اعتبار أنه ، وان تعددت السبل ، فان سبيلا واحدا فقط هو السبيل الحق (٥١٩) .

وقد استقصيت الآيات التى وردت فيها كلمة " السبيل " ، فوجدت لها المعانى التالية : " طريق السفر (ابن السبيل) ، وطريق المرور (عابرى سبيل) ، والحرج والمؤاخذة (ماعلى المحسنين من سبيل / انما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء) ، ومنفذ النجاة (فاعترفنا بذنوبنا ، فهل الى خروج من سبيل ؟) ، والهدى (سبيل الله / سبيل ربك/ سبيل المؤمنين / سبيل من أناب الى / سبيل الرشد / سبيل الرشاد / السبيل / سبل السلام) ، والضلالة (سبيل الطاغوت / سبيل المجرمين / سبيل المفسدين / سبيل الذين لايعلمون / سبيل الغى) .

وبالنسبة للصد عن السبيل فقد لاحظت كما قلت آنفا أنه فى المرتين اللتين اجتمع فيهما فى القرآن تزيين أعمال الكافرين وصدهم عن السبيل مع ظهور الفاعل كان الشيطان هو المزين والصاد ، فالأفضل حمله على الشيطان اذن .

ومن يضلل الله فماله من هاد .

بالنسبة لـ " الهداية" و " الاضلال " فان أسلم طريقة وأرجاها للوصول الى الحق هى الرجوع الى نصوص القرآن نفسه ، ففيها الهداية . ولنبدأ بـ " الهداية " .

لقد نسبت الهداية فى القرآن أكثر مانسبت الى الله سبحانه وتعالى ، وهذا معروف مشهور ، سواء مباشرة أو معلقة على المشيئة (الماضية أو المستقبلة). بيد أن هناك آيات كثيرة تبين أنه سبحانه يهدى من يستجيب وينيب . أما الكافرون الظالمون الفاسقون فانه لايهديهم . وهذه مجرد أمثلة :

" ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب " (٥٢٠) .

" ان الله لايهدى من هو كاذب كفار " (٥٢١) .

" كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم ؟ " (٥٢٢) .

" يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام " (٥٢٣) .

" ويهدى اليه من أناب " (٥٢٤) .

" ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا علىالآخرة ، وأن الله لايهدى القوم الكافرين " (٥٢٥) .

" ويهدى اليه من ينيب " (٥٢٦) .

" وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " (٥٢٧) .

" ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لايهدى القوم الكافرين " (٥٢٨).

وقد تكرر في القرآن أن "الله لايهدى القوم الكافرين " وأنه " لايهدى القوم الظالمين " وأنه " لايهدى القوم الفاسقين "

كذلك كثيرا مايستعمل القرآن فعل المطاوعة " اهتدى " ومشتقاته ومافى معناه ، وهو دليل على أن الهداية لاتتم بمعزل عن مشيئة العبد :

" فان آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا " (٥٢٩) .

" فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ " (٥٣٠) .

" ويزيد الله الذين اهتدوا هدى " (٥٣١) .

" والذين اهتدوا زادهم هدى " (٥٣٢) .

" ومن اهتدى فانما يهتدى لنفسه " (٥٣٣) .

" لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون " (٥٣٤) .

" ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين " (٥٣٥) .

" ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم " (٥٣٦) .

ليس هذا فقط ، بل أحيانا ماتنسب الهداية الى البشر ، من الرسل ومن غيرهم ، فموسى عليه السلام مثلا يقول لفرعون : " هل لك الى أن تزكى * واهديك الى ربك فتخشى ؟ " (٥٣٧) .

وابراهيم عليه السلام يقول لأبيه : " فاتبعنى أهدك صراطا سويا " (٥٣٨) .

والذى آمن من آل فرعون يقول لهم : " ياقوم ، اتبعون أهدكم سبيل الرشاد " (٥٣٩) .

ومن قوم موسى من قال الله عنهم : " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " (٥٤٠) ... وهكذا .

كما أن الهداية قد تنسب للقرآن ولعبرة التاريخ :

" ان القرآن يهدى للتى هى أقوم " (٥٤١) .

" انا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى الى الرشد فآمنا به " (٥٤٢) .

" أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ؟ " (٥٤٣) .

" أولم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ... ؟ " (٥٤٤) .

والآن الى الملاحظات الخاصة بالآيات التى تتحدث عن الضلال :

تكثر فى القرآن الكريم الآيات التى تنسب " الضلال " (٥٤٥) الى البشر من غير أن يسبقه ذكر " الاضلال " . وهذه الآيات تعد بالعشرات ، مما له دلالته .

وهناك آيات كثيرة أخرى تنسب " الاضلال " الى الله سبحانه ، ولكن الى جانبها أيضا آيات تبين أن الاضلال الالهى لم يكن جزافا ، بل كان للعبد مشيئة فى ذلك . ومن هذه الأخيرة :

" ومايضل به الا الفاسقين " (٥٤٦) .

" كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب " (٥٤٧) .

" كذلك يضل الله الكافرين " (٥٤٨) .

" ويضل الله الظالمين " (٥٤٩) .

" أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى " (٥٥٠) .

" يشترون الضلالة " (٥٥١) .

كما أن هناك آيات تنسب " الاضلال " للشيطان والبشر ، بل وللهوى والأصنام ايضا . وهذه أمثلة :

" شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير " (٥٥٢) .

" ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام " (٥٥٣) .

" فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ (٥٥٤)

" ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا " (٥٥٥) .

" ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك . ومايضلون الا انفسهم ، ومايضرونك من شيء " (٥٥٦) .

" ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا " (٥٥٧) .

" وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله " (٥٥٨) .

" وان كثير ليضلون بأهوائهم بغير علم " (٥٥٩) .

" ربنا ، ان تذرهم يضلوا عبادك " (٥٦٠) .

" ربنا ، ليضلوا عن سبيلك " (٥٦٢) .

" ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله " (٥٦٢) .

" رب ، انهن اضللن كثيرا من الناس" (٥٦٣) .

" وقد اضلوا (اى الأصنام) كثيرا " (٥٦٤) .

من هذا الاستعراض لآيات الهدى وتلك التى تتحدث عن الضلال والاضلال يتضح لنا انها متسقة تمام الاتساق مع آيات المشيئة التى سبق فى هذه الدراسة أن حللناها واستنبطنا منها الملاحظات الخاصة بتلك المسألة . لقد رأينا ان آيات المشيئة تجعل للعبد مشيئة ، وان كانت تقرر انها منبثقة عن مشيئة الله سبحانه . وكذلك هنا نرى أن آيات الهدى والضلالة تجعل للعبد مشيئة فى هداه وضلاله . كما أنها تقرر أنه متى يضل الله أحدا فلن يهديه مخلوق ، وذلك مثل قوله تعالى :

" أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا " (٥٦٥) .

" ومن يضل الله فماله من هاد (٥٦٦) .

" ومن يضلل الله فماله من سبيل " (٥٦٧) .

ذلك أن عوامل الضلال تكون قد كسبت الجولة . وعوامل الهدى كلها من خلق الله ومظهر لارادته ومشيئته ، ومن بينها ارادة العبد ، الذى يكون فى هذه الحالة مصرا غاية الاصرار على الكفر والعصيان ، كما اشارت الى ذلك آيات أخرى سلف الاستشهاد ببعضها .

لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة اشق .

بعض المفسرين يقدرون نعتا محذوفا بعد " عذاب " ، فيقولون : " لهم عذاب شاق فى الحياة الدنيا " (٥٦٨) . ومن الواضح انهم لما رأوا أن خبر " عذاب الآخرة " هو " اشق " ، اى افعل تفضيل قالوا ان افعل التفضيل يعنى أن طرفى المقارنة كلاهما شاق ، وأن احد الطرفين اشق من الآخر . وبعض المفسرين الآخرين يقولون ان كلمة " عذاب " قد نكرت تنكير تعظيم (٥٦٩) .

فأما بالنسبة للتفسير الأول فمن قال ان افعل التفضيل يعنى بالضرورة أن كلا من طرفى المقارنة يشتركان فى الاتصاف بالصفة التى وقع فيها التفضيل ؟ اننى قد اعطى انسانا " قليلا " من المال ، ثم أقول له : غدا أعطيك " أكثر " من هذا . كذلك قد أكون مبغضا لانسان ما ، فاذا سألنى : هل احب أكثر من فلان او احب فلانا أكثر منه ؟ قلت : بل أحب فلانا " أكثر " منك . ومن الواضح أن المال الذى اعطيته للشخص الأول قليل ، واننى لا

أحب الثاني البتة ، أى أن المال الذى أعطيته للأول لايشترك مع المال الذى ساعطيه له فى الغد فى الكثرة ، وكذلك حبي للثاني غير موجود أصلا ، وبالتالي فلايمكن ان يكون مشتركا مع حبي للشخص الذى قارنته به في شيء ، فضلا عن أن يكون مشتركا معه فى صفة " الكثرة " . وعلى هذا فلاضرورة لتقدير كلمة " شاق " نعتا لكلمة " عذاب" . كذلك لاحظت أن القرآن نادرا مايستعمل كلمة " عذاب " منكرة غير موصوفة فى الحالة التى لاتكون فيها تمييزا . ولعله لم يستعملها كذلك الا فى النصوص الآتية من بين عشرات المواضع التى استعملها فيها معرفة (موصوفة أو غير موصوفة) أو نكرة موصوفة (هكذا : " عذاب شديد / عذاب اليم / عذاب مهين / عذاب عظيم ... الخ ") :

" ياأبت ، اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا " (٥٧٠) .

" قال لهم (أى للسحرة) موسى : ويلكم ! لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب " (٥٧١).

" ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى " (٥٧٢) .

" وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب " (٥٧٣) .

" فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا " (٥٧٤) .

" فصب عليهم ربك سوط عذاب " (٥٧٥) .

والملاحظ أن كلمة " عذاب " فى أى منها لاتفيد التعظيم ، ولايسوغ تقدير نعت لها محذوف ، بل تفيد مطلق العذاب ، أو قصد بها تجهيله حتى يذهب الخيال فى تصوره كل مذهب فيحتار ويضطرب . ويبدو لى أن حمل " عذاب " فى الآية على المعنى الثانى أسلم وأدنى الى اصابة المراد . ولو كان القرآن يريد وصف " عذاب " هنا بـ " شاق " لأظهر هذاالوصف اظهارا ، جريا على سنته فى ذلك ، فضلا عن انه لم يرد فى القرآن البتة وصف العذاب باسم الفاعل " شاق " ، بل لم ترد هذه الكلمة فيه أصلا . وعلى هذا فقوله : " ولعذاب الآخرة أشق " معناه أنه سيكون شديد المشقة بدرجة أكبر مما يتصورون .

هذا وقد تنبه البقاعى ، رحمه الله ، الى أن " المشقة " هى غلظ الأمر علىالنفس بما يكاد يصدع القلب ، يقصد أن " المشقة " تشق القلب (٥٧٦) . وهى دقيقة أسلوبية من لطائف الذوق النقدى .

ولكن ماعذاب الحياة الدنيا الذى أشارت اليه الآية ؟

لقد قلنا ان الآية قد نكرته ليذهب الخيال فى محاولة تصوره كل مذهب فيحتار . وعلى هذا فالأفضل عدم محاولة تحديده . ولاشك أن ارادة الله لايعجزها شيء ، ومقدرته مطلقة ، وقوته فوق جميع القوى والقدر . ويدخل فى ذلك هزائم المشركين فى معظم الغزوات ومافيها من أسر وقتل وخزى وهوان وفقدان للأموال التى يحبونها حبا جما وثكل للأولاد والأحباب والتضييق عليهم فى طرق تجارتهم ... الخ .

ومالهم من الله من واق .

" واق " هنا مطلقة ، وبالتالى فهى تصدق على الأشخاص والأشياء التى يمكن أن تقى الانسان ، اى انهم ليس لهم من ولا ما يحميهم من الله : لا الأصنام ولا الشفعاء ولا الاعتذار ولا المال ... الخ . وقد قدر بعضالمفسرين مضافا للفظ الجلالة محذوفا هكذا : " ومالهم من عذاب الله من واق ") (٥٧٧) . وأعتقد ان تقدير مضاف هنا يهبط بقوة التهديد درجات ، اذ انه يجعل التهديد بعذاب الله . أما اجراء العبارة على ظاهرها فمعناه أن الآية تهدد الكافرين بالله نفسه لا بعذابه . ولاشك ان التهديد بالله هو الذروة فى التهديد ، اذ ليس يساوى الله اى شيء آخر ، حتى ولاعذابه ، فهو الخالق ، وأى شيء آخر هو احد مخلوقاته . وأين المخلوق من الخالق ؟ ان معناه أن الله هو الذى يطلبهم ، ومن ذا الذى يقدر على الثبات له سبحانه ؟

و " من " (فى قوله " من واق ") هو مايسميه النحويون خطا " حرف جر زائدا " . وليس فى الكلام أية زيادة ، والا كان وجود الحرف فى العبارة وعدمه سواء ، وهو مالايقول به من يتذوق الأساليب ويحس بالفروق بين شياتها المختلفة . ان " من " هنا مؤكدة . وذلك أن معنى الكلام " ومالهم من الآية (جزء) من واق " ،

واذا لمن يكن لهم ولاجزء واق ، فمعنى هذا أنه لايمكن ان يوجد أبدا اى " واق " كامل ، لان انتفاء وجود الجزء معناه انتفاء وجود الكل من باب أولى ٠

مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار .

استخدم القرآن كلمة " مثل " فى مثل هذا التركيب مرات غير قليلة ٠ والملاحظ أن العبارات التى وردت فيها هذه الكلمة فى القرآن قد جاءت بعدة تراكيب : فقد تأتى هكذا : " فمثله كمثل الكلب " (٥٧٨) (بتكرير " مثل " مرتين : الأولى مبتدأ ، والثانية مجرورة بـ " الكاف " ، والجار والمجرور خبر) ٠

وقد تأتى هكذا " انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء " (٥٧٩) : (انما + مثل الـ ٠٠٠ + كـ ٠٠٠) ٠

أو تأتى على النحو التالى : " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء" (٥٨٠) : اضرب ٠٠٠ + مثل الـ ٠٠٠ + كـ ٠٠٠) ٠

أو هكذا : " كمثل الشيطان اذ قال للانسان : اكفر ٠ فلما كفر قال : انى برىء منك " (٥٨١) : بحذف " مثل " الأولى) ٠

أو هكذا : " مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن " (٥٨٢) (بـ " مثل " واحدة فقط ، لأن المراد هنا ليس هو التشبيه ، بل وصف الجنة كما هى)٠

وهذه العبارة التى بين أيدينا والعبارة السابقة هما الوحيدتان من نوعهما فى القرآن كله ٠ وهما ، كما ترى ، خاصتان بالجنة ، أى أن الجنة فى القرآن لم يمثل لها بشىء آخر ٠

و " مثل الجنة " معناها " صفة الجنة " ٠ وفى كل التراكيب التى أوردتها هنا قد وردت الكلمة بهذا المعنى ، كما هو واضح ٠ أما قول بعض المفسرين ان معنى " المثل " هو " الشبه " فليس صحيحا ٠ وانما الذى يعنى " الشبه " (على الأقل فى القرآن ، وهو الذى يعنينا هنا) هو لفظ " مثل " (بكسر فسكون) ، ثم هل يقبل أن نقول ان " شبه الجنة ٠٠٠ تجرى من تحتها الأنهار " ؟ (٥٨٣) كذلك فان دعوى فريق المفسرين القائلين بأن " مثل " هنا مقحمة هى دعوى لاتستند الى اى اساس ، وتتجاهل استعمال القرآن لها كثيرا بمعنى " الصفة " فى هذا السياق وغيره ، كما سلف القول (٥٨٤) ٠

أما عبدالله يوسف على فقد ترجمها بكلمة " Parable " ، وهى القصة الرمزية التوضيحية مع أنه ليس فى الآيات شىء من هذا النوع ٠ اننا هنا لابصدد قصة (رمزية أو غير رمزية) ، بل بصدد وصف لبعض مافى الجنة من نعيم ٠

و " مثل " مبتدأ ، و " الجنة " مضاف اليه ، والخبر هو قوله تعالى : " تجرى من تحتها الأنهار " ٠

وقد قال بعض المفسرين ان هذا كقولنا : " صفة زيد أسمر " (٥٨٥) ، يقصدون أن المعنى :" صفة زيد انه اسمر " ، و " صفة الجنة ٠٠٠ أنها تجرى من تحتها الأنهار " ٠

والملاحظ بالنسبة لقوله تعالى : " تجرى من تحتها الأنهار " انه لم يرد فى القرآن جرى الأنهار الا " من " تحت من أو ماتجرى تحته (تكرر ذلك نحو أربعين مرة) ،اللهم الا فى موضع واحد وردت فيه هذه العبارة من غير حرف الجر " من " ، وذلك فى قوله سبحانه : " واعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا " (٥٨٦) ٠ وقد حاول البقاعى تفسير وجود حرف الجر فى الآية قبل " تحت " ، فقال مامعناه أن القرآن لو لم يدخل عليها حرف الجر لدل ذلك على أن الماء يعمها كلها ، مما يجعلها بحرا لا بساتين ، أما دخول حرف الجر فقد دل على أن الماء خاص ببعض أرضيها (٥٨٧) ٠ لكن يرد هذا ما أشرت اليه من قبل من أنه قد جاء فى موضع من القرآن قوله : " واعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار " (من غير حرف الجر) ٠ كما ورد هذا أيضا فى قوله سبحانه عن مريم : " قد جعل ربك تحتك سريا " (٥٨٨) ٠ فماالقول فى ذلك ؟

يبدو لى ، والله أعلم ، أن حرف الجر هنا قد ورد بمعناه الأصلى ، وهو الابتداء ،أى أن هذه الأنهار تنبع من تحت الأرض ، ولا تأتى من سيول وأمطار تهطل من السماء على الجنان وساكنيها ، والا لتأذوا من ذلك

تأذيا شديدا ، مما يناقض صفة الجنة وأنها دار السعادة والنعيم . أما قوله فى سورة " التوبة " : " تجرى تحتها الأنهار " (من غير " من ") فلايناقض هذا ، اذ هوة لايشير الى الجهة التى يأتى منها الماء ، وانما ينص فقط على أن هذه الأنهار تجرى تحت الأشجار والمستظلين بها .

وقد مرت كلمة " أكل " فى السورة من قبل . واستحدام هذه الكلمة مرتين فى السورة (مرة فى أوائل السورة ، ومرة قرب نهايتها) ، وهى من الكلمات القليلة الورود فى القرآن ، هو أحد الروابط التى تشد أجزاء السورة بعضها الى بعض وتهبها وحدتها .

وفى قوله تعالى : " أكلها دائم " اشارة الى أن الجنة لن تجرى على القوانين التى نعرفها فى هذه الدنيا ، فثمار الدنيا وفواكهها لها موسمها الذى تنقطع بعده الى أن يدور العام ويعود الموسم فتعود ثماره وفواكهه . وقد ورد هذا المعنى أيضا فى قوله تعالى : " وفاكهة كثيرة * لامقطوعة ولا ممنوعة " (٥٨٩) . كما ان خمر الجنة لاتصدع الرأس ولاتنزف العقل ، على عكس خمر الدنيا . وايضا فمن صفات الجنة أن أهلها " لايرون فيها شمسا ولازمهريرا " (٥٩٠) وأن نساءها قد جعلهن الله " ابكارا * عربا أترابا " (٥٩١) ... الخ . وهذا كله على خلاف أحوال الدنيا . ولعل هذا هو ماالمح اليه القرآن فى قوله تعالى عن يوم القيامة :" يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات " (٥٩٢) .

ونفس ماقيل عن ديمومة أكل الجنة يقال عن ظلها ، فهو لايحول ، بل تبقى ملفوفة فيه . وقد ورد فى آية سورة " الانسان " التى استشهدت بها لتوى أن أصحاب الجنة لايرون فيها شمسا ولازمهريرا . أما كيف سيكون ذلك ؟ وهل هو بسبب عدم وجود الشمس أصلا ، أو بسبب تشابك أغصان الأشجار كما قال الألوسى ؟ ان هذا الأمر قد سكت عنه القرآن ، وهو من أمور الغيب ، ولذا فمن الأفضل أن نسكت عنه نحن أيضا .

ويعرب " ظلها " مبتدأ لخبر محذوف ، وتقدير الكلام هو : " أكلها دائم وظلها كذلك " .

تلك عقبى الذين اتقوا .

الـ " عقبى " هى الأمر الذى يعقب أمرا آخرا . والمقصود هنا أن نهايتهم التى ستعقب ايمانهم فى الدنيا وتقواهم ربهم هى لذائذ الجنة ونعيمها السرمدى الصافى .

والتقوى هى خشية الله واستفراغ العبد وسعه فى اقامة الحواجز التى تقيه عذاب الله ، أى تحول بينه وبينه .

والفعل " اتقى " على وزن " افتعل " ، بعد ابدال فاء الفعل (وهى " الواو ") تاء وادغامها فى التاء الزائدة .

وقد سبق أن قالت الآية السابقة عن الكافرين انهم " مالهم من الله من واق " . وهذه الآية تتحدث عن المؤمنين المطيعين بوصفهم " الذين اتقوا " . وهذه مقابلة : أولئك ليس لهم شىء يقيهم من الله ، وهؤلاء بايمانهم وأعمالهم الصالحة قد وقوا انفسهم . ومن شأن المقابلة ابراز مصير الفريقين ، فالضد يظهر الضد أوضح مايكون .

وعقبى الكافرين النار .

الملاحظ انه على حين فصلت الآية بعض التفصيل فى جزاء المؤمنين نجد أنها قد أوجزت فى كلمة واحدة (هى كلمة " النار ") جزاء الكافرين . وهذا ليس مقصورا على هذه الآية ، اذ لم يذكر فى السورة من تفصيلات العذاب الأخروى الذى ادخره الله للكافرين الا الأغلال التى ستكون فى أعناقهم يوم القيامه . أما المؤمنون فقد وضحت السورة أنهم سيدخلون الجنة مع الصالحين من أزواجهم وذرياتهم ، وأن الملائكة سيدخلون عليهم من كل باب بالسلام جزاء صبرهم فى الدنيا . وهنا فى هذه الآية نجد جنات تجرى من تحتها الأنهار ذات أكل وظل دائمين .

كما يلاحظ أنه على حين وقعت " عقبى " فى جملة " تلك عقبى الذين اتقوا " خبرا فانها وقعت مبتدأ

فى الجملة التى تليها ، وبهذا يكون التقابل بين المؤمنين والكافرين غير مقصور على مصيرهما بل يشمل حتى تركيب الجملتين اللتين تتحدثان عن هذا المصير ٠

والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك .

قلنا ان هذه السورة قد نزلت في مكة ٠ وقد كان بنو اسرائيل في يثرب قبل الهجرة ينتظرون بعثة نبى ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ٠ اما بعد الهجرة فقد كفروا بهذا الرسول حينما جاءهم يثرب ودعاهم الى الدخول فى الدين الذى بعث به ٠ وعلى هذا فقد يكون فرح الذين أوتوا الكتاب المذكور هنا هو انتظارهم لظهور بنى اسرائيل واستفتاحهم به على الذين كفروا ٠ كذلك فان بعضا من اهل الكتاب كان يسكن مكة ، وآمن بالنبى عليه الصلاة والسلام ، ومنهم ورقة بن نوفل وصهيب الرومى وغيرهما ، علاوة على من آمن به من اهل الكتاب يهودا كانوا أو نصارى بعد ذلك ، وهم جد كثير ٠ هذا اذا فسرنا " الذين آتيناهم الكتاب " باليهود والنصارى ، اما اذا قلنا مع قتادة والطبرسى ان الكلام هنا عن المسلمين (٥٩٣) فيكون المعنى ان عندك أيها النبى من يفرح بما انزل عليك ، فلاتبتئس بكفر الكافرين ، اذ ان وجود هؤلاء المؤمنين والتفافهم حولك وسرورهم بماينزل عليك من قرآن حرى أن يذهب عن نفسك الضيق والهم الناشئين من عناد المعاندين ٠ ولكنى أرجح المعنى الأول ، لأن تعبير " الذين آتيناهم الكتاب " لم يستخدمه القرآن للمسلمين ، بل لأهل الكتاب ٠

ومن الاحزاب من ينكر بعضه .

الاحزاب هم من تحزبوا على عداوة الاسلام ونبيه ٠ وكان الأحزاب في مكة هم كفار قريش ومن والاهم ٠ اما فى المدينة فقد انضم لعداوة رسول الله عليه السلام ودينه يهودها ٠ ومادمنا قد قلنا ان السورة مكية فانى ارجح أن المقصود بـ " الأحزاب " هنا هم كفار مكة ومن شايعهم ٠ ولا أوافق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الذى يرجح أن يكون المراد بالاحزاب احزاب الذين أوتوا الكتاب ، اعتمادا على وصفهم بهذه الكلمة فى قوله تعالى : " فاختلفت الاحزاب من بينهم " (٥٩٤) ٠ وسبب مخالفتى له هو أن "الاحزاب " فى الآيةالتى ذكرها هى أحزاب النصارى الذين تفرقوا فرقا مختلفة في موقفهم من عيسى عليه السلام وعلاقته بربه ، ولاعلاقة لذلك بتحزب أهل الكتاب ضد الاسلام ٠

والى جانب هذا فقد وصف القرآن الكريم بهذه اللفظة (لفظة " الأحزاب ") الكفارالذين عصوا رسلهم فى الأزمنة الخالية ، والذين يستشهد القرآن بهم دائما كلما هدد كفار مكة وحلفاءهم ، مما يدل على أن هذه الكلمة تشمل أيضا قريشا واشياعها ٠ قال تعالى :

" كذبت قبلهم قوم نوح وعاد فرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب " (٥٩٥) ٠
" كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم " (٥٩٦) ٠
" وقال الذى آمن : ياقوم ، انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب " (٥٩٧) ٠

بل ان القرآن الكريم قد نصعلى تسمية قريش والقبائل الوثنية التى عاونتها على مهاجمةالمدينة فى غزوة " الخندق " بـ " الأحزاب " ٠ وعلى رغم ماقلته من أن اليهود فى العهد المدنى قد انضموا هم أيضا الى الجبهة المعادية للاسلام فان السياق الذى استخدمت فيه هذه اللفظة فى الآيات التى نزلت بحق تلك الغزوة يبين أن المقصود بها قريش والقبائل الوثنية فقط ٠ من ذلك مثلا قوله عن المنافقين : " يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ٠ وان يات الأحزاب يودوا لو انهم بادون فى الأعراب يسألون عن ابنائكم " (٥٩٨) ٠ فلو كان اليهود داخلين فى الأحزاب لما قال : " يذهبوا (اى الأحزاب) "و " ان يات الأحزاب " ، لأن اليهود لا أتوا ولاذهبوا ، لأنهم كانوا جزءا من سكان يثرب ، بل الذين أتوا وذهبوا هم قريش والقبائل العربية من غير سكان يثرب ٠

كذلك فان القرآن هنا قد أسند الانكار الى من سماهم " الأحزاب " ٠ والملاحظ انه لم يسند " انكار "

دعوة الحق فى أى موضع منه الا الى مشركى مكة ومن وقف فى صفهم • وهذه هى المواضع التى ورد فيها ذلك " الانكار " فى القرآن :

" ويريكم آياته ، فأى آيات الله تنكرون ؟ " (٥٩٩) •

" يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون " (٦٠٠) •

" وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، فأنتم له منكرون ؟ " (٦٠١) •

" أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ " (٦٠٢) •

" فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون " (٦٠٣) •

لذلك كله أرى أن " الأحزاب " هنا هم كفار مكة ومن لف لفهم فى تلك الفترة • وانكارهم بعض ما أنزل الى الرسول عليه السلام ربما قصد به أنهم يؤمنون بوجود الله ولايؤمنون بوحدانيته ولا بالمعاد اليه ، وانهم يقبلون بعض أسماء الله سبحانه ويرفضون بعضها الآخر ، كالرحمن •

قل . انما أمرت ان اعبد الله ولا اشرك به .

قلنا ان كثرة مجىء " قل " فى القرآن تدل على أن السماء لم تكن تترك الرسول عليه الصلاة والسلام وحده يجابه مايستجد من المواقف المزعجة ، وانما كانت تمده بالجواب أو التوجيه المطلوب • والمعروف أن كفار مكة قد عرضوا على الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيما عرضوا عليه ، أن يعبد آلهتهم فينضموا الى دينه ، أى أن يتنازل كل من الطرفين عن بعض عقيدته • ولكن القرآن كان لهذا الاقتراح وأمثاله بالمرصاد ، فكان يحذر الرسول عليه السلام من هذه الفخاخ الخبيثة ، ويقوى عزمه على الاستمساك بالحنيفية البيضاء السمحة • وقد كان الكفار ، فى محاولاتهم الدائبة فل صلابته عليه السلام ، يحاجونه باشراك النصارى لعيسى فى عبادتهم لله • فهذه الآية تأمرالرسول عليه السلام أن يرد عليهم فى وضوح قاطع : " انما أمرت أن اعبد الله ولا اشرك به " ، هكذا بصيغة القصر ، اى لم اومر الا بالوحدانية ، أما اى شى آخر غيرها فهو مرفوض تماما • وهذا هو الموقف المبدئى والمنطقى ، لأنه لو وافقهم الرسول على ماكانوا يحاولون أن يسولوه له فما الداعى الى الاتيان بعقيدة جديدة اذن ؟ لقد كانوا يؤمنون بالله ويشركون به أصنامهم وأوثانهم ، فاذا وافقهم محمد على هذا فما الجديد فى الأمر اذن ؟

وهذا التوجيه الالهى للرسول عليه السلام بأن يعلن أنه يعبد الله وحده ولايشرك به قد تكرر فى القرآن غير قليل من المرات ، وكلها (اذا تركنا آيتنا الحالية الآن) من الوحى المكى الخاص بتوجيه الرسول للرد على محاولات المشركين اغراءه عليه السلام بالتساهل فى عقيدة الوحدانية ، مما يطمئننى أن تفسيرى للآية التى بين يدى تفسير سليم • قال تعالى :

" قل : انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله " (٦٠٤) •

" قل : " ياأيها الناس ، ان كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم " (٦٠٥) •

" انما أمرت أن اعبد رب هذ البلدة الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين " (٦٠٦) •

" قل : انى امرت أن اعبد الله مخلصا له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين " (٦٠٧) •

" قل : الله أعبد مخلصا له دينى * فاعبدوا ماشئتم من دونه " (٦٠٨) •

" قل : أفغير الله تأمرونى اعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك : لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من المشركين * بل الله اعبد وكن من الشاكرين " (٦٠٩) •

" قل : انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ، وأمرت ان اسلم لرب العالمين " (٦١٠) •

" قل : ياأيها الكافرون * لاأعبد ماتعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ماعبدتم * ولا انتم عابدون مااعبد * لكم دينكم ولى دين " (٦١١) •

اليه ادعو ، واليه مآب .

هذا قصر معناه : " اليه هو لا الى غيره ،ولا الى أحد آخر معه ، دعوتى ومآبى " • وهذه هى عقيدة التوحيد • فأما " الدعوة الى الله " فمفهومة • وأما " المآب " فانها تحتمل أن يكون المقصود أنه سبحانه هو مرجع الرسول عليه السلام ، لايصدر عن أمر الا منه عز وجل ، كما تحتمل أن يكون المقصود أن الاياب يوم القيامة انما هو اليه ، فهو الذى سيبعث ، وهو الذى سيحشر ، وهو الذى سيحاسب ، وهو الذى سيثيب ويعاقب • ومن هنا فانى أرى عدم اقتصارها على أحد المعنيين المحتملين ، جريا على منهجى فى تفسير الآيات المحتملة لأكثر من معنى مادامت كلها تتمشى مع مبادىء الاسلام وروحه وتشريعاته ومادام السياق يقبلها جميعا •

و " مآب " هى " مآبى " ، حذفت منها ياء المتكلم • ويكثر ذلك فى فواصل الآيات ليتم الاتساق الموسيقى بينها • ومع ذلك فهو غير مقصور عليها ، بل ياتى أحيانا فى درج الآية ، كما سبق أن أوضحت واستشهدت •

وكذلك انزلناه حكما عربيا .

أى واضحا لا لبس فيه ، فالدعوة الى توحيد الله قد اتت فيه قاطعة حاسمة لاتحتمل تاويلا ولاترددا • وعلى هذا فـ " كذلك " معناها هنا : " على عقيدة التوحيد التى أكدتها الآية السابقة " • و " حكا عربيا " معناها : " الحكمة الحقة مصبوبة فى لسان عربى مبين لاعوج فيه ولاغموض• فالحذر الحذر من اتباع أهواء أولئك المشركين ، فليس والحالة هذه من عذر ، أى عذر " • ولم أر أحدا ممن رجعت اليهم فسر العبارة هذا التفسير •

ولئن اتبعت اهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق .

هذا تحذير الهى للرسول عليه الصلاة والسلام من أن يتاثر باقتراحات المشركين الوثنية بعد ماجاءته العقيدة الحقة • ومثل هذه العبارة ، وفى القرآن عدد غير قليل منها ، هو مايدل على أن هذا القرآن لايمكن أن يكون من عند الرسول عليه السلام ، اذ أنه لم يكن ليخاطب نفسه على هذا النحو • انما هذا هو الصوت الالهى يحذر ويوجه ويوضح وينور • وليس معنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام كان يمكن أن يقع فى هذا الشرك ، لكن هذا أسلوب القرآن فى توجيه المسلمين وتربيتهم•

وعبارة " مالك من الله من ولى ولا واق " تحتمل تفسيرين : الأول أن يكون معناها كما قال بعض المفسرين أنه ليس لك ولى ينصرك من دون الله ولا واق يقيك منه (٦١٢) • وهذا التفسير يقوم على أساس أن " من " الداخلة على " الله " معناها " ضد " ، وهو ما ترجمها به المرحوم عبدالله يوسف على ، اذ نقلها الى الانجليزية هكذا : " against God " • والثانى أن يكون المعنى أنك لن تجد الله ناصرا لك أو واقيا ، على أساس أن " من " هنا للتجريد • وياهلاك من لم ينصره الله ووكله الى نفسه ! وهذا التفسير الثانى لم أجده فى أى من التفاسير التى رجعت اليها •

ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية .

تقول أساب النزول ان اليهود كانت تعير النبى عليه الصلاة والسلام بأن النساء يشغلنه ، مما لاينبغى لنبى حقيقى ، فنزلت هذه الآية • وهى اذن مدنية • وقد نفهم أن يكون هذا تفسيرا لورود كلمة " ازواج " هنا ، اذ لم يكثر النبى من الزوجات الا فى يثرب ، ولكن لم ذكرت " الذرية " فى الآية ؟ ان النبى عليه السلام قد أنجب ذريته كلها(الا ابراهيم) فى مكة (من خديجة رضى الله عنها) • أما فى المدينة فلم يرزق الا بابراهيم ، الذى سرعان ماانتقل الى جوار ربه وهو طفل جد صغير • أتراهم كانوا يعيرون ايضا بأنه يهدف

من وراء كثرة زوجاته الى الاكثار من الذرية ؟ ربما .

ولكن قبل ذلك كان الكفار فى مكة يعترضون عليه صلى الله عليه وسلم بأن النبوة والبشرية لاتجتمعان :

" وقالوا : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ؟ " (٦١٣) .

" وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق " (٦١٤) .

" ومامنع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ * قل : لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا " (٦١٥) .

أفيكون كفار قريش ، كما اعترضوا عليه بانه بشر كبقية البشر يأكل ويشرب ويمشى فى الأسواق ، قد اعترضوا عليه كذلك بأنه كسائر البشر له زوجة وذرية ؟ ممكن جدا ، وبخاصة أن البغوى قد أشار الى هذا (وان كان قد استخدم له صيغة " قيل ") (٦١٦) . فضلا عن أن الاشارة الى ارسال الرسل من قبله وأنه ليس بدعا بينهم قد تكررت فى الوحى المكى اكثر مما تكررت فى المدنى .

نقطة اخرى احب ان الفت النظر اليها هنا ، وهى أن من عوامل تماسك هذه السورة هذا التجاوب بين ذكر " الأزواج والذرية " هنا وذكرهم من قبل فى الآية ٢٣ من نفس السورة .

وماكان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله .

معنى الكلام هنا هو معناه فى قوله تعالى ، تعقيبا على قول الكفار (فى الآية ٧ من السورة) ، لولا أنزل عليه آية من ربه " : " انما أنت منذر " . فهنا أيضا يقول القرآن ان انزال الآيات أو عدم انزالها انما هو من شأن الله وحده . أما الرسول فليس عليه الا أن يبلغ ما أوحى اليه وينذر قومه به . وهذا يتمشى مع أمر اللهنبيه أن يقول كلما طلب المشركون اليه آية : " سبحان ربى ! هل كنت الا بشرا رسولا ؟ " (٦١٧) . . وقد أعلن القرآن الكريم ان الله لن يستجيب لطلب الكفار من الرسول أن يأتيهم بالمعجزات ، لأنه قد تكرر كفر الامم التى طلبتها من قبل فحق عليها الاستئصال الالهى .

وعبارة : " وماكان لرسول أن ... " معناها ان ذلك ليس فى مستطاعه ولاهو راجع اليه . واسم " كان " هو المصدر المؤول : " أن يأتى بآية " . وشبه جملة " الا باذن الله " حال .

لكل اجل كتاب .

بعض المفسرين يرون فى هذه العبارة اشارة الى أن عصر المعجزات قد ولى ، اذ ان لكل عصر مايصلح له من وسائل الاقناع والبرهان مما لايصلح لغيره من العصور . وبعضهم يفسرها على ان لكل عصر كتابه وشريعته (٦١٨) . ولكنى أرى فى هذه العبارة تهديدا للكفار ، الذين كانوا يتعنتون مع النبى ويستهزئون برسالته ويقترحون عليه الاقتراحات السخيفة من صعوده عليه السلام فى السماء وانزاله كتابا يقرأونه بأنفسهم ... الخ ، والذين لم يكونوا يكتفون بهذا بل كانوا يستعجلونه العذاب الذى توعدهم القرآن به ويلحون فى ذلك أيما الحاح ، فجاءت الآية تبين لهم أن لهذا العذاب أجلا يقع فيه لن يقدم فيه استهزاؤهم والحاحهم أو يؤخر . وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن ، كما فى قوله تعالى :

" ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب " (٦١٩) .

" ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى " (٦٢٠) .

وقد ورد " الأجل " فى القرآن أكثر من خمسين مرة ، وكلها بمعنى " الموعد " لا " العصر " المراد به " الفترة الزمنية " . كما جاء هذا التعبير فى موضع آخر منه ، ولكن مع التقديم والتأخير ، وذلك فى قوله تعالى : وماكان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا " ، والمعنى ما قلت جد قريب . وقد رأيت عبارة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تحوم حول شىء من هذا ، ولكن من بعيد .

يمحو الله من يشاء ويثبت .

بعض المفسرين فسر المحو والاثبات هنا بتغير الشرائع والاحكام من عصر الى عصر ، وهو مايتمشى مع تفسير " الكتاب " فى الجملة السابقة بالكتاب السماوى (٦٢١) . وفريق منهم فسرها بالمحو من الرزق والزيادة فيه . وفريق ثالث وسع الأمر فلم يقصره على الرزق ، وان كان استثنى منه الحياة والموت ، والشقاء والسعادة . وفريق رابع رأى أن المقصود هو محو الذنوب المغفورة وترك مالم يغفر منها كما هو ، فى صحائف أعمال العبد ... الخ (٦٢٢) .

أما سيد قطب رحمه الله فلم يحدد شيئا . وهذه عبارته : " فماانقضت حكمته يمحوه ، وماهو نافع يثبته . وعنده أصل الكتاب المتضمن لكل مايثبته ويمحوه ، فعنه صدر الكتاب كله ، وهو المتصرف فيه حسبما تقتضى حكمته ، ولاراد لمشيئته أو اعتراض" (٦٢٣) .

وانا أرى ان السياق يلائمه أكثر من غيره ان نفسر المحو والاثبات هنا بأنه سبحانه لماتوعد المشركين وأكد لهم ان تأخير العذاب ليس معناه أنه مصروف عنهم عاد فبين لهم أنهم يستطيعون تجنبه اذا غيروا موقفهم وارعووا عن غيهم . عندئذ يمحو الله ذنوبهم ويثبت لهم ايمانهم وتوبتهم ، ويصرف عنهم العذاب. فهو سبحانه ، رغم الوعيد والتهديد ، لايحب أن يترك عباده لليأس يستولى عليهم ، بل يفتح لهم أبواب الأمل والرجاء . وهو قريب مما قاله فى أوائل السورة (٦٢٤) ، اذ عقب على استعجال الكفار للعذاب بدلا من رجوعهم عن كفرهم وانابتهم الى ربهم بأنه " قد خلت من قبلهم المثلات " ، ثم عاد فقال عقيب ذلك : " وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " . صحيح انه قال أيضا : " وان ربك لشديد العقاب " ، بيد أن تقديم المغفرة هنا له مغزاه . وفى هذا الاتجاه أيضا يجرى رأى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (٦٢٥) .

وعنده ام الكتاب .

عنده هو لاعند غيره ولايشاركه أحد فى هذا ، فهو يتصرف فى المحو والاثبات بمايشاء هو . ومشيئته مطلقة ، ولامعقب لحكمه : " لايسأل عما يفعل ، وهم يسألون " (٦٢٦) . وقد وردت " أم الكتاب " فى القرآن فى موضع آخر ، وذلك فى قوله تعالى : " وانه فى أم الكتاب لعلى حكيم " . ونص فيه أيضا (كما هنا) على العندية ، ولكن بلفظ " لدينا " . وقد ذهب المفسرون فى " أم الكتاب " مذاهب شتى . ولكن يظهر لى أن هذا التفسير على وجازته هو أنسب شىء للسياق . وهو فضلا عن هذا يقف دون عتبة عالم الغيب ،

التى لاينبغى تخطيها بله تفصيل القول فيما وراءها مما لايدخل فى نطاق علمنا .

واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

جاء فى" البحر المحيط " أن التقدير هو : " واما نرينك بعض الذى نعدهم به من العذاب فذلك شافيك من أعدائك ودليل صدقك اذا أخبرت بمايحل بهم ولم يعين زمان حلوله بهم فاحتمل أن يقع ذلك فى حياتك واحتمل أن يقع بهم بعد وفاتك ... وان نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولاعتب اذ قد حل بهم بعض ماوعد الله به على لسانك من عذابهم ، فانما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم ، اذ ذاك راجع الى ، وعلينا جزاؤهم فى تكذيبهم اياك وكفرهم بماجئت به " (٦٢٧) .

ويرى د. باجودة أن فى الكلام حذفا ، وتقدير الكلام هو : " واما نرينك بعض الذى نعدهم فذاك ، أو نتوفينك قبل تعذيبهم فيصيبهم فى حياتهم أو بعد مماتهم مانعدهم " . ثم يمضى فيقول : " ان الشطر الأول يتعلق بالحياة ،ويقابله فى القسم الثانى " فانما عليك البلاغ " ، وان الشطر الثانى (وهو " أو نتوفينك ") يتعلق كما هو واضح بوفاته صلى الله عليه وسلم ، وبالعذاب الذى ينال هؤلاء فى الآخرة بعد الوفاة أو فى الدنيا .ويقابله فى القسم الثانى " وعلينا الحساب " (٦٢٨).

ولا أدرى لماذا هذه التقديرات كلها ، مع أن المعنى واضح ومباشر ؟ لقد كان الكفار يستهزئون بالنبى ودينه ويؤذونه هو وأتباعه أشد الايذاء . وكان كلما توعدهم القرآن زادوا استهزاء واستعجلوا العذاب والحوا فى استعجالهم . ويبدو ان النبى عليه السلام كان يريد أن يرى مصداقا لهذاالوعيد يضع حدا لهذا الاستهزاء والطغيان ، فبينت الآية له ولهم أن هذا الأمر ليس اليه ، وانما هو فى يد الله سبحان وتعالى . فالآية تقول للرسول ان وظيفتك ابلاغ الرسالة ، أما الحساب فأمره الى الله : ان شاء حاسبهم وعذبهم عاجلا ، وان شاء أجل ذلك الى مابعد وفاتك . هكذا ببساطة ، ومن غير اية تقديرات ، ولامقابلات بين قوله : " اما نرينهم " وقوله : " فانما عليك البلاغ " أو بين قوله " أو نتوفينك " وقوله " وعلينا الحساب " . فالرسول عليه أن يبلغ على أية حال ، والحساب واقع فى كل الأحوال . وليس شرطا أن يكون الحساب فى الآخرة . والدكتور باجودة نفسه قد اقر بذلك (٦٢٩) .

وعلى هذا فان قوله تعالى : " فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب " هو نفسه جواب الشرط ، والفاء هى مايسميها النحويون " الفاء الواقعة فى جواب الشرط " وليست " فاءالتعليل " .

هذا ، وقد وردت عبارة قريبة من العبارة التى نحن بصددها فى موضع آخر من القرآن الكريم ،وذلك فى قوله تعالى : " فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فانا عليم مقتدرون " (٦٣٠) . وهذه العبارة كما هو واضح ، قد تحقق فيها تقدير ابن حيان ود. باجودة .

أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ .

أحد التفسيرات لهذه الآية يرى أن المقصود هو غزو المسلمين ماحول أرض الكفار مما يلى المدينة وغلبتهم على جوانب أرض مكة . فالأطراف على هذا التفسير هى الجوانب . وثمة تفسير ثان مؤداه أن المقصود بالأطراف الأشراف والكبراء والصلحاء والأخيار . على أن هناك تفسيرا ثالثا يقوم على أساس أن الأرض هنا هى الأرض بعامة ، لا أرض المشركين فقط (٦٣١) .

والحق أنى لاأستطيع أن أقبل التفسير الثانى ، اذ الآية قد وردت فى مقام تهديد ، مما لامدخل فيه لذكر الصلحاء والأشراف ، فضلا عن أنه لم يكن هناك صلحاء وأخيار الا فى صفوف المسلمين ، مما يجعل الآية تبدو وكأنها تتحدث عن مصائب المسلمين وتشمت بهم ، وهو غير معقول البتة .

أما بالنسبة للتفسير الأول فهو يستلزم أن تكون هذه الآية على الأقل فى المدينة . ولنفترض كذلك ، فهل كان المسلمون حينئذ ينقصون من أطراف أرض المشركين فى مكة وهم المعنيون بالخطاب فى السورة (على الأقل فى المقام الأول) ؟ ان مكة قد أخذت كلها دفعة واحدة من أيدى الشرك يوم الفتح ، ولم تسقط فى أيدى

التى لاينبغى تخطيها بله تفصيل القول فيما وراءها مما لايدخل فى نطاق علمنا .

واما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

جاء فى " البحر المحيط " أن التقدير هو : " واما نرينك بعض الذى نعدهم به من العذاب فذلك شافيك من أعدائك ودليل صدقك اذا أخبرت بمايحل بهم ولم يعين زمان حلوله بهم فاحتمل أن يقع ذلك فى حياتك واحتمل ان يقع بهم بعد وفاتك ... وان نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولاعتب اذ قد حل بهم بعض ماوعد الله به على لسانك من عذابهم ، فانما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم ، اذ ذاك راجع الى ، وعلينا جزاؤهم فى تكذيبهم اياك وكفرهم بماجئت به " (٦٢٧) .

ويرى د. باجودة أن فى الكلام حذفا ، وتقدير الكلام هو : " واما نرينك بعض الذى نعدهم فذاك ، أو نتوفينك قبل تعذيبهم فيصيبهم فى حياتهم أو بعد مماتهم مانعدهم " . ثم يمضى فيقول : " ان الشطر الأول يتعلق بالحياة ،ويقابله فى القسم الثانى " فانما عليك البلاغ " ، وان الشطر الثانى (وهو " أو نتوفينك ") يتعلق كما هو واضح بوفاته صلى الله عليه وسلم ، وبالعذاب الذى ينال هؤلاء فى الآخرة بعد الوفاة أو فى الدنيا .ويقابله فى القسم الثانى " وعلينا الحساب " (٦٢٨).

ولا ادرى لماذا هذه التقديرات كلها ، مع أن المعنى واضح ومباشر ؟ لقد كان الكفار يستهزئون بالنبى ودينه ويؤذونه هو وأتباعه أشد الايذاء . وكان كلما توعدهم القرآن زادوا استهزاء واستعجلوا العذاب والحوا فى استعجالهم . ويبدو ان النبى عليه السلام كان يريد أن يرى مصداقا لهذاالوعيد يضع حدا لهذا الاستهزاء والطغيان ، فبينت الآية له ولهم أن هذا الأمر ليس اليه ، وانما هو فى يد الله سبحانه وتعالى . فالآية تقول للرسول ان وظيفتك ابلاغ الرسالة ، أما الحساب فأمره الى الله : ان شاء حاسبهم وعذبهم عاجلا ، وان شاء أجل ذلك الى مابعد وفاتك . هكذا ببساطة ، ومن غير اية تقديرات ، ولامقابلات بين قوله : " اما نرينهم " وقوله : " فانما عليك البلاغ " أو بين قوله " أو نتوفينك " وقوله " وعلينا الحساب " . فالرسول عليه أن يبلغ على أية حال ، والحساب واقع فى كل الأحوال . وليس شرطا أن يكون الحساب فى الآخرة . والدكتور باجودة نفسه قد اقر بذلك (٦٢٩) .

وعلى هذا فان قوله تعالى : " فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب " هو نفسه جواب الشرط ، والفاء هى مايسميها النحويون " الفاء الواقعة فى جواب الشرط " وليست " فاءالتعليل " .

هذا ، وقد وردت عبارة قريبة من العبارة التى نحن بصددها فى موضع آخر من القرآن الكريم ،وذلك فى قوله تعالى : " فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فانا عليم مقتدرون " (٦٣٠) . وهذه العبارة كما هو واضح ، قد تحقق فيها تقدير ابن حيان ود. باجودة .

اولم يروا انا نأتى الأرض ننقصها من اطرافها ؟ .

أحد التفسيرات لهذه الآية يرى أن المقصود هو غزو المسلمين ماحول أرض الكفار مما يلى المدينة وغلبتهم على جوانب ارض مكة . فالأطراف على هذا التفسير هى الجوانب . وثمة تفسير ثان مؤداه أن المقصود بالأطراف الأشراف والكبراء والصلحاء والأخيار . على أن هناك تفسيرا ثالثا يقوم على اساس ان الأرض هنا هى الأرض بعامة ، لا ارض المشركين فقط (٦٣١) .

والحق أنى لاأستطيع أن اقبل التفسير الثانى ، اذ الآية قد وردت فى مقام تهديد ، مما لامدخل فيه لذكر الصلحاء والأشراف ، فضلا عن انه لم يكن هناك صلحاء وأخيار الا فى صفوف المسلمين ، مما يجعل الآية تبدو وكأنها تتحدث عن مصائب المسلمين وتشمت بهم ، وهو غير معقول البتة .

أما بالنسبة للتفسير الأول فهو يستلزم أن تكون هذه الآية على الأقل فى المدينة . ولنفترض كذلك ، فهل كان المسلمون حينئذ ينقصون من أطراف ارض المشركين فى مكة وهم المعنيون بالخطاب فى السورة (على الأقل فى المقام الأول) ؟ ان مكة قد اخذت كلها دفعة واحدة من أيدى الشرك يوم الفتح ، ولم تسقط فى أيدى

المسلمين على مراحل كما يوحي ظاهر النص. ثم لقد وردت هذه العبارة في موضع آخر من القرآن ، وهي مكية بلا خلاف ، وذلك في قوله تعالى : " بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر . افلا يرون انا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون ؟ * قل : انما أنذركم بالوحي . ولا يسمع الصم الدعاء اذا مايندرون * ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن : ياويلنا ! انا كنا ظالمين " (٦٣٢) . والذى أراه هو ان الآية مكية ، وأن الأرض هنا مقصود بها حدود الدول والممالك وماأشبه ، وأن نقص أطرافها مداولة الايام بينها . فمرة تغلب هذه ، ومرة تغلب تلك ، ومرة تأخذ هذه من حدود تلك وتضمه الى أرضها والعكس. كما ان دولا تقوم وأخرى تختفي ، وهكذا : يهددهم الجبار بان مصائر الدول والأمم في يديه ، وأنه يفعل باى منها مايريد ، وأنه قادر على ايقاع الانتقام بهم والادالة منهم ، فليحذروا قبل فوات الأوان . ويؤكد أن الآية مكية أنه يقول بعد ذلك : " وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا ... * ويقول الذين كفروا : لست مرسلا . قل : كفى بالله شهيدا بيني وبينكم " ، فهذه الاشارة الى الأمم السابقة معناها انه يهددهم بمصائر هؤلاء الأقوام الخالين ، والتهديد بالشيء يستلزم أن هذا الشيء لم يقع بعد. كذلك فان الأقوام الخالين ،والتهديد بالشيء يستلزم أن هذا الشيء لم يقع بعد . كذلك فان اشارته الى ما كان الكفار يقولونه فيه معناه ان الأمر بين الطرفين لم يكن قد تعدى مرحلة القول الى مرحلة الحرب . ولايعقل أن تكون هناك آية نزلت في مرحلة زمنية ثم تعقبها آية نزلت في نفس الموضع ولكن في مرحلة زمنية سابقة وبين الآيتين تعاكس.

وقد فسرها هذا التفسير محمد أسد في ترجمته للقرآن الى الانجليزية ، اذ قال اعتمادا على ماقرأه عند الرازى مامعناه : الم يروا أن الدهر قلب ، وأن الهلاك يعقب العز والثراء ، والمذلة والهوان يحلان محل المجد "؟ فما الذى يجعل هؤلاء الكافرين مطمئنين الى انهم لن يذلوا بعد عزهم وسلطانهم ؟ (٦٣٣) أما عبدالله يوسف على فهو ، وان لم يقل هذا بالضبط ، قد سار كلامه في نفس الاتجاه ، اذ يرى أن كبراء مكة قد استكبروا في بداية الدعوة ، ولم يسارع الى الايمان بها الا المستضعفون . وفي النهاية كان النصر لهؤلاء ، وانتهى الأمر بأولئك الى الاستسلام ودخول الاسلام . ومعنى الآية عنده هو انهم اذا كانوا الآن في قوة ومنعة فانهم في الداخل جوف . وعندما يحين الوقت فانهم سينهارون بمنتهى السهولة (٦٣٤) .

والرؤية في قوله : " افلم يروا أنا نأتي الأرض... ؟ " هى رؤية الاعتبار لا رؤية البصر .

ويبقى اعراب جملة " ننقصها من أطرافها " . وقد أعربها كل من رجعت اليهم على أنها جملة حالية . وعلى هذا فالمعنى هو انه سبحانه يأتي الأرض وهو ينقصها من أطرافها ، أى ان نقص الأرض يتم مع اتيان ربها لها . ولا أظن المعنى هكذا يستقيم ، اذ لابد من الاتيان أولا ثم النقص بعد ذلك ، اذ نقصانك الشيء لايمكن أن يقع الا اذا بلغته . أيامايكن فاني على الأقل أفضل ان يعرب قوله " ننقصها من أطرافها " على البدلية من" نأتي الأرض" ، بدل اشتمال أو ماهو من ذلك قريب .

والله يحكم لامعقب لحكمه .

هو صاحب المشيئة المطلقة ،وحكمه نافذ ، والكل يخضع له ويعنو ، فهو الرب وسائر الكائنات خلقه وعبيده ، وليس لأحد ان ينقض ما أبرمه الله أو يبرم مانقضه سبحانه وتعالى . بيده الأمر والملك . يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وينصر من يشاء ويكسر من يشاء .

وفي قوله : " والله يحكم " قصر بالتقديم ، أى أن الحكم لله لالغيره ، وله سبحانه وحده .

وجملة " لامعقب لحكمه " قد تكون استئنافا ، وقد تكون حالا . فاذا رأيت أن الكلام قد تم عند الفعل " يحكم " فهي مستأنفة ، واذا رأيت أنه لم يتم وأن المعنى يدخل فيه جملة " لامعقب لحكمه " فهي حال (٦٣٥) .

وهو سريع الحساب .

في آخر الآية السابقة بين القرآن أن أمر الحساب ومرجعه لله سبحانه وحده . والآن تبين الآية التي بين

أيدينا أنه سريع الحساب ، ترد بذلك على استبطاء المشركين العذاب قائلة لهم ان ماترونه بطيئا قادم قادم . وعندئذ سوف تندمون أن استعجلتموه والححتم في استعجاله . ان تقديركم للزمن يجعل مجيء العذاب يبدو بطيئا بل يبدو وكأنه لن يقع . اما بالنسبة لرب الكون ، الذى قد يكون اليوم عنده بألف سنة أو خمسين الفا فهو سريع جد سريع . وقد يكون المعنى ايضا أن الله سبحانه سريع الحساب ، ولكنه يمهلكم ليعطيكم فرصة النجاة لمن شاء ، رحمة منه وكرما . فلاتظنوا أن حسابه بطيء ، ولكن اعرفوا أنه يؤجله تأجيلا .

وقد أعرب المفسرون جملة " هو سريع الحساب " على أنها معطوفة : اما على جملة " والله يحكم " ، واما على " لامعقب لحكمه " . ويمكننا أن نضيف أيضا انها يمكن أن تكون استئنافية ، وبالتالي فالواو ليست للعطف ، بل للاستئناف .

وقد تكررت كلمة "الحساب " اربع مرات في هذه السورة (٦٣٦) . وهذا التكرار يعد من العوامل اللفظية التي تهب السورة تماسكا ووحدة .

وقد مكر الذين من قبلهم . فلله المكر جميعا .

" المكر " هو الاحتيال والخداع . ومعناه ان قريشا ليسوا أول من تآمر واحتال لايذاء رسل الله والايقاع بهم وبأتباعهم والقضاء على دينهم ، ولن يكونوا آخرهم طبعا . ولم تقل الآية ماالذى حدث لهؤلاء الماكرين المتآمرين في القديم ، لكن السورة تكفلت من قبل بذلك ، اذ قالت الآية ٦ منها : " وقد خلت من قبلهم المثلات " . وقالت الآية ٣٢ : " ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم اخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ " . كما قالت الآية السابقة على الآية التي بين ايدينا : " أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ " . وعلى أية حال فيكفي أن يقول الله سبحانه تعقيبا على مكر الماكرين : " فلله المكر جميعا " . ان ذلك معناه : فليمكروا مايشاءون ، فان مكرهم كعدمه ، لأنه اذا كان المكر كله لله فأى مكر غير مكره ليس مكرا ، بل هو شيء آخر . هوعبث لاطائل من ورائه . هو فقاقيع هواء منتهية الى الانفجار والتلاشي في الفضاء .

وقد تكرر الاشارة الى مكر الكفار في القرآن الكريم ، وبخاصة في الوحي المكي حيث كان مكر الكفار على أشده ولم تكن للمسلمين بعد جولة وظفر وناب . وكان القرآن يطمئن النبي ويربط على قلبه :

" لاتحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون " (٦٣٧) .

" ولاتحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون " (٦٣٨) .

ويؤكد أن مكرهم الى بوار :

" ومكر أولئك هو يبور " (٦٣٩) .

وانه لن يحيق الا بهم :

" ولايحيق المكر السيء الا بأهله " (٦٤٠) .

وأن عذابا شديدا ينتظرهم جزاء هذا المكر السيء :

" والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد " (٦٤١) .

" سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون " (٦٤٢) .

" فوقاهم الله سيئات مامكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب " (٦٤٣) .

وانهم في الحقيقة انما يمكرون بأنفسهم ولايشعرون :

" وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، ومايمكرون الا بأنفسهم ومايشعرون " (٦٤٤) .

وانه في الوقت الذى يمكرون به يمكر الله بهم . وهل هناك من مكر يستطيع الصمود لمكر رب الأرض والسماء؟ :

" ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين " (٦٤٥) .

" أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون " (٦٤٦) .
" ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين " (٦٤٧) .
والمكر هو من الألفاظ التى تكررت فى سورة " الرعد " (تكررت ثلاث مرات " ، فى الآيتين ٣٣ ، ٤٢) ، ومن ثم فهو من عوامل ترابطها .
وتقديم شبة جملة " فلله " فى قوله : " فلله المكر جميعا " يدل على أن المكر كله لله وحده لايشاركه فى ذلك أحد . هذا ، وأحب أن أقف عند " الفاء" فى قوله : " فلله المكر جميعا " . وقد جعلها محيى الدين الدرويش" عاطفة على محذوف بمثابة التعليل ، اى فلاتأبه لمكرهم ولاتخش شيئا ، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من التعليل " (٦٤٨) . ويمكن ان يكون المعنى " وقد مكر الذين من قبلهم فـ (تبين لهم أن) لله المكر جميعا " ، ولكنه حذف فعل " التبين " كما حذف فعل " القول " فى كثير من المواطن . أو يمكن أن يكون المعنى : " وقد مكر الذين من قبلهم ، فـ (اعرف اذن ان) لله المكر جميعا " . ويمكن أن نمضى مع التقديرات . وكل هذا بسبب هذه الفاء التى هى احدى أعاجيب الأسلوب القرآنى .

يعلم ماتكسب كل نفس .

يمكن أن يكون معناها انه مطلع على مكر هؤلاء الماكرين وهم لايعلمون ، ومن ثم فهو محبطه ومبيره . كما يمكن أن يكون المعنى انه محيط بكل مايفعلون ومسجله عليهم ومجازيهم به ، فهم لن يفلتوا من العقاب والعذاب .

وجريا على عادتى فى عدم قصر الآية على معنى دون غيره مادامت تقبله من غير تكلف أو تعسف ، فاننى أرى ان العبارة تقبل هذين المعنيين معا . ان كثيرا من الآيات قد صيغت على نحو لايستطيع معه المفسر المتحرز أن يجزم بأنها تقبل هذا المعنى أو ذاك دون غيره . وهذا سبب فى أن القرآن ، كما قال القدماء ، حمال أوجه . وانى لا اظن الا أنه قد قصد فى أسلوب القرآن قصدا أن يكون هكذا ليكون غنيا بمعانيه ، عميقا فى دلالات ومراميه .

وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار .

أسندت الآية العلم هنا الى كل من رب العزة والكفار . ولكن شتان ! فقد أسند العلم اليه سبحانه بصيغة المضارع العارية من حروف الاستقبال ، أى أن علمه مستمر دائم لايقتصر على وقت دون وقت ، فهو يعلم الشىء " قبل " و " اثناء " و " بعد " حدوثه أما علمهم فقد استخدمت له " السين " ، وهى تدل على الاستقبال ، أى أنهم لن يعلموا بالأمر الا بعد وقوعه . وهذا طبيعى ، فعلم الله مطلق لايحده الزمان ولا المكان . أما علم البشر ، ومنهم الكافرون ، فهو مقيد بقيود الزمان والمكان .
وقد تكررت كلمة " عقبى " فى هذه السورة خمس مرات ، كما تردد فيها من الفاظ هذه المادة كلمة " عقاب " مرتين (٦٤٩) . ومثل هذا التكرر من شأنه ، كما قلت مرارا فى هذه الدراسة ، أن يشد من بناء السورة ويضفى عليها وحدة وتماسكا .
وفى العبارة تهديد ووعيد . وكثيرا مايقول الواحد منا مهددا ومخوفا : " سوف ترى ! " والتجهيل الحاصل من استخدام اسم الاستفهام " من " (فى قوله : " لمن عقبى الدار ") مقصود به اثارة رعبهم وتحطيم معنوياتهم . ذلك أنه مما لاشك فيه أن القرآن الكريم لايمكن أن يقصد الا أن عقبى الدار ستكون للمؤمنين ، لكنه جهل الأمر من تمام ثقته واطمئنانه الى ذلك ، فبدا التجهيل للكافرين استهزاء واحتقارا . فهذا الاطمئنان والثقة مع الاستهزاء والاحتقار من شأنه ارعاب الخصم وتكسير روحه المعنوية .

ويقول الذين كفروا . لست مرسلا .

" الواو " فى قوله : " ويقول " اما أنها واو استئناف ، وفى الكلام حذف تقديره أنهم بعد ذلك كله

يعودون فيقولون انك لست مرسلا ، فهم كأنهم لم يسمعوا ولم يتدبروا أو يفهموا • واما أنها واو الحال ، والمعنى اذن أنهم في الوقت الذى مكر فيه من قبلهم وانتهى مكرهم الى البوار والخسار تراهم يقولون انك لست مرسلا • وسواء كانت استئنافية أو حالية فان نبرة التعجب والاستهزاء بارزة لاتخفى •

وقد أعربها الشيخ من الطاهر بن عاشور على انها تعطف جملة : " يقول الذين كفروا : لست مرسلا " على جملة : " وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا " (٦٥٠) • وهو اعراب جيد ، والمعنى عليه ان القرآن يجمع بين هؤلاء وأولئك ، فهم من طينة واحدة ، ومكرهم واحد • وهل ثمة أفضل من القرن بين المتشاكلين ؟

قل . كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب .

تكرر قول القرآن ان الله شهيد على صدق الرسول عدة مرات (٦٥١) .

والحق أن الاستشهاد بالله سبحانه دليل على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام واطمئنانه الى أن الله معه ، فقد كانت الدنيا كلها واقفة ضده . ومع ذلك فلم ينكسر ولم تهن عزيمته ولم ينضو تحت جناح احد من البشر ، وانما ظل صامدا واثقا أن الله معه وانه رسول من عند رب العالمين ، يشهد له من أرسله . وفي هذا الكفاية كل الكفاية .

و " الباء " في كفى بالله شهيدا " للتأكيد . و " شهيدا " تمييز أو حال .

وقوله : " من عنده علم الكتاب " اختلف فيه المفسرون (٦٥٢) : بعضهم قال انه عبدالله بن سلام وأمثاله من مؤمنة اهل الكتاب . لكن يرد على هذا بأن هؤلاء آمنوا بالاسلام في المدينة ، والسورة مكية وبالأخص هذه الآية . وبعضهم قال انه ورقة بن نوفل . لكن قد يقال : ومن أدراكم أن ورقة قد عاش بعد البعثة النبوية الى وقت نزول هذه الآية ؟ الا انه يمكن الجواب بأنه وان مات فقد مات على دين الاسلام ، ومن ثم فان شهادته تظل قائمة حتى بعد موته . هل هم اذن اليهود الذين كانو يستفتحون على الكفار بظهور نبي اظل زمانه ؟ يجوز ، لكن على الا ينفردوا به ، بل يشركهم في ذلك كل من أسلم من النصارى في مكة ، بناء على ماكانوا يعرفونه من نبوءات كتبهم الخاصة بظهور النبي عليه السلام . فهذه المعرفة بالنبوءات هي " علم الكتاب " في الآية . ولعل المراد أنهم كل من فتح عقله وقلبه وضميره للحق فعرف ، سواء من التوراة أو الانجيل أوالقرآن أو منها جميعا ، أن محمدا رسول صادق . وبعض ثالث قال انه الله (٦٥٣) ، ولكن هل يصح ان يعطف اسمان لمسمى واحد أحدهما على الآخر ؟ لقد سبق أن اجبت بالنفي . ثم مامعنى وصف الله هنا بأن عنده علم الكتاب ، اذا كان الكتاب يعني " الكتب السماوية " ؟ هاتان عقبتان . ولكننا اذا قلنا ان " الكتاب " هنا ليس هو الوحي السماوي بل هو موعد العذاب الذي توعدتهم به السورة في قوله : " لكل أجل كتاب " ، وان " من عنده علم الكتاب " قد قصدت الآية به أن توهم أنها تتحدث عن أحد غير الله حتى اذا اتمت الجملة اكتشف الكافرون الموجه اليهم مافي العبارة من تهديد مبطن ان المقصود هو الله سبحانه جاز جدا أن نقول ان " من عنده علم الكتاب " هو الله . ومعنى الكلام في هذه الحالة : " كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، وكذلك ذلك الذي لايعلم أحد غيره موعد انقضاض العذاب فوق رؤوسكم . أتعرفونه ؟ انه هو الله أيضا " ، تهديدا لهم بأنهم اذا لم يرعووا عن كفرهم وغيهم فسوف يلقون عذابا شديدا . ماذا أقول ؟ انه الأسلوب القرآني الحمال أوجها .

وهناك من يقول ان المقصود بـ " من عنده علم الكتاب " هو علي وذريته (٦٥٤) . وأنا ، مع حبي الشديد وتقديري لعلي وصلابة ايمانه وتقواه ، لا استطيع أن أفهم حكمة افراده بذلك دون الصحابة وسائر المؤمنين في عصر الرسول وفيهم الأفذاذ . أكل قصارى شهادة البشر على صدق الرسول عليه السلام هي شهادة علي ؟ علي وحده ، اذ ينبغي الا ننسى أن أولاد علي في ذلك الوقت لم يكن لهم وجود ، فان السورة مكية . ودعنا من بقية ذريته . وما العيب في شهادة سائر الصحابة والمؤمنين ؟ ان هذا ظلم لهؤلاء العمالقة الكبار وافتئات على مقامهم لايحوج اليه أبدا حبنا لعلي ، اذ من قال ان حبنا له يستتبع الغض منهم ؟ انهم كلهم كبار ، وشهادتهم للرسول شهادة لها وزنها : شهادتهم جميعا ، لاشهادة واحد منهم فقط ، فلنعرف ذلك .

٢- بناء السورة

تبدأ سورة " الرعد " بالحديث عن قدرة الله سبحانه وأعاجيب خلقه ، مما كان ينبغى أن تكون نتيجته تسليم البشر له بمطلق الربوبية والقدرة وتصديق رسله الذين يخبرون هؤلاء البشر بما أوحى اليهم ربهم ليبلغوه لعباده • ولكن الذى حدث هو أن قوم الرسول عليه الصلاة والسلام ، مثلهم فى ذلك مثل اقوام الرسول السابقين ، كذبوا بالبعث ، وهو مايعد انكارا لقدرة الله على اعادتهم الى الحياة بعد موتهم ، فذكرت السورة بعد الحديث عن القدرة الالهية وعجائب خلقها هذا العناد والتكذيب ،ومحاولة الكفار تغليف ذلك بتعليق ايمانهم بماجاء به الرسول على انزال آية من السماء ، أى معجزة ، وحذرتهم أن يكون مصيرهم كمصير غيرهم من الأمم الخالية ممن صنعوا صنيعهم ووقفوا ذات الموقف من الأنبياء الذين ارسلوا اليهم ، وبينت لهم ان كل ما يقولون أو يفعلون لايخفى على الله منه شىء ، فهو مسجل عليهم بحذافيره ، وأنهم اذا كان العقاب لم يمسهم فليسمعنى ذلك أنهم قد أفلتوا ونجوا ، بل الأمر ببساطة أن الله هو الذى يحفظهم •• الى حين •

ثم تشير السورة الى شىء من جبروت المولى سبحانه ، وكيف يستجيب الرعد والملائكة لذلك ، وهو ماكان يجب أن يكون هو نفسه موقف هؤلاء الكافرين ، الذين نكسوا على رؤوسهم ، وبدلا من أن يتجهوا الى رب الكون كان متجههم للأصنام الجامدة التى لاتعقل ولاتنفع أو تضر ، بل لاتستجيب لهم مجرد استجابة •

وتضرب السورة مثلا من ظواهر الطبيعة ترمز به الى المؤمنين والكافرين ، وكيف أن ايمان المؤمنين هو الباقى وكفر الكافرين مصيره الى زوال واضمحلال • وتنطلق السورة بعد هذا فتبين مصير كل فريق •

وتعود السورة فتطرق موضوع طلب الكفار للمعجزة ، مؤكدة انهم لو استجيب لهم ونزلت الآية المطلوبة فلن يؤمنوا • وتمضى فتحذرهم من وعد الله ، أى عقابه الصارم جزاء استهزائهم ، وهو العقاب الذى انقضعلىالأمم التى استهزأت برسلها من قبل •

ثم تذكر ثانية مصير الكافرين والمؤمنين فى الآخرة • وتكر على بعضماكانوا يعترضون به على الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه بشر وله أزواج وذريه ، فتقول لهم انه فى هذا ليس بدعا بين الرسل •

وتنتهى السورة بالتهديد بأن عقابا شديدا ينتظرهم ، وان لهذا العقاب أجلا لايعلمه الا الله • وهو آت آت ، سواء فى حياة الرسول أو بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، ولاتتركه عليه السلام الا بعد طمانته انهم اذا كانوا قد كفروا به فيكيفه أن الله يشهد له بصدقه ونبوته • اليس هو الذى اختاره وجعله رسولا ؟

السورة اذن تدور حول تكذيب الكفار وتهددهم بسوء المصير فى الدينا وبالعذاب فىالآخرة ، وتبين لهم أن طلبهم لمعجزة انما هو مجرد استهزاء ، وأن اعتراضهم على بشرية الرسول لامعنى له ، وتبشر المؤمنين بالنعيم المقيم فى الآخرة • فموضوعها اذا واضح محدد ، وهى من حيث البناء كتلة متماسكة •

ويسود السورة جو واحد هو جو التهديد والانذار للكافرين ، وتطمين المؤمنين وتصوير ما أعد الله لهم من النعيم فى دار القرار : فالكافرون فى أعناقهم الأغلال • والمثلات ، أى العقوبات التى تجعل ممن تصيبه مثلا للآخرين وعبرة ، قد خلت من قبلهم • والرسول ليسالا منذرا (وفى وصفة بالمنذر لا البشير ولا البشير مع المنذر من الايحاء والمغزى مافيه) • وقد ذكر البرق والرعد والصواعق وخوف الملائكة منه سبحانه • كما وصف عز وشانه بـ " الكبير المتعال " و " شديد المحال " و " شديد العقاب " و " القهار " وبانه " لايخلف الميعاد " (أى الأجل الذى حدده سبحانه لعقاب الكافرين) و بأنه " سريع الحساب " وأن له " المكر جميعا " • ومما هددت به السورة الكافرين أنهم لاتزال تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله ، وأن عقابه جل شأنه للأمم السابقة التى استهزأت برسلها كان عقابا تضرب به الأمثال • أما المؤمنون فيدخلون الجنة ويكرمون ويتقلبون فى الظلال والنعيم والثمار التى ليست بمقطوعة ولاممنوعة هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم •

ويزيدالسورة تماسكا اطراد خاصية التقابل فيها :

التقابل بين السماء والأرض ، والشمسوالقمر ، والليل والنهار ، والجبال الرواسى والأنهار الجوارى ، والماء

الباقي النافع والزبد الذي يذهب جفاء ، وغيض الأرحام وازديادها ، والمستخفي بالليل والسارب بالنهار ، ودعوة الحق ودعوة الباطل ... وهكذا (٦٥٥) .

كذلك فقد أشرت خلال تناولي للسورة آية آية الى بعض الألفاظ والعبارات والصور والأفكار التي تكررت فيها مما يقوى بناءها ويبرز وحدتها . فمن ذلك الألفاظ المشتقة من " ع ق ب " (العقاب (مرتين) - معقبات - عقبى (خمس مرات) - معقب) ، والكلمات المشتقة من " ح س ن " (حسن - الحسنة (مرتين) . الحسنى) و " س و ء " ، والفاظ الاستجابة (يستجيبون - استجابوا - لم يستجيبوا) . وكذلك كلمة " الحساب " التي تكررت في السورة خمس مرات ، و " الكتاب " التي تكررت أربع مرات ، و " الأرض" التي تكررت عشر مرات ، وكلمة " الحق " التي تكررت أربع مرات ، و " متاع " التي تكررت مرتين ، و " عذاب " التي تكررت مرتين أيضا .

وقد تكرر أسلوب " قل " في السورة عشر مرات موزعا في أنحائها . وهذا الأسلوب ،كما أشرنا من قبل ، يدل على أن الله سبحانه يريد أن يشعر رسوله أنه معه لايتركه أبدا ، بل يوجهه ويهديه ويأخذ بيده الى القول السديد والموقف الصلب السليم .

كذلك وردت في السورة بعض الفواصل التي حذفت منها الياء (سواء كانت الياء لام الكلمة أو ياء المتكلم) ، مثل " المتعال (المتعالي) - متاب (متابي) - عقاب (عقابي) - مآب (مآبي) " .

ليس ذلك فقط ، بل ان بعض فواصل السورة قد تكررت (" العقاب " /٦ ، ٣٢ - و " هاد " /٧، ٣٣ - و " الحساب " /٢١، ٤٠، ٤١ - و " الدار " /٢٢، ٢٤، ٢٥، ٤٣ - و " مآب" /٢٧، ٣٦ - و " واق " /٣٤، ٣٧ - و " كتاب " /٢٣، ٢٨) .

كما تكرر ذكر الأزواج والذرية " مرتين (٦٥٦) .

أما بالنسبة للعبارات قد تكرر قوله : " ويقول الذين كفروا " ثلاث مرات (٦٥٧) . وقد رأينا كيف أن بعض الصور في السورة تدور حول الماء .

ومن ناحية الأفكار فان فكرة " السر والعلن " قد ترددت في السورة عدة مرات .

وقد انفردت هذه السورة من بين سور القرآن جميعا بأشياء منها :

كلمة " صنوان " (٦٥٨) ، و " المثلات " (٦٥٩) ، و " زبد " (٦٦٠) ، و " سارب " (٦٦١) ، و " وال " (٦٦٢) ، و " المتعال " (٦٦٣) ، و " جفاء " (٦٦٤) ، و " المحال " (٦٦٥) ، وصيغة اسم الفاعل من " عقب " (مرتين : معقبات / معقب) (٦٦٦) ، وعبارات " لكل اجل كتاب " ، و " يمحو الله مايشاء ويثبت " ، و " لامعقب لحكمه " ، ووصف القرآن بانه " حكم "(وذلك في قوله تعالى : "... وكذلك أنزلناه حكما عربيا ") ،واستخدم الفعل الماضي " جهر" (٦٦٧) . وكذلك حروف التهجي في أول السورة " المر ". ثم ان الفواصل الآتية : " متاع - وال - باب - ثقال - محال - ميثاق " لم ترد في أي سورة أخرى .

كلمة أخيرة عن فواصل السورة : المعروف أنه في أية سورة تزيد عن ثلاث آيات (الافي النادر الشاذ) فانها لاتلتزم فاصلة واحدة . وفي سورة " الرعد " نلاحظ أن فواصلها الخمس الأولى تقوم على مدة الواو التي تعقبها نون :" يؤمنون - يوقنون - يتكفرون - يعقلون - خالدون " ، لتتغير من الآية السادسة لآخر السورة الى فاصلة الألف التي بعدها حرف صامت ، اما باء واما لام (وهما الاكثر) ، واما راء أو دال ، واما عين (وهي فاصلة واحدة) (٦٦٨) أو قاف (وهي فاصلة واحدة أيضا) (٦٦٩) ، اللهم الا مرة واحدة كانت الفاصلة واوا ممدودة بعدها ياء (٦٧٠) .

والملاحظ أن الفواصل الخمس الأولى هي فواصل آيات تتحدث كلها تقريبا عن قدرة الله وعجائب خلقه . وحين ابتدأ التهديد والوعيد تغيرت الفواصل ، وأصبحت تنتهي بحروف قوية في الغالب ، كالدال والباء والقاف والعين .

١-انظر تفسيره " الدر المنثور فى التفسير بالماثور " فى التمهيد لتفسير السورة ٠
٢-انظر " الدرر المنثور " فى مفتتح السورة ، وكذلك " الاتقان " جـ ١ ص١٢
٣-من الذين تنبهوا الى أن أسلوب " الرعد أسلوب مكى د٠ صبحى الصالح ، وان لم يخط ابعد من مجرد هذه الاشارة ٠ انظر كتابه " مباحث فى علوم القرآن " ص١٨٢ هـ ٥ ٠
٤-واللافت للنظر أن محمد على الصابونى فى " صفوة التفاسير " باعتماده على مضمون هذه السورة قد حكم بمدنيتها لنفس السبب الذى جزم سيد قطب ومحمد بن الطاهر بن عاشور على أساسه انها مكية ، وهو انها تقرر الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء ، فهو يقول انها " تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية من تقرير الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء ورفع الشبه التى يثيرها المشركون " ، اى أن هذه الموضوعات هى عند الشيخ محمد بن عاشور دليل على مكية السورة ، وعند الشيخ الصابونى دليل على انها مدنية ٠ ومن الذين جروا فى العصر الحديث أيضا على انها مدنية محمد فؤاد عبدالباقى ، وذلك فى " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ومحمود الشرقاوى / القرآن المجيد ص٤٦
٥-الآيات ٩، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧
٦-الآيات ٣١، ٤٤، ٤٥، ٤٦
٧-الآيتان ٢٥، ٥٠
٨-الآيتان ٢٤، ٢٧
٩-الآيات ٢، ٧، ١٥، ١٨، ٣٣، ٥٧
١٠-الآيتان ١٥، ٢١
١١-الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠
١٢-الآيتان ٥، ٦
١٣-الآية ٢٦
١٤-المعارج ٢٠، ٢١
١٥-الطارق ١١، ١٢
١٦-الغاشية ٦، ٧
١٧-الآيتان ٢٩، ٣٦
١٨-الآيتان ٢٤، ٣٤
١٩-الآيات ٢٥، ٤٠، ٥٥
٢٠-صبحى الصالح / مباحث فى علوم القرآن ١٨٢ ، ومناع القطان / مباحث فى علوم القرآن ٦٣
١٢-المرجعان السابقان ، نفس الموضعين
٢٢-الحاقة ٦٩
٢٣-القارعة ١-٣
٢٤-الحجر ١٩
٢٥-النحل ١٥
٢٦-الأنبياء ٣١
٢٧-النمل ٦١
٢٨-لقمان ١٠
٢٩-فصلت ١٠
٣٠-ق ٧

٣١-المرسلات ٢٧
٣٢-النازعات ٣٢
٣٣-سبأ ١٣
٣٤-الأعراف ١٨٧ ، وهود ٤١ ، والنازعات ٤٢
٣٥-غافر ٢١
٣٦-الآيات ٢٢، ٢٤، ٣٥، ٤٢
٣٧-الشمس ١٥
٣٨-الصافات ١٢
٣٩-الأعراف ٦٣-٩٦
٤٠-ص ٤
٤١-ق ٢
٤٢-النجم ٥٩
٤٣-هود ٧٣
٤٤-ص ٥
٤٥-يونس ٢
٤٦-الكهف ٩
٤٧-الكهف ٦٣
٤٨-الجن ١
٤٩-هود ٧٢
٥٠-ق ٢
٥١-الحديد ٢٠
٥٢-البقرة ٢٢١
٥٣-التوبة ٢٥
٥٤-المائدة ١٠
٥٥-الأحزاب ٥٢
٥٦-البقرة ٢٢١
٥٧-التوبة ٥٥
٥٨-التوبة ٨٥
٥٩-المنافقون ٤
٦٠-الفتح ٢٩
٦١-البقرة ٢٠٤
٦٢-الرعد ٣٠
٦٣-الأنعام ٣٨
٦٤-الأنعام ٤٢
٦٥-الأعراف ٣٨
٦٦-هود ٤٨
٦٧-النحل ٦٣
٦٨-العنكبوت ١٨
٦٩-فاطر ٤٢

٧٠-فصلت ٢٥
٧١-الأحقاف ١٨
٧٢-الأعراف ١٦٠
٧٣-الرعد ٣٦
٧٤-الأنعام ١٤
٧٥-الأنعام ١٦٣
٧٦-يونس٧٢
٧٧-يونس١٠٤
٧٨-النمل ٩١
٧٩-النمل ٩١
٨٠-الزمر ١١
٨١-الزمر ١٢
٨٢-غافر ٦٦
٨٣-الشورى ١٥
٨٤-الحجر ٩٤
٨٥-الآية ١
٨٦-يونس١ ، والشعراء ٢ ، والقصص٢ ، ولقمان ٢
٨٧-النمل ١
٨٨-الآية ٢
٨٩-الحديد ٤
٩٠-الأعراف ٥٤ ، يونس٣ ، وطه ٥ ، والفرقان ٥٩ ، والسجدة ٤
٩١-التوبة ١٢٩ ، والاسراء ٤٢ ، والأنبياء ٢٢ ، والمؤمنون ٨٦ ،١١٦ ، والنمل ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٨، ٤١، ٤٢ ، والزمر ٧٥ ، وغافر ٧، ١٥ ، والزخرف ٨٢ ، والحاقة ٦٧ ، والتكوير ٢٠ ، والبروج ١٥ (على الترتيب) .

٩٢-الآية ٢
٩٣-لقمان ٢٩
٩٤-ابراهيم ٣٣ ، والنحل ١٢ ، والعنكبوت ٦١ ، وفاطر ١٣ ، والزمر ٥ (على الترتيب)
٩٥-الآيتان ٣، ٤
٩٦-الأنعام ٩٩، ويونس٦٧، وابراهيم ٥ ، والحجر ٧٥ ، والنحل ١٢، ٧٩، وطه ١٢٨، والمؤمنون ٣٠، والنمل ٨٦، والعنكبوت ٢٤، والروم ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٣٧، ولقمان ٣١، والسجدة ١٦، والزمر ٤٢، ٥٢، والشورى ٣٣، والجاثية ١٣
٩٧-ونصها " وجنات ومن أعناب وزرع ونخيل "
٩٨-الأنعام ٤١، والكهف ٣٢ ، والشعراء ١٤٧-١٤٨، والدخان ٢٦ (على الترتيب)
٩٩-الآية ٥
١٠٠-ابراهيم ١٩
١٠١-السجدة ١٠
١٠٢-سبأ ٧
١٠٣-فاطر ١٦
١٠٤-ق ١٥

١٠٥-الاسراء ٤٩، ٩٨

١٠٦-الآية ٥

١٠٧-سبأ ٣٣، وغافر ٧١ ، ويس٨ (على الترتيب)

١٠٨-آيتا ٧، ٢٧

١٠٩-الأنعام ٣٧، ويونس ٢٠، والعنكبوت ٥٠

١١٠-الآية ١٦

١١١-يوسف ٣٩

١١٢-ابراهيم ٤٨

١١٣-ص ٦٥

١١٤-الزمر ٤

١١٥-غافر ١٦

١١٦-الآية ٢٤، ونص الشاهد : " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم "

١١٧-الأحزاب ٤٤

١١٨-الأعراف ٤٦، ويونس ١٠، وابراهيم ٢٣ ، والحجر ٤٦ ، والنحل ٣٢ ، ويس٥٨، والزمر ٧٣، وق ٣٤ ، والواقعة ٧١، ومريم ٦٢، والفرقان ٧٥، والواقعة ٢٦(بهذا الترتيب)

١١٩-الآية ٢٦

١٢٠-الزمر ٥٢

١٢١-الاسراء ٣٠، والقصص٨٢، والعنكبوت ٦٢، والروم ٣٧، وسبأ ٣٦، ٣٩، والشورى ١٢

١٢٢-الآية ٤٣

١٢٣-يونس٢٩، والاسراء ٩٦ ، والعنكبوت ٥٢، والأحقاف ٨

١٢٤-آية ٥

١٢٥-الاسراء ٤٩، ٩٨ ، والمؤمنون ٨٢، والنمل ٦٧ ، والسدة ١٠، والصافات ١٦، ٥٣، والواقعة ٤٧

١٢٦-ق ٣

١٢٧-النازعات ١٠، ١١

١٢٨-آية ٣٣

١٢٩-هود ١٧

١٣٠-فاطر ٨

١٣١-الزمر ٢٢

١٣١ب-الزمر ٢٤

١٣٢-الزخرف ١٨

١٣٣-الآية ٤٠

١٣٤-يونس٤٦، والمؤمنون ٤٦، وغافر ٧٧ ، والزخرف ٤٢

١٣٥-الأحقاف ٣٥

١٣٦-انظر الزمخشري في بداية تفسيره للسورة

١٣٧-الآية ٤١

١٣٨-الأنعام ٦ ، والأعراف ١٤٨، والنحل ٤٨، ٧٩، والاسراء ٩٩ ، والشعراء ٧ ، والنمل ٨٦ ،والعنكبوت ١٩، ٦٧، والروم ٣٧، والسجدة ٢٧، وسبأ ٩ ، ويس٣١، ٧١، وفصلت ١٥، والأحقاف ٣٣ ، والملك ١٩

١٣٩-الحج ٤٤، وسبأ ٤٥، وفاطر ٢٦، وغافر ٥ ، والقمر ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠، والملك ١٨

١٤٠-ونصها : " وهو الذى مد الأرض"

١٤١-الحجر ١٩ ، وق ٧ ، والانشقاق ٣
١٤٢-الحجر ٤٧ ، وذلك في قوله تعالى :" ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده "
١٤٣-الأحقاف ٢٤
١٤٤-الأنعام ٥٧
١٤٥-النمل ٤٦
١٤٦-النمل ٧٢
١٤٧-العنكبوت ٥٣
١٤٨-العنكبوت ٥٤
١٤٩-الآية ٧
١٥٠-الأعراف ١٨٤ ،١٨٨ ، وهود ١٢ ، والحج ٤٩ ، والشعراء ١١٥ ، والعنكبوت ٥٠ ، وسبأ ٤٦ ، وفاطر ٢٣ ، وص٧٠ ، والأحقاف ٩ ، والملك ٢٦(على الترتيب)
١٥١-ص٦٥ ، والنازعات ٤٥
١٥٢-النمل ٩٢
١٥٣-الآية ١٧
١٥٤-الأنعام ٥٠
١٥٥-هود ٢٤
١٥٦-فاطر ١٩
١٥٧-غافر ٥٨
١٥٨-" في ظلال القرآن " ، في تعقيبه على تفسيره للسورة
١٥٩-آل عمران ٢٠
١٦٠-المائدة ٩٢
١٦١-المائدة ٩٩
١٦٢-النور ٥٤
١٦٣-التغابن ١٢
١٦٤-النحل ٣٥
١٦٥-يس١٧
١٦٦-الاتقان ١٠،٢٩ ، و د٠ صبحي الصالح / مباحث في علوم القرآن ١٨١ ، وانظر " مناهل العرفان في علوم القرآن " لمحمد عبدالعظيم الزرقاني جـ ١ ص٢٩٦-٢٩٨ ، حيث يورد الضوابط التي يعرف بها المكي والمدني ، ومن بينها هذا الضابط ٠
١٦٧-الآية ١٥
١٦٨-الآية ٣٣
١٦٩-الأنعام ١٠
١٧٠-الحجر ١١
١٧١-الأنبياء ٤١
١٧٢-يس٣٠
١٧٣-الزخرف ٧
١٧٤-آية ٣٢
١٧٤ب-الأنبياء ٤٤
١٧٥-آية ٧

١٧٦-آية ٢٧

١٧٧-آية ٤٣

١٧٨-انظر " صفوة التفاسير " ، في التمهيد لتفسير السورة •

هوامش الفصل الثانى . " الدراسة الادبية واللغوية للسورة "

١-يرى محمد أسد فى ترجمته للقرآن المسماة " The message of the Quran " فى الكلمة الافتتاحية التى صدر بها ترجمته للسورة أن هذا التأويل هو أقرب التأويلات الى القبول . ويقول ان كل سورة افتتحت بهذه الاحرف تحتوى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الاشارة الى الوحى بعامة أو الى القرآن بخاصة ، حتى تلك السور التى تبدو استثناء . فهو يرى مثلا أن سورة " القلم " بذكرها للقلم فى آياتها الأولى انما تشير على نحو غير مباشر الى الوحى . ومع ذلك فهو يعود فيقول ان هذا التفسير ليس مقنعا تماما ، لان قائم على محض التخمين ، ولأن هناك سورا قرآنية تحتوى على الاشارة الى الوحى دون ان تفتتح بهذه الاحرف .

٢-انظر فى هذا الاعراب تفسير أبى السعود . على أنه لابد من التنبيه الى أننى لم أنقل كلام أبى السعود بنصه ، وانما اديته بعبارتى .

٣-انظر الطبرسى والألوسى فى تفسير الآية

٤-انظر القرطبى فى تفسير الآية

٥-الأحزاب ٦٠

٦-وجدت أن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى " تفسير التحوير والتنوير " أثناء تفسيره للآية الأولى من السورة التى بين أيدينا يقول : " لايجوز أن يكون " الذى أنزل اليك من ربك " عطف مفرد على قوله : " الكتاب " مفرد ، من باب عطف الصفة على الاسم ، مثل ماأنشد الفراء :

الى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم .

ولكنه عندما وصل الى تفسير الآيات ١٩-٢٢ من نفس السورة قال مانصه : " وهذه الصلات (يقصد " الذين " التى تكررت ثلاث مرات فى قوله تعالى : " أولئك هم أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ... * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ... * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ... ") صفات لـ " أولى الألباب " ، فعطفها من باب عطف الصفات للموصوف الواحد ، وليس من عطف الأصناف . وذلك مثل العطف فى قول الشاعر الذى أنشده الفراء فى معانى القرآن " :

الى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم " .

مستشهدا مرة بالبيت على عطف الاسم على الاسم ، ومرة على انه عطف صفة على صفة ، وهو مايبدو لى أنه تناقض . وغنى عن القول أننى أرى أن البيت عطف صفة على صفة كما مر .

٧-آية ١٠٣

٨-البقرة ٢٩ ، والاسراء ٤٤ ، والمؤمنون ١٧ ، ٨٦ ، وفصلت ١٢ ، والملك ٣ ، ونوح ١٥ ، والنبا ١٢ .

٩-الطلاق ١٢

١٠-فصلت ١٢ ، والملك ٥ . وانظر الصافات ٦ : " انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب "

١١-انظر هذا الزعم فيما أورده القرطبى والألوسى من آراء فى تفسير هذه الآية .

١٢-مجلد ٥ ، ص٨٥

١٣-الأعراف ٥٤

١٤-يونس٣

١٥-الرعد ٥

١٦-طه ٤-٥

١٧-الفرقان ٥٩

١٨-السجدة ٤

١٩-الحديد ٤

٢٠-انظر فى مناقشة معنى " ثم " هنا " حاشية محيى الدين الشيخ زاده على تفسير القاضى البيضاوى " ،

والطبرسي في " مجمع البيان " والألوسي في " روح المعاني " عند تفسيرهم للآية ٠
٢١-انظر مثلا الزمخشري ، والقرطبي ، والطبرسي ، والبيضاوي ، وأبا السعود
٢٢-انظر " الدر المنثور " للسيوطي في تفسير هذه الآية ٠
٢٣-ذكر عبدالله يوسف علي في ترجمته للقرآن الى الانجليزية في الهامش الخاص بهذه العبارة أن زهرة بعض النباتات تحتوي بداخلها على أعضاء الذكورة والأنوثة معا ، وفي حالات أخرى توجد اعضاء الذكورة في زهرة وأعضاء الأنوثة في زهرة أخرى من نفس النبات ،وفي بعض الحالات النادرة كما في النخيل وما أشبهه توجد هذه الأعضاء في نخلة وتلك في نخلة أخرى مختلفة ٠ وانظر ايضا محمد أسد في ترجمته للقرآن حيث يقول نفس الشيء مع زيادة تفصيل ، اذ يضرب شجرة القطن مثالا على الحالة الأولى ، والقرعيات مثالا على الحالة الثانية ٠ أما في الحالة الثالثة فقد ذكر شجر النخيل ٠
٢٤-انظر مثلا محمد اسماعيل ابراهيم / قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية /مادة " زوج " ٠
٢٥-النحل ١١
٢٦-انظر الألوسي ومحيي الدين الدرويش
٢٧-انظر هذا الرأي في " زاد المسير " لابن الجوزي ، وانظر ايضا " الدر المنثور " للسيوطي ٠
٢٨-انظر هذا الرأي في " الدر المنثور " للسيوطي منسوبا الى الحسن ٠
٢٩-انظر القرطبي في تفسير الآية
٣٠-انظر " زاد المسير " في تفسير الآية ٠
٣١-الطبري في تفسير الآية
٣٢-الزمخشري في تفسير الآية ، وان كنا نلاحظ انه يفترض ان الله سبحانه وتعالى ينادي رسوله ب " يامحمد " ، وهو على خلاف مافي القرآن ، فلم يحدث ان نادى الله سبحانه رسوله عليه السلام الا بالرسالة أو النبوة : " ياأيها الرسول ٠٠٠ " (مرتين) (المائدة ٤١، ٦٧) و " ياأيها النبي " (ثلاث عشر مرة) (الأنفال ٦٤، ٦٥، ٧٠ ، والتوبة ٧٣ ، والأحزاب ١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩ ، والممتحنة ١٢ ، والطلاق ١ ، والتحريم ١، ٩) ٠ وبالمناسبة فلم يحدث أن نودي الرسول عليه السلام بذلك الا في الوحي المدني ، أو ب " ياأيها المزمل " و " ياأيها المدثر " (وذلك في الوحي المكي فقط) ٠ وهذه مع السمات الأسلوبية التي استنبطتها في الفصل الذي عقدته في هذا الكتاب لحسم مكية هذه السورة او مدنيتها ينبغي أن توضع في الاعتبار عند مقارنة أسلوب الوحي المكي بأسلوب قسيمه المدني ٠
٣٣-انظر الألوسي في تفسير الآية
٣٤-" اعراب القرآن وبيانه " ، في اعراب هذه الآية /مجلد ٥ /ص٨٧-٨٨
٣٥-ص٦٤
٣٦-الأحقاف ٢٤
٣٧-الأنعام ٥٨
٣٨-الحج ٤٧
٣٩-يونس ١١
٤٠-النحل ١
٤١-يونس ٥٠
٤٢-تفسير " التحرير والتنوير " في تفسير الآية
٤٢ب-انظر مادة " عجل " في " أساس البلاغة " حيث قال " واستعجل الكفار العذاب " بدون باء ، و " معجم ألفاظ القرآن الكريم " (اصدار مجمع اللغة العربية) حيث يقول : " استعجل الأمر : أسرع به " ٠ وفي " محيط المحيط " للبستاني ، و " أقرب الموارد " للشرتوني : " استعجله : ٠٠٠ طلب عجلته ولم يصبر الى وقته " ٠ وفي الأصمعيات لعلباء بن ارقم بن عوف :

واذا العذارى بالدخان تقنعت   واستعجلت نصب القدور فملت

(الاصمعيات / قصيدة ٥٦) ٠ وقد ذكر الزمخشري في تفسيره للآية ٢٠٣ من سورة " البقرة " أن " استعجل " (بمعنى " استعجل الشيء ") هو فعل متعد ٠ وفي " "الفتوحات الالهية " للجمل أن " استعجل " متعدية ، وأن ادخال الباء عليها انما كان بسبب تضمينها معنى المطالبة ٠ وفي " القاموس القويم للقران الكريم " لابراهيم أحمد عبدالفتاح نفس الشيء ، اذ قال : " استعجل الأمر : طلبه عاجلا سريعا " ٠ وجاء في " لسان العرب " لابن منظور في مادة " عجل " ، في شرح معنى " العجالة " ، أنها ماتزوده الراكب مما لايتعبه اكله كالتمر والسويق ، لانه يستعجله " ، فاستخدمها كما ترى بدون باء ، وان كان قد استخدمها في نفس المادة بالباء أيضا ٠ وفي " المنجد " : " طريق مستعجلة " (بالبناء على المفعول ، مما يدل على استعمالها متعدية) ، أي مختصرة قريبة ٠ وأما ابن فارس في " معجم مقاييس اللغة " ، والجوهري في " الصحاح " ، والفيروزابادي في " القاموس المحيط " ، وصاحب " مختار الصحاح " والزبيدي في " تاج العروس " ، ومحمد اسماعيل ابراهيم في " قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية " فلم يوردوا الا استعجال شخص شخصا ٠ أما استعجاله الشيء فلم يتطرقوا اليه ٠ والملاحظ أن "مفردات " الراغب الأصفهاني لم تورد مادة " عجل " أصلا ٠

٤٣-انظر الألوسي في تفسير هذه الآية ٠ وقد أديت معناه بعبارة من عندي ٠

٤٤-انظر " فتح القدير " للشوكاني في تفسير الاية ٠

٤٤ب-انظر مثلا الزمخشري وابن حيان ٠

٤٥-آل عمران ٤١

٤٦-الاسراء ١٢

٤٧-الاسراء ٩٠-٩٣

٤٨-الاسراء ٥٩

٤٩-انظر مثلا في تفسير " الهادي " في الآية ب " علي " الطبرسي والسيوطي ، اللذين أوردا هذا الرأي ضمن آراء أخرى ٠

٥٠-انظر " زاد المسير " في تفسير الآية

٥١-انظر د٠عبدالله عبادة/ الطب في القرآن ص٧٩-٨٠

٥٢-انظر محمد أحمد جمال / على مائدة القرآن ص٣٥٧ ٠

٥٣-والى ذلك يشير الشنقيطي في " أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن " (عند تفسير هذه السورة) حيث يقول : " وقد دلت السنة الصحيحة على أن علم ما في الأرحام المنصوص عليه في الآيات المذكورة مما استأثر الله به دون خلقه " ٠

٥٤-" تفسير التحرير والتنوير " ، في تفسير الآية ٠

٥٥-الأعراف ١٨٩

٥٦-مريم ٢٢

٥٧-لقمان ١٤

٥٨-الأحقاف ١٥

٥٩-الطلاق ٦

٦٠-الطلاق ٧

٦١-جاء في بعض كتب التفسير أن الشافعي كان يقول ان أقصى مدة للحمل أربع سنين ، أما مالك فكان يذهب الى أنها خمس، على خلاف أبي حنيفة ، الذي جعله سنتين (انظر الزمخشري والألوسي في تفسير الآية) ٠ كما جاء في بعض الروايات أن هرم بين حيان قد بقي في بطن أمه أربع سنين ، ولذلك سمي هرما (الزمخشري في تفسير الآية) ٠ وأشار القرطبي الى أن مدة الحمل تصل بل تزيد عن عشرة أعوام ٠ بيد أن

محمد أسد (في ترجمته للقرآن الى الانجليزية) قد ذكر أن مدة الحمل قد تتجاوز ٢٨٠ يوما الى ٣٠٥ ، ونقل عن بعض المتخصصين أنها قد تبلغ ٣٠٧ أيام . (انظر الهامش الذى خصصه لهذه الآية في ترجمته للقرآن) . أما دائرة المعارف البريطانية (ط ١٥ / مجلد ١٤/مادة " Pregnancy " /ص٩٦٩) فقدد ذكرت ان اقصى مدة للحمل هي من ٢٥٠ الى ٢٨٥ يوما ، وأن المحاكم ، مع ذلك ، قد تأخذ بأقل أو أكثر من ذلك كثيرا ، فمثلا أخذت محكمة بولاية نيويورك ذات مرة بـ ٣٥٥ يوما (أى سنة شمسية تقريبا) ، على حين ان المحاكم البريطانية ، بناء على استشارة أهل الاختصاص في الطب ، قد اعترفت في بعض الحالات بـ ٣٣١ ، و ٣٤٦ يوما . كما ذكرت ان طفلا قد ولد تاما بعد ٣٣١ يوما محسوبة من اليوم التالي لانقطاع آخر حيض لأمه . ويوافق د. محمد على البار في كتابه " خلق الانسان بين الطب والقرآن " (ط ٤ /الدار السعودية للنشر والتوزيع / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / ص٤٥١) ابن القيم على أن الشريعة والطبيعة قد تظاهرتا على أن اقل مدة للحمل هي ستة أشهر . ولكنه بالنسبة لاقصى مدة للحمل يقول انه لايزيد عند الأطباء عن شهر بعد موعده والا لمات الجنين في بطن امه ، وانهم يعدون مازاد عن ذلك خطأ في الحساب . وهو لهذا يرفض ماجاء في كتب الفقه من حكايات عن مولودين ذوى أسنان ، وعن مولودين لثلاث أو أربع سنين مؤكدا انها حكايات خرافية . وهو يسوق هنا رأى ابن حزم ، الذى يستنبط من قوله تعالى : " وحمله وفصاله ثلاثون شهرا " وقوله تعالى : " والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة " أنه لايمكن ان تقل مدة الحمل عن ستة أشهر أو تزيد عن تسعة ، والذى يكذب من يقول بغير هذا .

وقد ذكر د. حسن محمد باجودة (تأملات في سورة الرعد / ص٧٤) أنه قد بلغه أن علماء الغرب لايعترفون في الحمل بالزيادة عن تسعة أشهر ، وأن زميلا له أخبره ان أستاذه القانوني قال له بشأن الزيادة عن تسعة أشهر ان مثل هذه الحالة ليست موجودة لديهم وليست معترفا بها . ومن الواضح أن هذا يخالف مانقلته قبل قليل عن دائرة المعارف البريطانية . ويقول د. باجودة تعليقا على الموقف الغربي من هذه القضية كمانمي اليه : " يبدو أن التحلل الذى يعيشه الغرب المادى هو الذى يجعله يفسر كل حالة زيادة بالمعنى السيء الذى ينبغي في نظره أن يفسر به " . وقد رأينا ان ابن حزم هو ايضا لايعترف بأكثر من تسعة أشهر . وهاهو ذا دكتور مسلم متخصص في الطب يرفض ايضا الحكايات التى وردت في كتب الفقه القديمة عن ثلاث سنوات وأربع قائلا انها حكايات خرافية لاصحة لها .

٦٢-انظر هذا الرأى في الألوسي .

٦٣-القمر ٤٩

٦٤-الفرقان ٢

٦٥-الأحزاب ٣٨

٦٦-تكرر ذلك عشر مرات على مدار القرآن الكريم

٦٧-وقد تكرر ذلك تسع مرات في القرآن .

٦٨-البقرة ١٨٦

٦٩-الاسراء ٩٧

٧٠-الكهف ١٧

٧١-الحج ٢٥

٧٢-ق ٤١

٧٣-اعراب القرآن وبيانه / مجلد ٥ ص٩٠

٧٤-انظر تفسير ابن جرير ، و " زاد المسير " لابن الجوزى ، فى تفسير هذه الآية •

٧٥-انظر " مجمع البيان " للطبرسى ، فى تفسير الآية •

٧٦-انظر " البحر المحيط " ، فى تفسير الآية

٧٧-فاطر ١٩-٢١

٧٨-انظر الزمخشرى فى تفسير الآية ٢٢ من سورة " يونس"

٧٩-وان كان الرسول عليه السلام قد ذكر قبل ذلك بعدة آيات ، وذلك فى قوله تعالى : " وقالوا : لولا أنزل عليه آية من ربه " ، بيد أن الكلام قد اتخذ منعطفا آخر جعل محاولة اعادة الضمير فى " له " عليه صلى الله وسلم غير مستساغة

٨٠-انظر ابن جرير الطبرى ، والطبرسى ، والسيوطى فى " الدر المنثور " ، والآلوسى

٨١-انظر مثلا اعتراض الزمخشرى على هذا الاعراب عند تفسيره للآية

٨٢-البقرة ١٦٧

٨٣-انظر مثلا الطبرسى فى تفسير الآية

٨٤-الزمخشرى فى تفسير الآية

٨٥-" تفسير التحرير والتنوير " ، فى تفسير الآية •

٨٦-انظر الطبرسى فى تفسير الآية ، حيث أورد هذا الرأى مع الرأى السابق

٨٧-الزمخشرى والسيوطى فى تفسير الآية

٨٨-" فى ظلال القرآن " فى تفسير الآية

٨٩-الاسراء ٤٤

٩٠-د•محمد محمود حجازى " التفسير الواضح " ، فى تفسير الآية

٩١-الأنبياء ٢٠

٩٢-الأنبياء ٢٨

٩٣-استخدمت هنا المصطلحات التى ترى أن الألفاظ يعمل بعضها فى بعض، وان كنت أرى أن العامل هو الشخص المتكلم ، فهو الذى يرفع وينصب ويجر ويجزم ، وذلك حسب المعانى التى فى ذهنه ، بناء على ماجرى عليه العرف فى القواعد النحوية الشائعة

٩٤-انظر البيضاوى فى تفسير الآية

٩٥-انظر " اعراب القرآن الكريم وبيانه " لمحيى الدين الدرويش، وانظر كذلك الطبرسى فى اعراب الآية ، وان لم يذكر الأخير مصطلح " الاستئناف " بنصه ، بل يفهم من عبارته

٩٦-البقرة ١٧

٩٧-البقرة ١٧١

٩٨-انظر الطبرسى والآلوسى فى تفسير الآية

٩٩-انظر محيى الدين شيخ زاده والآلوسى فى تفسير الآية

١٠٠-انظر " اعراب القرآن وبيانه " لمحيى الدين الدرويش فى اعراب الآية / مجلد ٥ ص ٩٩

١٠١-انظر هذا التفسير فى الآلوسى

١٠٢-الآية ٣٢

١٠٣-هذه هي عبارة الألوسي

١٠٤-النازعات ١٨ . وبالمناسبة فهو النبي الوحيد (الى جانب النبي محمد عليهما الصلاة والسلام) الذى وجه اليه منفردا هذا الفعل

١٠٥-الاسراء ٢٣، ٢٤، ٢٨

١٠٦-الأعراف ٢٨

١٠٧-النحل ١٠١-١٠٢

١٠٨-البقرة ١٤٢

١٠٩-الأنعام ١٤٨

١١٠-الرعد ٤٣

١١١-الفتح ١٥

١١٢-آل عمران ١٥٤

١١٣-التوبة ٦١

١١٤-الاسراء ٥١

١١٥-الكهف ٢٢

١١٦-النحل ٧١-٧٢

١١٧-البقرة ١٨٩

١١٨-البقرة ٢١٧

١١٩-البقرة ٢٢٢

١٢٠-الكهف ٨٣

١٢١-طه ١٠٥

١٢٢-النساء ١٢٧

١٢٣-النساء ١٧٦

١٢٤-يونس٥٣

١٢٥-الأنعام ٥٤

١٢٦-آل عمران ٢٠

١٢٧-الأنعام ١٤٨

١٢٨-الحج ٦٨

١٢٩-آل عمران ٣١-٣٢

١٣٠-آل عمران ٤٣

١٣١-الأنعام ١١-١٢

١٣٢-الأنعام ١٩

١٣٣-التوبة ٥١-٥٣

١٣٤-سبأ ٢٤-٢٧

١٣٥-سبق فى تفسير الآية الخامسة من هذه السورة الاشارة الى أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يناد فى القرآن باسمه ، بل بـ " ياايها النبى (١٣ مرة) ، و " ياايها الرسول " (مرتين) ، و "ياايها المدثر" (مرة) ، و " ياايها المزمل " (مرة)

١٣٦-الأنفال ٧٠

١٣٧-الاحزاب ٢٨

١٣٨-الأحزاب ٥٩
١٣٩-آل عمران١٢
١٤٠-آل عمران ٢٠
١٤١-آل عمران ٢٦
١٤٢-آل عمران ٦٤
١٤٣-آل عمران ٩٨
١٤٤-الأنفال ٣٨
١٤٥-الحج ٤٩
١٤٦-النور ٣٠
١٤٧-النور ٣١
١٤٨-الأحزاب ٢٨
١٤٩-الأحزاب ٥٩
١٥٠-الزمر ١٠
١٥١-الزمر ٤٦
١٥٢-الزمر ٥٣
١٥٣-الفتح ١٦
١٥٤-الجمعة ٦
١٥٥-الكافرون ١-٢
١٥٦-انظر الطبرسي والألوسي مثلا فى تفسير هذه الآية
١٥٧-يقصد الآيات ٨٤-٨٩
١٥٨-الزمخشرى فى تفسير الآية
١٥٩-الطبرسى فى تفسير الآية
١٦٠-الألوسى فى تفسير الاية
١٦١-انظر " فى ظلال القرآن " فى تفسير الآية
١٦٢-تأملات فى سورة الرعد ص١٠٩
١٦٣-الطور ٤٧
١٦٤-القصص٢٣
١٦٥-البقرة ٩٤
١٦٦-البيضاوى فى تفسير الآية ٠ وانظر الألوسى ايضا
١٦٧-الأنعام ٥٠ ، وفاطر ١٩ ، وغافر ٥٨ ، وهود ٢٤
١٦٨-انظر على سبيل المثال " البرهان " للزركشي / جـ ٤ ص١٢ ، والسباعى بيومى / تاريخ الأدب العربى فى صدر الاسلام والعصر الأموى ص٩٥ ، ود٠حسن محمد باجودة / تأملات فى سورةالرعد ص١١٨ ، ود٠عبدالجليل عبدالرحيم / لغة القرآن الكريم ص٢٤٦
١٦٩-انظر شرح ابن عقيل / جـ ٢ ص٢٢٩-٢٣١
١٧٠-البقرة ١٣٣
١٧١-الطور ٣٩
١٧٢-الأنبياء ٤٣
١٧٣-الطور ٣٥-٤٣
١٧٤-انظر عباس حسن / النحو الوافى جـ ٣ ص٦٠٠-٦٠٢

١٧٥-هذه هي المواضع التي تكررت وتتابعت فيها " أم " ، مع الهمزة أو بدونها : النساء٥٣-٥٤ ، والأعراف ١٩٥ ، ويونس٣٥ ، والمؤمنون ٦٨-٧٢ ، والنور ٥٠ ، والنمل ٥٩-٦٤ ، وسبأ ٤٠ ، وص٩-١٠ ، والطور ٣٠-٤٣ ، والملك ٢٠-٢٢ ، والقلم ٣٧-٤١

١٧٦-الآية ٣

١٧٧-الآية ٤

١٧٨-الآية ١٢

١٧٩-الآية ١٤

١٨٠-الآية ١٧

١٨١-الآية ١٧

١٨٢-الآية ٣٥

١٨٣-الزمخشرى فى تفسير الآية

١٨٤-الطبرسى فى تفسير الآية

١٨٥-انظر د٠حسن حمد باجودة / تأملات فى سورة الرعد ١٢٤-١٢٧

١٨٦-انظر دقائق التفسير الجامع لتفسير الامام ابن تيمية ، فى تفسير الآية

١٨٧-آل عمران ٩١

١٨٨-الأعراف ١٧٩

١٨٩-النساء ١١٦

١٩٠-الزمر ٥٣-٥٤

١٩١-الآية ٣٩

١٩٢-د٠حسن محمد باجودة / تأملات فى سورة الرعد ص١٣٨ ، والعبارة والشرح من عندى

١٩٣-الروم ٤٤

١٩٤-التوبة ٣٤

١٩٥-آل عمران ٢٦٦ ، والأنفال ١٦

١٩٦-ابراهيم ٢٩

١٩٧-الكهف ٥٠

١٩٨-ص٥٦

١٩٩-ص٦٠

٢٠٠-الحج ٤٦

٢٠١-وهذا غير التركيب الذى أوردناه أنشاء مناقشتنا لقضية مكية السورة أو مدنيتها والمكون من " همزة استفهام + فاء (أو واو) العطف + من الاستفهامية ٠٠٠ " فقط (أى بحذف باقى السؤال) ، فهذا التركيب لاوجود له الا فى المكى ، بخلاف التركيب الذى فى آيتنا ، فهو موجود فى المكى والمدنى معا

٢٠٢-آل عمران ١٦٢

٢٠٣-السجدة ١٨

٢٠٤-محمد ١٤

٢٠٥-القصص٦١

٢٠٦-ص٢٨

٢٠٧-القلم ٣٥

٢٠٨-الحجر ٩

٢٠٩-النحل ٤٤

٢١٠-الأنبياء ٥٠

٢١١-الغاشية ٢١

٢١٢-الآية ٢١

٢١٣-الأعراف ١٧٢

٢١٤-انظر الزمخشرى والبيضاوى والطبرسى والألوسى فى تفسير الآيتين

٢١٥-النحل ٤٤

٢١٦-النساء ١٦٥ ،والأنعام ١٥٥-١٥٧ ، والاسراء ١٥ ، وطه ١٣٤ ، وفاطر ٤٢ (على الترتيب)

٢١٧-البقرة ٤٠

٢١٨-البقرة ٨٣ ، والنساء ١٥٤ ، والأعراف ١٦٩

٢١٩-النساء ١٥٥-١٥٧

٢٢٠-المائدة ٧

٢٢١-انظر " البحر المحيط " ، والألوسى ، ومحمد الطاهر بن عاشور فى تفسير الآية ، وكذلك د٠حسن محمد باجودة / تأملات فى سورة الرعد ص١٥١-١٥٢

٢٢٢-انظر فى هذا الاعراب محيى‌الدين الدرويش/ اعراب القرآن وبيانه / مجلد ٥ ص١١٥

٢٢٣-" البحر المحيط " فى تفسير الآية ٠ وقد نقل عنه الألوسى ٠

٢٢٤-" تفسير التحرير والتنوير " فى تفسير الآية ٠ وكذلك د٠باجودة ص١٥٤ ، حيث يزيد الشرح تفصيلا

٢٢٥-أشار الى هذا الاعراب " البحر الميحط " فى تفسير الآية ، وكذلك الألوسى

٢٢٦-الواقعة ٩٣-٩٥

٢٢٧-النساء ١٤٢

٢٢٨-المؤمنون ٢

٢٢٩-الماعون ٤-٥

٢٣٠-الكهف ٤٦

٢٣١-العاديات ٨

٢٣٢-آل عمران ١٤

٢٣٣-البقرة ٢٧١

٢٣٤-انظر مثلا ابن حيان ، والزمخشرى فى تفسير الآية ، ود٠باجودة ص١٥٥ ٠ وقد جوز البقاعى ذلك فى " نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور " فى الكلام عن الآية

٢٣٥-قاله الحسن ٠ انظر مثلا الألوسى فى تفسير الآية

٢٣٦-"تفسير القرآن العظيم " فى الكلام عن الآية

٢٣٧-انظر محيى‌الدين الدرويش‌فى اعراب الآية

٢٣٨-فصلت ٣٤

٢٣٩-هود ١١٤

٢٤٠-الآية ٦

٢٤١-الآية ١١

٢٤٢-الاية ١٨

٢٤٣-الآية ٢١

٣٤٤-الأيتان ٢٥، ٢٩

٢٤٥-الرعد ٢٢، ٢٤، ٣٥، ٤٢

٢٤٦-الرعد ٣٥

٢٤٧-الشمس ١٥

٢٤٨-الآيات ٢٢، ٢٤، ٣٥، ٤٢

٢٤٩-الآية ٦، ٣٢ " عقاب " ، والآية ١١ " معقبات " ، والآية ٤١ " معقب " .

٢٥٠-غافر ٨

٢٥١-الطور ٢١

٢٥٢-الكهف ٤٦

٢٥٣-آل عمران ١٤

٢٥٤-مريم ٤٦

٢٥٥-التغابن ١٤

٢٥٦-انظر " اعراب القرآن " للعكبرى عند الكلام على الآية . وانظر كذلك القرطبى والألوسى

٢٥٧-وردت هذه التسمية مرتين : الأنعام ١٢٧ ، ويونس ٢٥

٢٥٨-الحشر ٢٣

٢٥٩-انظر تفسير السيوطى فى " الدرر المنثور " للآية

٢٦٠-ص ٣٠

٢٦١-ص ٤٤

٢٦٢-الصافات ٧٥

٢٦٣-ابراهيم ٢٩

٢٦٤-انظر القرطبى ، الذى أورد هذا الرأى عن مقاتل

٢٦٥-الشورى ٢٣

٢٦٦-وردت فيه تسع مرات . وقد جعل الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى احد المواضع التى وردت فيها هذه العبارة (خارج سورة " الرعد ") ، وهو الآية ٥٢ من سورة " الزمر " ، آية مدنية . لكنى لا اطمئن الى هذا ، فالسورة كلها مكية ، وليس فى الآية مايدل على أنها نزلت فى المدينة

٢٦٧-العلق ٦-٧

٢٦٨-الزخرف ٣١

٢٦٩-سبا ٣٥

٢٧٠-مريم ٧٣

٢٧١-هود ٢٧

٢٧٢-يس ٤٧

٢٧٣-البقرة ٦١

٢٧٤-السجدة ٢١

٢٧٥-المجادلة ٧

٢٧٦-المزمل ٢٠

٢٧٧-آل عمران ١٨٥ ، والحديد ٢٠

٢٧٨-النساء ٧٧

٢٧٩-الأنعام ٣٢

٢٨٠-التوبة ٣٨

٢٨١-الكهف ٤٥

٢٨٢-غافر ٣٩

٢٨٣-الأعلى ١٥-١٦

٢٨٤-التوبة ٨١

٢٨٥-التوبة ٢٢ . وهو مثل ضربه الله للدنيا وفرح الكفار بها غافلين عن أن المصائب تنتظرهم

٢٨٦-القصص٧٦

٢٨٧-آل عمران ١٨٨

٢٨٨-المؤمنون ٥٣

٢٨٩-طه ١٣١

٢٩٠-القصص٦١

٢٩١-الشعراء ٢٠٥-٢٠٧

٢٩٢-لقمان ٢٤

٢٩٣-محمد ١٢

٢٩٤-المرسلات ٤٦

٤٩٥-الأحقاف ٢٠

٢٩٦-غافر ٣٩

٢٩٧-الحديد ٢٠

٢٩٨-انظر " اعراب القرآن وبيانه " / مجلد ٥ ص١١٩

٢٩٩-الكهف ٢٩

٣٠٠-المزمل ١٩

٣٠١-المدثر ٢٧

٣٠٢-المدثر ٥٥

٣٠٣-الانسان ٢٩

٣٠٤-النبأ ٣٩

٣٠٥-عبس١٢

٣٠٦-التكوير ٢٨

٣٠٧-الكهف ٧٧

٣٠٨-النور ٦٢

٣٠٩-البقرة ٥٨

٣١٠-البقرة ٢٢٣

٣١١-الأعراف ١٦١

٣١٢-الزمر ١٥

٣١٣-فصلت ٤٠

٣١٤-البقرة ٣٥

٣١٥-الاعراف ١٩

٣١٦-الأحزاب ٥١

٣١٧-الأنعام ١٣٨

٣١٨-الأنفال ٣١

٣١٩-هود ٨٧

٣٢٠-يوسف ٥٦

٣٢١-سبأ ١٣

٣٢٢-النحل ٣١

٣٢٣-الفرقان ١٦
٣٢٤-الزمر ٣٤
٣٢٥-الشورى ٢٢
٣٢٦-ق ٣٥
٣٢٧-الانسان ٣٠
٣٢٨-التكوير ٢٩
٣٢٩-الأنفال ٥٣
٣٣٠-الرعد ١١
٣٣١-الرعد ٢٧
٣٣٢-التوبة ١٤
٣٣٣-محمد ٧
٣٣٤-انظر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، في تفسير الآية
٣٣٥-انظر " مجمع البيان " و " الكشاف " و " نظم الدرر " في تفسير الآية .
٣٣٦-البقرة ٩٧
٣٣٧-البقرة ٩٨
٣٣٨-البقرة ١٥٨
٣٣٩-آل عمران ٩٧
٣٤٠-الأنعام ١٤٥ . والمعنى : " فمن اضطر غير باغ ولا عاد فسوف يغفر الله له " ، وقس الباقي على ذلك
٣٤١-هود ١٧
٣٤٢-يوسف ٩٠
٣٤٣-الرعد ٣٣
٣٤٤-الحج ٢٥
٣٤٥-الحج ٣٢
٣٤٦-النور ٢١
٣٤٧-النمل ٩١
٣٤٨-فاطر ٨
٣٤٩-الزمر ١٩
٣٥٠-الزمر ٢٢
٣٥١-الزمر ٢٤
٣٥٢-فصلت ٤١-٤٢
٣٥٣-الزخرف ١٨
٣٥٤-الحاقة ١-٢
٣٥٥-القارعة ١-٢
٣٥٦-الآية ٣
٣٥٧-الآية ٢٢
٣٥٨-الأنفال ٢ ، والحج ٣٥
٣٥٩-الألوسي في تفسير الآية . وانظر كذلك الزمخشري ، الذي يقول كلاما قريبا من هذا
٣٦٠-الاسراء ٤٦
٣٦١-المؤمنون ٧١

٣٦٢-الزمر ٤٥

٣٦٣-الزمر ٢٢

٣٦٤-الكهف ٢٨

٣٦٥-النجم ٢٩

٣٦٦-المجادلة ١٩

٣٦٧-الأنبياء ٢-٣

٣٦٨-الأنبياء ٥٠

٣٦٩-الشعراء ٥

٣٧٠-انظر هذا الرأى في الألوسى فى اعراب الآية

٣٧١-الرعد ٢٣-٢٤

٣٧٢-الزخرف ٦٩-٧٠

٣٧٣-الدخان ٤٨-٤٩

٣٧٤-الأحقاف ٢٠

٣٧٥-الألوسى فى تفسير الآية

٣٧٦-النساء ٢٢

٣٧٧-النساء٣٨

٣٧٨-الاسراء ٣٢

٣٧٩-الكهف ٢٩

٣٨٠-الكهف ٣١

٣٨١-الكهف ٥٠

٣٨٢-طه ١٠١

٣٨٣-الفرقان ٧٦

٣٨٤-الفتح ٦

٣٨٥-آل عمران ١٣٧
٣٨٦-الأعراف ٣٨
٣٨٧-غافر ٨٥
٣٨٨-فصلت ٢٥
٣٨٩-الأحقاف ١٨
٣٩٠-يونس١٠٢
٣٩١-الأحزاب ٦٢
٣٩٢-"نظم الدرر " في تفسير الآية
٣٩٣-انظر " تفسير التحرير والتنوير " في تفسير الآية
٣٩٤-هذا رأى ابن عطية ، ذكره ابن حيان في " البحر المحيط " في تفسير الآية
٣٩٥-الطبرسى ، في تفسير الآية
٣٩٦-البقرة ١١٣
٣٩٧-الأنعام ١٣٦-١٣٧
٣٩٨-الكهف ٩٠-٩١
٣٩٩-طه ١٢٦
٤٠٠-الاسراء ١١٠
٤٠١-الفرقان ٦٠
٤٠٢-الزخرف ٢٠
٤٠٣-التوبة ١١٧
٤٠٤-الأعراف ١٤٣
٤٠٥-البقرة ١٢٨
٤٠٦-البقرة ٣٧
٤٠٧-النصر ٣
٤٠٨-قال به الزجاج
٤٠٩-الأنعام ٧
٤١٠-الأنعام ١١١
٤١١-الحجر ١٤
٤١٢-الاسراء ٥٩
٤١٣-"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " فيتفسير الآية
٤١٤-آل عمران ١٢٨
٤١٥-النساء ٤٧ ، والأحزاب ٣٧
٤١٦-الأعراف ٥٤
٤١٧- هود ١٢٣
٤١٨-الروم ٤
٤١٩-الأحزاب ٣٨
٤٢٠-الأحقاف ٢٥
٤٢١-الحجرات ٩
٤٢٢-الذاريات ٤٤
٤٢٣-الانفطار ١٩

٤٢٤-انظر " البحر المحيط " في تفسير الآية

٤٢٥-انظر تفسير القرطبي ، و "الدر المنثور " مثلا في تفسير الآية

٤٢٦"البحر المحيط " في تفسير الآية

٤٢٧-" الكشاف " في تفسير الآية

٤٢٨-انظر أبوحيان والطبرسي ، اللذين ردا بأن هناك من نقل هذا المعنى عن بعض العرب ، وقالا ان من حفظ حجة على من لم يحفظ

٤٢٩-انظر أبو حيان في هذه الآراء عند تفسيره للآية . وممن اختار تفسير اليأس بالقنوط البقاعي . انظر " نظم الدرر " في تفسير الآية . . .

٤٣٠-يوسف ٨٧

٤٣١-هود ٩

٤٣٢-فصلت ٤٩

٤٣٣-الاسراء٨٣

٤٣٤-ابراهيم ٥٦

٤٣٥-الزمر ٥٣

٤٣٦-وردت الاشارة الى هذه القصة في سورة " الصافات " ١٣٩-١٤٨

٤٣٧-يوسف ١١٠

٤٣٨-الشورى ٢٨

٤٣٩-"في ظلال القرآن " في تفسير الآية

٤٤٠-انظر " تفسير التحرير والتنوير " في تفسير الآية

٤٤١-قاله ابن عباس ومجاهد ، وأخذ به الزمخشري . انظر في ذلك " تفسير مجاهد " و " الكشاف "

٤٤٢-قال بذلك الحسن . انظر الطبرسي عند تفسيره للآية

٤٤٣-انظر " نظم الدرر " عند تفسير الآية

٤٤٤-آل عمران ١٥٢

٤٤٥-لم تخل المدينة من الاستهزاء أيضا ، ولكن من جانب المنافقين واليهود . ولأنهم كانوا الفريق الأضعف فقد كان استهزاؤهم عادة خفية فيما بينهم . ومع هذا كان الوحي يفضحه ويفضح أصحابه . ومن المؤكد انه لم يكن ذا تأثير يذكر على الرسول عليه السلام ، كما انه كان قليلا ضيق النطاق / البقرة ١٤-١٥ ، والمائدة ٥٧-٥٨ ، والتوبة ٦٤-٦٥

٤٤٦-الأنعام ٥

٤٤٧-الأنعام ١٠

٤٤٨-هود ٨

٤٤٩-الحجر ١٠-١٣

٤٥٠-الأحقاف ٢٦

٤٥١-فصلت ٢٦

٤٥٢-الفرقان ٦٠

٤٥٣الحجر ٦

٤٥٤-سبأ ٧

٤٥٥-الأنعام ٣٣

٤٥٦-الزخرف ٣١

٤٥٧-الزخرف ٥٧-٥٨

٤٥٨-تأملات في سورة الرعد ص١٩١

٤٥٩-الأعراف ٩٤

٤٦٠-هود ١٠٢

٤٦١-الحج ٤٨

٤٦٢-المؤمنون ٦٤

٤٦٣-فاطر ٢٦

٤٦٤-غافر ٥

٤٦٥-الذاريات ٤٠

٤٦٦-المزمل ١٦

٤٦٧-النساء ١٥٣

٤٦٨-هود ٦٧، ٩٤

٤٦٩-الأعراف ٧٨

٤٧٠-الشعراء ١٨٩

٤٧١-العنكبوت ١٤

٤٧٢-أبو حيان ، ونقله عنه د٠ باجودة ، وان يكن قد أشار الى تضمنه مع ذلك وعيدا للكفار المعاصرين للرسول عليه السلام ٠ انظر " تأملات في سورة الرعد " ص١٩٢

٤٧٣-الألوسي ومحمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية

٤٧٤-الحج ٤٤

٤٧٥-سبأ ٤٥

٤٧٦-فاطر ٢٦

٤٧٧-غافر ٥

٤٧٨-القمر ١٥-١٦

٤٧٩-القمر ١٨

٤٨٠-القمر ١٩-٢١

٤٨١-القمر ٣٠

٤٨٢-الملك ١٨

٤٨٣-انظر القرطبي مثلا

٤٨٤-البقرة ٢٥٥ ، وآل عمران ٢ ، وطه ١١١

٤٨٥-أورده القرطبي عن الضحاك في تفسير الآية ، وذكره أبو حيان أيضا نقلا عنه

٤٨٦-الأعراف ٧١

٤٨٧-يوسف ٣٩-٤٠

٤٨٨-النجم ١٩-٢٣

٤٨٩-من الذين قالوا بذلك الزمخشري في " الكشاف " ، والبقاعي في " نظم الدرر " والشيخ محمد الطاهر بن عاشور في " تفسير التحرير والتنوير " عند تناولهم للآية ٠ كما وجدت أن عبدالله يوسف علي قد ترجمها بهذاالمعنى ، ولم يشر الى المعنى الآخر في الهامش ،ولو على سبيل التعريف بأن هناك رأيا آخر في تفسير العبارة ٠

٤٩٠-ممن قالوا بالرأى الثاني أبوحيان في " البحر المحيط " وفي " النهر الماد من البحر " أيضا عند تفسيره للآية ٠ وقد نقله عنه د٠باجودة في " تأملات في سورة الرعد " ص٩٧ ٠ وممن ذكر التفسيرين الألوسي

٤٩١-يونس١٨

٤٩٢-الروم ٧

٤٩٣-الحديد ١٣

٤٩٤-البقاعى فى " نظم الدرر " عند تناوله لتفسير الآية . وهذا نص كلامه : " وقع التزين بأمر من لايرد أمره على يد من كان "

٤٩٥-الزمخشرى مثلا ، والطبرسى . وكذلك د. باجودة ص١٩٨

٤٩٦-سيد قطب ، فى تفسير الآية

٤٩٧-قاله محمد الطاهر بن عاشور

٤٩٨-أورد هذا الرأى الطبرسى فى " مجمع البيان " عند تفسير الآية ، بعد أن ذكر رايه هو وانه الشيطان ، كما مر .

٤٩٩-مثل أبى حيان ، وكذلك عبدالله يوسف على الذى ترجمها بما معناه " بل الذين كفروا تبدو دعواهم سارة " ، وبذلك تجنب المشكلة من اساسها ، ولم يتعرض فى الهامش الذى خصصه للتعليق على الآية لفاعل التزيين بشىء .

٥٠٠-الأنعام ٤٣

٥٠١-النمل ٢٤

٥٠٢-النمل ٤

٥٠٣-الأنعام ١٣٧

٥٠٤-يوسف ٥٣

٥٠٥-المائدة ٣٠

٥٠٦-طه ٩٦

٥٠٧-يوسف ١٨-٨٣

٥٠٨-محمد ٢٥

٥٠٩-النمل ٢٤

٥١٠-العنكبوت ٣٨

٥١١-الأنعام ١٢٣

٥١٢-الأعراف ٩٩

٥١٣-النحل ٢٦

٥١٤-النمل ٥٠

٥١٥-فاطر ١٠

٥١٦-فاطر ٤٣

٥١٧-غافر ٤٥

٥١٨-الآية ٤٢

٥١٩-قال ذلك الألوسى ، وهو جيد . والعبارة عبارتى

٥٢٠-غافر ٢٨

٥٢١-الزمر ٣

٥٢٢-آل عمران ٨٦

٥٢٣-المائدة ١٦

٥٢٤-الرعد ٢٧

٥٢٥-النمل ١٠٧

٥٢٦-الشورى ١٣

٥٢٧-فصلت ١٧

٥٢٨-النمل ١٠٧

٥٢٩-البقرة ١٣٧

٥٣٠-آل عمران ٢٠

٥٣١-مريم ٧٦

٥٣٢-محمد ١٧

٥٣٣-النمل ٩٢ . وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات فى القرآن .

٥٣٤-السجدة ٣

٥٣٥-القلم ١٧

٥٣٦-آل عمران ١٠١

٥٣٧-النازعات ١٨-١٩

٥٣٨-مريم ٤٣

٥٣٩-غافر ٣٨

٥٤٠-الأعراف ١٥٩

٥٤١-الاسراء ٩

٥٤٢-الجن ١-٢

٥٤٣-الأعراف ١٠٠

٥٤٤-السجدة ٢٦

٥٤٥-الضلال لا الاضلال ، فهذا سيأتى بعد قليل

٥٤٦-البقرة ٢٦

٥٤٧-غافر ٣٤

٥٤٨-غافر ٧٤

٥٤٩-ابراهيم ٢٧

٥٥٠-البقرة ١٦، ١٧٥

٥٥١-النساء ٤٤

٥٥٢-الحج ٣-٤

٥٥٣-النساء ١١٩

٥٥٤-النساء ٦٠

٥٥٥-الأنعام ١٤٤

٥٥٦-النساء ١١٣

٥٥٧-المائدة ٧٧

٥٥٨-الأنعام ١١٦

٥٥٩-الأنعام ١١٩

٥٦٠-نوح ٢٧ . ونوح عليه السلام هو المتكلم ، والمقصود بكلامه هو كفار قومه .

٥٦١-يونس٨٨ . والمتكلم هو موسى عليه السلام . والاشارة فى الآية الى فرعون وقومه

٥٦٢-ص٢٦ . وهذا توجيه الهى لداود عليه السلام .

٥٦٣-ابراهيم ٣٦

٥٦٤-نوح ٢٤

٥٦٥-النساء ٨٨

٥٦٦-الرعد ٣٣ ، والزمر ٢٣
٥٦٧-الشورى ٤٦
٥٦٨-انظر مثلا البقاعى والألوسى فى تفسير الآية
٥٦٩-الطاهر بن عاشور فى تفسير الآية ، ود٠ باجودة / تأملات فى سورة الرعد ص ١٩٩
٥٧٠-مريم ٤٥ ٠ والمتحدث هو ابراهيم عليه السلام ٠
٥٧١-طه ٦١
٥٧٢-طه ١٣٤
٥٧٣-ص٤١
٥٧٤-النبأ ٣٠
٥٧٥-الفجر ١٣
٥٧٦-البقاعى فى تفسير الآية
٥٧٧-انظر الألوسى والشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى تفسير الآية ، وكذلك د٠باجودة ص ١٩٩٠
٥٧٨-الأعراف ١٧٦
٥٧٩-يونس٢٤
٥٨٠-الكهف ٤٥
٥٨١-الحشر ١٦
٥٨٢-محمد ١٥
٥٨٣-ومثل ذلك تركيب : " مثله ٠٠٠ كمثل ٠٠٠ " ، اذ لايصح أن نقول : " شبهه ٠٠٠ كشبه ٠٠٠ "
٤٨٤-انظر فى هذين الرأيين الطبرسى وأبا حيان والألوسى
٥٨٥-انظر مثلا أبا حيان والشيخ محمد الطاهر بن عاشور
٥٨٦-التوبة ١٠٠
٥٨٧-البقاعى فى تفسير الآية
٥٨٨-مريم ٢٤
٥٨٩-الواقعة ٣٢-٣٣
٥٩٠-الانسان ١٣
٥٩١-الواقعة ٣٦-٣٧
٥٩٢-ابراهيم ٤٨
٥٩٣-بالنسبة لرأى قتادة انظر " البحر المحيط " عند تفسيره للآية ٠ وفى رأى الطبرسى انظر تفسيره " مجمع البيان "
٥٩٤-مريم ٣٧
٥٩٥-ص١٣
٥٩٦-غافر ٥
٥٩٧-غافر ٣٠

٥٩٨-الاحزاب ٢٠
٥٩٩-غافر ٨١
٦٠٠-النحل ٨٣
٦٠١-الأنبياء ٥٠
٦٠٢-المؤمنون ٦٩
٦٠٣-النحل ٢٢
٦٠٤-الأنعام ٥٦
٦٠٥-يونس ١٠٤
٦٠٦-النمل ٩١
٦٠٧-الزمر ١١-١٢
٦٠٨-الزمر ١٤-١٥
٦٠٩-الزمر ٦٤-٦٦
٦١٠-غافر ٦٦
٦١١-سورة " الكافرون " بأكملها
٦١٢-انظر مثلا الزمخشري في تفسير الآية ، ود. باجودة ص٢٢
٦١٣-الفرقان ٧
٦١٤-الفرقان ٢٠
٦١٥-الاسراء ٩٤-٩٥
٥١٦-كما جوزه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور . انظر " تفسير التحرير والتنوير " عند الكلام في الآية
٦١٧-الاسراء ٩٣
٦١٨-ترجمها عبدالله يوسف علي بهذا المعنى
٦١٩-العنكبوت ٥٣
٦٢٠-طه ١٢٩
٦٢١-انظر مثلا البقاعي في تفسير الآية
٦٢٢-انظر في هذه الآراء المختلفة الزمخشري والطبرسي والقرطبي وابن حيان والألوسي عند تناولهم للآية
٦٢٣-انظر " في ظلال القرآن " عند تفسير الآية
٦٢٤-الآية ٦
٦٢٥-انظر " تفسير التحرير والتنوير " عند الكلام عن الآية
٦٢٦-الأنبياء ٢٣
٦٢٧-البحر المحيط ، في تفسير الآية
٦٢٨-تأملات في سورة الرعد ص٢١٦
٦٢٩-انظر " تأملات في سورة الرعد " ص ٢١٦
٦٣٠-الزخرف ٤١-٤٢
٦٣١-انظر هذه الآراء الثلاثة في أبي حيان وغيره
٦٣٢-الأنبياء ٤٤-٤٦
٦٣٣-انظر ترجمة محمد أسد للقرآن ص٣٦٩
٦٣٤-انظر ترجمة عبدالله يوسف علي للقران ص٦١٧
٦٣٥-لم يعربها الزمخشري والشيخ ابن عاشور الا حالا . ونفس الشيء عند محيي الدين الدرويش. انظر " اعراب القرآن وبيانه " ص١٣٥

٦٣٦-في الآيات ١٨، ٢١، ٤٠، ٤١

٦٣٧-النحل ١٢٧

٦٣٨-النمل ٧٠

٦٣٩-فاطر ١٠

٦٤٠-فاطر ٤٣

٦٤١-فاطر ١٠

٦٤٢-الأنعام ١٢٤

٦٤٣-غافر ٤٥

٦٤٤-الأنعام ١٢٣

٦٤٥- النمل ٥٠

٦٤٦-الأعراف ٩٩

٦٤٧-آل عمران ٥٤

٦٤٨-اعراب القرآن وبيانه ١٣٥

٦٤٩-الآيتان ٦، ٣٢

٦٥٠-انظر "تفسير التحرير والتنوير " عند تفسير الآية

٦٥١-النساء ٧٢، ١٦٦ ، والأنعام ١٩ ، ويونس٢٩ ، والرعد ٤٣ ، والاسراء ٩٦ ،والعنكبوت ٥٢ ، والأحقاف ٨ ، والفتح ٢٨ مثلا

٦٥٢-انظر في ذلك " البحر المحيط " و " تفسير التحرير والتنوير "

٦٥٣-لم يذكر الامام البقاعي الا هذا التفسير . انظر تفسيره للآية .

٦٥٤-انظر الطبرسي في تفسير الآية

٦٥٥-انظر تمهيد سيد قطب لتفسير السورة في " الظلال " . وقد تابعه في هذا د.حسن محمد باجودة . انظر ص١٢ من " تأملات في سورة الرعد " .

٦٥٦-الآيتان ٢٣، ٢٨

٦٥٧-الآيات ٧، ٢٧، ٤٣

٦٥٨-مرتين ، في الآية الرابعة

٦٥٩-آية ٦

٦٦٠-ثلاث مرات ، آية ١٧

٦٦١-آية ١٠

٦٦٢-الآية ١١

٦٦٣-آية ٩

٦٦٤-آية ١٧

٦٦٥-آيه ١٣

٦٦٦-آية ١١، ٤١

٦٦٧-آية ١٠

٦٦٨-الآية ٢٦ : متاع

٦٦٩-الآية ٣٤ : واق

٦٧٠-الآية ٢٨ : القلوب